ابراهيم عيسى

رجال

بعد

الرسول

رجال

بعد الرسول

"النص الكامل لبرنامج بنفس العنوان كتبه وقدمه إبراهيم عيسى
على شاشة قناة دريم الفضائية"

إبراهيم عيسى

إهداء

إلى

أبي

وأمي

عيسى

فهرس

عبد الله بن سعد بن أبي سرح

يوم فتح مكة كان يومًا عظيمًا مشرقًا في تاريخ الإسلام، كتائب المسلمين تدخل وتفتح هذا البلد الحرام، وأخليت الكعبة من الأصنام.. مشهد جلل. لا يوجد أقوى من هذا أو أعز منه أو أكثر نصرة لرسول الله والإسلام من هذا، ورغم أنه يـــوم السماحة المطلقة في تاريخ الإسلام.. اليوم الذي قـــرر فيـــه النبي عليه الصلاة والسلام أن يعفو عن كفار ومشركي مكة الذين آذوه وحاربوه. رغم هذا الجو الجلل من السماحة إلا أن رسول الله ﷺ أصدر أمرًا يخالف القاعدة المليئـــة بالرحمـــة والشفقة والسماحة التـــي أعطـــت درس الســـماحة الكبـــرى وهي "اذهبوا فأنتم الطلقاء" حيث قال الرسول ﷺ للمشـــركين وقد انتصر الإسلام ورفعت رايته عالية "اذهبوا فأنتم الطلقاء" إلا ثلاثة، وأمر جماعة من المسلمين بقتل ثلاثة من الكفـــار بالاسم ولو وجدوا تحت أستار الكعبـــة. هـــل هنـــاك أكثـــر من ذلك حرمة وحرامًا، هذا القرار الاستثنائي النبوي مـــؤداه أن هؤلاء الثلاثة على درجة من العنف والعمق فـــي الكفـــر والشرك إلى حد أن النبي عليه الصلاة والسلام يأمر بقـــتلهم في للحظة المثالية العظمى، لحظة الانتصار الكبير.. ولحظة

الرحمة الكبرى التي شملت الجميع إلا هؤلاء الثلاثة وهم ابن خطل، ابن صبابة، عبد الله بن سعد بن أبي سرح.

فمن هو عبد الله بن سعد الذي اعتبره النبي ثالث ثلاثة لا بد أن يقتلوا يوم فتح مكة؟، كان عبد الله بن سعد كاتبًا للوحي وارتد عن الإسلام وادعى أنه كان يكتب الوحي بما يوحي إليه به عقله، أي أنه كان يكتب من دماغه وعلى مزاجه، وأن هذا ليس كلامًا إلهيًا ربانيًا أنزله الله من السماوات العلا على نبيه ﷺ. طبعًا كانت هذه الردة والخروج عن الإسلام أمرًا جللاً وضرب بقوة شديدة في قدسية ووحي القرآن الكريم؛ ومن ثم يتضح الخطر الجلل الذي يمثله هذا الرجل المرتد ولا بد من قتله. أخذت جماعة من المسلمين المكلفين بهذه المهمة في البحث عن عبد الله بن سعد في كل مكان، وفي هذه اللحظة شعر عبد الله بن سعد أنه لن يفلت من قبضة هؤلاء الرجال مهما كان، وأن النبي قد انتصر، والإسلام قد ارتفع، والمسلمين وقد فتحوا مكة فلا مفر أو مهرب أمامه وأنه حتمًا مقتول. فماذا يفعل؟ لجأ عبد الله بن سعد إلى عثمان ﷺ. لماذا عثمان؟ لأنه أخوه في الرضاعة وبينهما هذه المودة والرحمة والقربى والصلة

التي كان عثمان بن عفان يحترمها ويقدها، أما عثمـــان بـــن عفان فمنطلقاً من هذه المحبة لعبد الله بن سعد ومـــن فكـــرة أنه شيخ عربي كبير جليل يلجأ إليه شخص ويستجير به مما حدث أغثني يا عثمان"، طبعًا عثمان بن عفان فعـــل الفعلـــة التي لم يكن لأحد أن يفعلها سواه فهو يعرف جيـــدًا مكانتـــه عند النبي عليه الصلاة والسلام، ويعرف جيدًا قدرتـــه فـــي طلب العفو عنده، فأخفى عثمان بن عفان عبد الله بـــن ســـعد عنده أو كما نقول الآن تستر علـــى مجـــرم وأخفـــاه تمامًـــا عن الجماعة التي كانت تطلبه ثم أخذه من يده فـــي مشـــهد تاريخي ــ عندما تقرأه في كتب السيرة والتراجم والتاريخ ــ ومشى به في الممرات والطرق حتى وصـــل إلـــى الـــزعيم المنتصر، والإمام العظيم، والنبي الكريم الجالس في لحظـــة انتصاره وسط صحابته من الأنصار والمهاجرين، دخل على الرسول عليه الصلاة والسلام شخص مطلوب قتله وسفك دمه ولو عند أستار الكعبة، دخل عليه سيدنا عثمان بن عفان وقال أنه يطلب العفو عن هذا الشخص الذي تاب وأناب ولن يفعلها مرة أخرى فصمت النبي عليه الصلاة والسلام طويلاً وهـــو التعبير الذي اعتمدته كافة كتب التاريخ والتراث والمراجـــع

الدينية التي عدنا إليها في هذا المشهد. صمت الرسول عليه الصلاة والسلام دقائق طويلة والكل في حالة توتر ودهشة وترقب لما سيفعله النبي، وما سيقوله، وهل سيقبل وساطة عثمان؟ ثم قال الرسول: نعم، فلما انصرف عثمان بن عفان وبصحبته عبد الله بن سعد قال النبي عليه الصلاة والسلام لمن حوله: ما صمت إلا ليقوم إليه بعضكم فيقتله، كان الأمر النبوي بقتل عبد الله بن سعد ولو عند أستار الكعبة ومن ثم وإن كان جالسًا أمام النبي عليه الصلاة والسلام. اندهش الصحابة وتوتروا وقلقوا حتى أن رجل من الأنصار قال له: هلا أومأت لي يا رسول الله؟، فرد النبي العظيم: "إن النبي لا ينبغي أن يكون هل خائنة الأعين". أي لا يوجد غمز ولمز. الكلمة كلمة، والموقف موقف بدون لف أو دوران، ونجا عبد الله بن سعد. هذا الرجل الذي نجا من القتل وارتد قبل ذلك عن الإسلام وادعى أنه يكتب الوحي بنفسه ــ وهناك بعض المؤرخين يشككون في أنه كان من كتبة الوحي وإنما كان من كتبة رسائل النبي وهذا الخلاف التاريخي دقيق ومهم ويفتح لنا أفقًا للجدل التاريخي ــ هذا الشخص الذي عفا عنه النبي ﷺ يوم فتح مكة هو نفسه يصبح حاكمًا لمصر

وفاتحًا لإفريقيا، وأحد الذين ردوا لعثمان بن عفان جميله وشارك في وضعه على مقعد الخلافة. هذا الدور الكبير الذي لعبه عبد الله بن سعد من مرحلة الإسلام الأولى إلى مرحلة الردة إلى استباحة قتله إلى النجاة من القتل، هو هذا الشخص الذي يصبح حاكمًا لمصر وأحد شركاء عمرو بن العاص في فتح مصر ثم فتح أفريقيا. في هذه اللحظة ربما تتعجب وتقول هل معقول أن هذا الشخص هو الذي كانت إرادة النبي في أن يموت ويقتل؟ فتكتشف أن الإرادة الإلهية هي الأعلى وهي التي أرادت أن هذا الشخص الذي كان من الممكن أن يقتل في يوم.. في ساعة.. في لحظة فتح مكة أن يلعب دورًا تاريخيًا، ولكن وهو يلعب هذا الدور التاريخي وأثناء حضوره الحياة النبوية ووجوده مع النبي في حياته كانت دموعه تتساقط منه ندمًا وتوبةً لأنه يعرف ماذا فعل، وكان يتساءل دومًا: "أيغفر لي ربي ما اقترفته في حق الإسلام وحق الرسول الكريم؟" وكان النبي عليه الصلاة والسلام يجيبه بأن الإسلام يجب ما قبله، وبالرغم من هذا عاش عبد الله بن سعد فترة حياة النبي لا يستطيع مقابلته، وكلما رآه

فر منه خجلاً وخزيًا لدرجة أن عثمان بن عفان ﷺ كان يقف وراءه ويصافحه ويسلم عليه.

شارك عبد الله بن سعد في جيش عمرو بن العاص الذي فتح مكة ومن الممكن أن تعتبره ــ ببساطة شديدة ــ أحد قواد حركة فتح مصر، بالطبع يعود الفضل السياسي والعسكري والديني لفتح مصر إلى عصر عمر بن الخطاب وقيادة عمرو بن العاص، وعندما علم عمر بن الخطاب بالدور البطولي والتاريخي الذي قام به عبد الله بن سعد قرر توليته حكم الصعيد. لاحظ أن عبد الله بن سعد كشخص يطارده هذا الماضي ونجا يوم فتح مكة بأعجوبة لا بد أن يكون في حالة اندفاع شديد لإثبات تدينه وثباته على الحق، فعبد الله بن سعد مثل طلقاء مكة الذي أسلموا يوم الفتح بعد أن أطلق النبي عليه الصلاة والسلام سراحهم وعفا عنهم كان لهم دور كبير في الفتوحات، والاستشهاد، وبذل النفس لتأكيد وتوكيد علاقتهم المتينة واللصيقة والقوية بالإسلام لأنه في النهاية أيضًا الماضي يطاردك فضلاً عن أن لديك رغبة في غسل هذا الماضي وتقديم نفسك باعتبارك جنديًا من جنود الله ورسوله.

أن يتولى عبد الله بن سعد حكم صعيد مصر فهذا ليس شأنًا هينًا، وأن يختار عمر بن الخطاب ـ وهو من هو ـ هذا الشخص فهذا ليس سهلاً على الإطلاق، ليس لأن القرار صادر عن عمر بن الخطاب فحسب، والذي كان حادًا جادًا، واضحًا، قويًا، صارمًا في اختيار الحكام والولاة.

عندما توفي عمر بن الخطاب رضوان الله عليه كان عبد الله بن سعد حاكمًا للصعيد في الوقت الذي كان فيه عمرو بن العاص واليًا على مصر وحاكمًا لها، وعندما تولى عثمان بن عفان الخلافة قرر أن يولي عبد الله بن سعد بن أبي سرح خراج مصر. لاحظ أن هذا القرار يعني أن يصبح عبد الله بن سعد وزيرًا للمالية أو أنه المسئول عن تحصيل الأموال وخراج مصر، وهذا يحتاج لصرامة وقدرة على التحصيل والأمانة، ولم يكن ذلك منصبًا هينًا، وبالطبع لم يكن عمرو بن العاص ليرتاح أبدًا إلى مثل هذا الوضع أو يوافق عليه فأعلن خلافه واختلافه ورفع أمر الخلاف إلى عثمان بن عفان وقال له إنه يجب عزل عبد الله بن سعد لأنه لا يمكن أن أكون أنا واليًا لمصر وليس لي شأن بأموالها وخراجها، لكن عثمان بن عفان امتنع عن ذلك وقال له: "يا عمرو لقد

ولاه عمر بن الخطاب"، وطوال الوقت كان مبــرر عثمــان هو اختيار عمر بن الخطاب له، والمعروف أنه عندما تــولى عثمان بن عفان الخلافة أقر لمدة عام حكام وولاة عمر بــن الخطاب على اعتبار إقرار اختيار عمر بن الخطــاب الــذي كان محل رضا من الجميع، لكن بعد ذلك بدأ الأمر يختلــف، وكان عثمان بن عفان يحتج دائمًا عندما يشكو له أحد الأفراد أن والي قد افسد أو أضل بأن عمر بن الخطاب كان قد ولاه، وهذه كانت المصداقية التي يحملها هذا الرجل ــ عبد الله بن سعد ــ أن عمر بن الخطاب كان قد ولاه حكم الصعيد فمــن الطبيعي أن أولية خراج مصر فضلاً عن أنــه عنــدما ولاه عمر بن الخطاب الصعيد لم يكن بينهما قربى، فما بالك أنــه أخي في الرضاع فكيف أعزله؟

لعبد الله بن سعد دور كبير في ولاية عثمان بن عفــان خلافة المسلمين، وكان هذا يبدو دائمًا كما لو أن عبد الله بن سعد يرد دينًا لعثمان بن عفان، والعكس بــالعكس، وانتهــى الأمر إلى أن أرسل عثمان بن عفان لعبد الله بن سعد يوليــه على مصر كلها وعزل عمرو بن العاص، وبعدما تولى عبد الله بن سعد ولاية مصر انتقد عثمان بن عفان عمــرو بــن

العاص في لقاء له بالمدينة المنورة فقال لـــه: "مصــــر درت بعدك ألبانها"، فرد عمرو بـــن العـــاص ـــ داهيـــة العـــرب والسياسي المحنك ـــ: "ذلك لأنكم أعجفتكم أولادها"، ويؤكـــد بعض المؤرخين أن عثمان بن عفان ولى حكم مصر لعبد الله بن سعد لأنه أسهل كثيرًا جدًا في السيطرة عليه من عمـــرو بن العاص الذي كان قامة كبيرة، ومـــن الصـــعب قيادتـــه، فهو موهبة كبيرة في السياسة، ويحتل منصبًا كبيرًا وهو حكم مصر، فعثمان بن عفان ارتضى ذلك لإخلاص عبد الله بـــن سعد له فهو لا يمكن أن ينسى يده التي استأمنته عند رســـول الله ﷺ.

أيضًا كان عبد الله بن سعد من الذين شاركوا في دعـــم وترشيح عثمان بن عفان لمقعد الخلافة عندما أشار على عبد الرحمن بن عوف أن يختاره خليفة لعمر بن الخطاب فقـــال له: "بايع عثمان وهذا ما سيجعلك تحصل على تجارة قريش كلها"، ولم يكتف عبد الله بن سعد بأن يكون حاكمًـــا لمصـــر فقط، لكنه استطاع أيضًا أن يكون فاتحًا لأفريقيا.

عندما استقر المقام بعبد الله بن سعد بن أبي سرح فـــي مصر واستتبت له الأمور كتب لعثمان بن عفان يخبـــره أن

أفريقيا بلاد قريبة، واستأذنه في فتحها، فشاور عثمان مجموعة من الصحابة فأشار معظمهم بالإقدام على غزو أفريقيا، ودعوة أهلها إلى الإسلام، فجهز عثمان بن عفان العساكر من المدينة، وأمد عبد الله بن سعد بجيش قوي جدًا وقوته أنه سمي بجيش العبادلة لتضمنه مجموعة كبيرة من أبناء الصحابة منهم عبد الله بن عباس، عبد الله بن عمر بن الخطاب، عبد الله بن عمرو بن العاص، عبد الله بن الزبير بن العوام، عبد الله بن جعفر، والحسن والحسين، وكان قوام الجيش عشرين ألف وفتحوا أفريقيا وانضم لهم في هذا الفتح عقبة بن نافع.

حدث تمرد ضد عبد الله بن سعد بعد فتح أفريقيا بفترة قصيرة نظرًا لأنه قرر أن يأخذ ثلث الغنائم، وهو ما أقره عليه عثمان بن عفان على مدى السنة والثلاثة أشهر التي استغرقها في فتح أفريقيا، إلا أن القادة المشاركين له رفضوا، وغضبوا، وعتبوا، ولاحقوا عثمان بن عفان وعبد الله بن سعد، وانتهى الأمر إلى أن سحب عثمان بن عفان موافقته على أن يأخذ عبد الله بن سعد ثلث الغنائم، وعاد عبد الله بن سعد إلى مصر ليحتفظ ـ كما تقول كتب التراث ـ

دارًا كبيرة أسماها قصر الجن، والحقيقة أن هذه الدار أثارت كثيرًا من اللغط لدرجة أنه عندما سأل عبـد الله بـن سـعد المقدام رأيه في تلك الدار قال له: "إن كنت بنيتها من مالـك فقد أسرفت، وإن كنت بنيتها من مال المسلمين فقد أفسـدت"، والحقيقة أنه كان قد أفسد بالفعل وبناها من مال المسـلمين، لكنه اكتشف أنه لكي يهدمها فسوف يكون الأمر له مضـار كثيرة، فانتهى الحال به إلى أن أبقى على القصر وكان هـذا أحد العلامات المؤشرة على ما حدث في ولاية عثمـان بـن عفان بن عفان، وما طرأ على ولاته مـن بنـاء القصـور الفخيمة لدرجة أن المدينة المنورة في عصر عثمان بن عفان عرفت بالقصور الفخيمة.

كان عبد الله بن سعد أحد أبطال معركة ذات الصواري أيضًا، وهي معركة شهيرة ومهمة بين المسـلمين والـروم، واستخدم فيها الروم ٦٠٠ مركبًا، بينما اسـتخدم المسـلمون ٢٠٠ مركبًا فقط بقيادة عبد الله بـن سـعد، وكانـت فكـرة أن يخوض المسلمون حربًا عبر البحار مسألة صعبة جـدًا، وغريبة على العقل العربي، وانتصر عبد الله بن سعد بن أبي سرح في معركة ذات الصـواري، وهـي معركـة فائقـة

الخطورة وذلك لاشتباك مركبه مع مراكب الروم، واستطاع جنوده أن يخلصوه من الفخ الذي وقع فيه، لكن فخًا آخر كان ينظر الجميع، ففي تلك الفترة قامت على عثمان بن عفان ثورة هائلة بداية من مصر التي كان يحكمها عبد الله بن سعد، حيث كانت هناك معارضة ضخمة، وثورة على عبد الله بن سعد، فاستدعاه عثمان بن عفان.

في هذه اللحظة التاريخية ظهر اسم محمد بن أبي حذيفة وهو ابن عم عثمان بن عفان ومن عائلته وأقاربه فضلاً عن أنه كان من الذين أحسن إليهم عثمان بن عفان وولاه ما لا يستحق بشهادة الجميع، ومع ذلك شارك محمد بن أبي حذيفة في دفع المسلمين إلى السفر إلى المدينة وحصار عثمان بن عفان وقتله.

عندما علم عبد الله بن سعد بمشاركة محمد بن أبي حذيفة في ذلك، وإرساله مجموعة المصريين للثورة في المدينة، كان عبد الله بن سعد محتارًا هل يرجع إلى مصر فيقع في فخ مع محمد بن أبي حذيفة، أم يذهب إلى المدينة المنورة ويلجأ لعثمان بن عفان المحاصر، فكان قراره بالسفر إلى المدينة، لكن عثمان كان قد قُتل، فحاول أن يرجع إلى

مصر لكن محمد بن أبي حذيفة منعه من دخـــول الفســـطاط ومصر كلها فهرب عبد الله بن سعد إلى عسقلان وأقام بهـــا حتى وصله مقتل عثمان بن عفان وما تلي ذلك. كان السبب في طرد محمد بن أبي حذيفة لعبد الله بن سعد من مصر أنه كان يطمح في حكم مصر بدلاً منه. وقيل إن عبد الله بعد أن توضأ ذات يوم في عسقلان، ثم صلى الصبح فارقت روحـــه جسده إلى بارئها.

خالد بن الوليد.. سيف الله المسلول

عندما عزل عمر بن الخطاب ﷺ خالد بن الوليد، عاد خالد مرة أخرى إلى المدينة المنورة عاصمة الخلافة ومقر الحكم، ومن المدهش أن نعرف من كتب التاريخ أن عمر بن الخطاب لم يتخذ قصرًا ولا حتى بيتًا للخلافة والحكم، وهذا يرجعنا إلى قصة اغتيال عثمان بن عفان واقتحام بيته أو داره لتكتشف أنه لم يكن هناك حراس ولا بوابات عالية، ومن ثم يجب الاعتبار جيدًا لفكرة أن قصر عمر بن الخطاب ومقر إدارة الحكم كانت المسجد أو بالأحرى جزء من المسجد النبوي حيث كان يجلس عمر بن الخطاب فيدير العالم ويحكم الأمة شرقًا وغربًا في واحد من البرلمانات العظيمة في تاريخ البشرية ما بين صحابة يختلفون معه، وصحابة يحاورونه، وصحابة يواجهونه، ويناظرونه إلى حد أن خالد بن الوليد القائد العسكري صاحب الفتوحات والمجد، وحامل نيشان ورتبة كبيرة جدًا من الرسول عليه الصلاة والسلام بأنه سيف الله المسلول.

عندما أطلق الرسول عليه الصلاة والسلام على خالد بن الوليد لقب "سيف الله المسلول" لم يكن ذلك لأنه انتصر، ولكن لأنه أنقذ الجيش بالانسحاب.. قدرته على الانسحاب هي التي جعلته سيف الله المسلول، إذن ليس بالضرورة أن النصر والانتصار العسكري والمجد الضخم هو الذي يجعلك عظيمًا مهابًا، وإنما مجرد القدرة على إنقاذ الدم المسلم يجعلك بطلاً، وقمة من قمم التاريخ العسكري والديني، عندما رفعت هذه المهابة عن خالد بن الوليد.. مهابة القائد، هذه الهيبة.. هيبة المنتصر، هذا الفارس ترجل وذهب إلى الفاروق عمر بن الخطاب في المسجد مقر الخلافة وجلس إلى السجادة الجالس عليها عمر بن الخطاب فلم نعرف له كرسيًا أو عرشًا أو حتى مرتبة أو فرشتين فوق بعض ــ وقال خالد بن الوليد لعمر بن الخطاب: "لقد شكوتك والله إنك لغير محق في أمري".

بالرغم من أن خالد بن الوليد كان يحدث أمير المؤمنين، إلا أنه كان يملك هذه الحرية، وهذه القدرة على المواجهة، والمناظرة، والشكوى، بل ورفض القرار. فرد عليه سيدنا عمر بن الخطاب الرد العمري الذي هو مفتاح شخصية

عدله، وعدل شخصيته، ومفتاح عظمة الأمم، وتساءل عمــر ابن الخطاب السؤال الذي سأله الحاكم فتأكد أن الأمة ستسير على نحو رائع ومدهش ومتقدم. سأل عمر بن الخطاب خالد بن الوليد: "من أين لك هذا الثراء؟"، كان عمر بن الخطـــاب يسأله عن ماله وثرائه. ينتصر خالد بن الوليد ويفتح فتوحات عظيمة، وينتصر في معارك كبيرة ــ على عيني ورأسي ــ لكن هذا في النهايـــة لا يكـــون محصـــلته ثـــراءً وتربحًـــا واستغلالاً. سأله عمر بن الخطاب: "من أين لك هذا الثراء؟"، فرد عليه خالد بن الوليد: "من الأنفال" أي من الغنـــائم التـــي يحصل عليها باعتباره قائدًا من القواد كمـــا يوجـــب قـــانون أو عرف توزيع الغنائم، وأضاف خالد بن الوليد "ما زاد عن الستين ألفًا فلك"، وزاد مال خالد بن الوليد عن الســـتين ألفًـــا بعشرين ألف، فضمهما عمر بن الخطاب إلى بيـــت المـــال، الأمر واضح عند عمر بن الخطاب لا لبس فيـــه، ولا لـــف، ولا دوران. خالد بن الوليد قائد عسكري، وبطل من الأبطال، وفارس من الفرسان، وقل ما شئت من الألقـــاب والمزايـــا، والصفات، لكن عند هذه النقطة، وعند هذا الخـــط الأحمـــر فلا.. لا يوجد استغلال أو تربح، ولاحظ أننا نتحـــدث عـــن

عمر بن الخطاب الصحابي الجليل والمبشر بالجنة، وخالد بن الوليد صحابي آخر، وهو ما يعني أن لا أحد فوق النقد، أو أنه ما دام صحابي فإنه لا يخطئ ولا يقترب من المال، ولكن ما حدث أن خالد بن الوليد اعتقد أن ذلك حقه، وانتهى به الأمر إلى أن ذلك لم يكن من حقه، ومن هنا اختصمه عمر بن الخطاب وعزله.

شخصيًا لست مقتنعًا كثيرًا بما جاء في كتب التاريخ أن عمر بن الخطاب عزل خالد بن الوليد حتى لا يفتن به الناس، وأعتقد أن هذا التعبير قيل بشكل دبلوماسي على لسان عمر بن الخطاب، أو على لسان المؤرخين الذين اعتبروا أن هذا التعبير سوف يخفف من عنف مثل هذا القرار، وهو أن يخرج قائد منتصر مثل خالد بن الوليد خارج ساحة وميدان المعركة تمامًا بقرار مهم، وعاجل، وقوي من عمر بن الخطاب، والحقيقة أن خالد بن الوليد كشخصية كانت صفاته تتداخل فيها أمور تجعل شخصًا عظيمًا مثل عمر بن الخطاب يقرر عزله، بمعنى أن خالد بن الوليد كان غضوبًا أي كثير الغضب، وتذكر لنا كتب التاريخ أنه عندما كان يغضب كان يمتقع لونه، وكان خالد بن الوليد يغضب،

ويتشاجر مع الصحابة أنفسهم، حيث يحكــي لنــا التــاريخ أحاديث المغاضبة، فعلى سبيل المثال كانت هناك مغاضـــبة بينه وبين أبي عبيدة الجراح أحد القواد العظام فـــي التــاريخ الإسلامي، وأمين الأمة كما أطلق عليه الرسول عليه الصلاة والسلام؛ إذ حدث بينهم المعركة فكرية سياسية مهمة جدًا بعد فتح دمشق، فعندما سلمت الإمارة إلى المسلمين، وعملوا هدنة ومعاهدة؛ كان رأي أبو عبيدة الجــراح أن هــذه مصـــالحة ومعاهدة، أما خالد بن الوليد فكان يعتبر هذا انتصار عسكري من المسلمين على دمشق، ومن ثم كـــان جـــادًا فـــي هـــذا الموضوع تمامًا، وكما تذكر كتب التاريخ، كان له حدة يملكها أو تملكه، أي أن الغضب إما يتمكن منه، أو أن غضبه يفوق أي مقام له وللأستاذ عباس العقاد رأي فـــي هـــذا الســـياق وهو أن الحوادث التي بلغتنا إشارة إلى الكثير الذي لم يبلغنا؛ بمعنى أن كون خالد بن الوليد غضب من أبي عبيدة الجراح في هذا الأمر بينما استنكر أبو عبيـــدة الجــراح واســـتنكف أن يقتص من أهل حمص أو يأخذ نسائهم ســـبايا، وأمـــوالهم غنيمة ما داموا قد سلموا لهم؛ وكان رأيه أن هذا الفعل لـــيس فتحًا، وإنما جباية، وأن هذا ليس رفعًا لراية الإسلام، وإنمـــا

للانتصار العسكري، وهناك فرق في الرأي بين قائد عسكري لا يرى إلا المعارك والحرب، وبين رأي أبو عبيدة الجــراح ومن ورائه عمر بن الخطاب أن ما يفعلونه هو هداية وليس معركة أو خناقة، وأن ما حول الإسلام ومعاركه مــن كلمــة الغزو إلى كلمة الفتح هو أبو عبيــدة الجــراح وعمــر بــن الخطاب وليس خالد بن الوليد، ولذلك فإن الانتصار العظــيم حققه عمر بن الخطاب، والقيمة التي أرســاها أبــو عبيــدة الجراح هو أننا نفتح ولسنا نغزو، ولسنا نطمع فــي الأرض، أو المال، أو السبايا، أو الغنائم، وإن ما نبغيه هو فتح من الله ونصر. هذا النصر هو الذي جعل عمر بن الخطاب يقــرر عزل خالد بن الوليد، ولم يكتف خالد بن الوليد بهذه المغاضبة مع أبي عبيدة الجراح، ولكن تذكر لنا كتــب التــاريخ أنــه غاضب عبد الرحمن بن عوف، وعمار بن ياسر على مسمع ومشهد من الرسول عليه الصلاة والسلام؛ إذ قال خالد بــن الوليد لعمار بن ياسر: "لقد هممت ألا أكلمك أبــدًا"، فأصــلح بينهما النبي عليه الصلاة والسلام وهو يقول لخالــد: "مالــك ولعمار رجل من أهل الجنة قد شهد بدرًا"، ثم يقــول عليــه الصلاة والسلام لعمار: "إن خالد يا عمار سيف من ســيوف

الله على الكفار"، وتحكي لنا كتب التاريخ عن اعتزاز خالد بن الوليد بنفسه، وبقدراته.

كما يجب أن تلاحظ التكوين الاجتماعي لخالد بن الوليد باعتباره من أبناء الثراء، ومحبي الرفاهية، وبهجة الحياة لدرجة أنه لم يفرغ من الحرب إطلاقًا إلا وتزوج، وتذكر لنا كتب التاريخ أن حياة خالد بن الوليد كانت عام غزو، وعام نساء، فمثلاً ينتهي من معركة اليمامة فينتقل إلى زوجة من الزوجات الجدد، وينتهي من موقعة الجندل فيتزوج بأخرى حسناء، وهذا دليل على الرفاهية التي يعيشها فارس من الفرسان العظام وهو خالد بن الوليد.

عندما عُزل خالد بن الوليد عن قيادة الجيش تراجع دوره، واختفى تقريبًا من صفحات الكتب والتاريخ، وانتهى إلى بضعة صفحات بعد عزله بدلاً من تصدره المشهد التاريخي من غزوات وفتوحات. إذن يجب أن نعترف ونحن نقرأ هذا التاريخ أن دور خالد بن الوليد كقائد عسكري هو الدور الذي كان يمتلك حياته؛ بمعنى أنه بمجرد فراغه من القتال، وبمجرد رحيله من ساحة المعركة والحرب ينسحب دوره السياسي، والفقهي، والديني.

فماذا حدث بعد أن عاد السيف إلى غمده؟ قرر عمر بن الخطاب ألا يمكث خالد بن الوليد بالحجاز أو المدينة المنورة فرحل إلى حمص في الشام، وكان ذلك هو المكان الأثير لدى خالد بن الوليد، واختاره لأنه لا يريد أن يظـــل فـــي مكـــان صناعة القرارات السياسية وهو بعيد عنها، وكـــان يعـــرف ويدرك أن دوره هو القائد، والفارس، والفاتح، ومن ثم هناك أدوار أخرى يمكن أن يتجاوز أحدهم قـــدره فيـــه، أو يعلـــو في مقام عليه؛ لكن عمر بن الخطاب لم يكن ليتـــرك الأمـــر مفتوحًا إلى هذا الحد؛ فمثلاً كان عمر بن الخطاب يلوم خالد بن الوليد لأنه يتدلك بقطعة نسيج معجونـــة بـــالخمر عنـــد استحمامه معتبرًا ذلك دليل رفاهية لا مبرر لها وغير لائقة، وأشير هنا إلى أنه بالرغم من أن هـــذه التفصـــيلة صـــغيرة ومحدودة؛ إلا أن عمر بن الخطاب تدخل فيها، كما أنها تؤشر لمدى الرفاهية والإحساس بنعمة الحياة، وجمال الدنيا التـــي كان يعيشها هذا الفارس. تخيل أنه كان يقابل كل يوم موتى، وقتلى، ودماء، وحروبًا، وقرارات حاسمة، وآلاف الجثـــث، ومئات الشهداء، فكان نتيجة هذه المشـــاهد إمـــا أن ينتهـــي إحساسه بفزع الموت، وإما أن يتمسك بنعمة الحياة، وبدعـــة

العيش والرفاهية، والحقيقة أن خالد بن الوليد جمع بين الاثنين: رفاهية ودعة العيش خاصة أنه كان من بيئة ثرية جدًا تجنح به إلى المتعة في الحياة والعيش بالإضافة إلى انتهاء أساسه بفزع الموت.

لم تكن طبيعة خالد بن الوليد طبيعة فارس يبحث عن مجد عسكري فقط، ولكنه كان ــ كما تؤكد كتب التاريخ ــ محبًا لمتع الدنيا وبهجتها، فلم يكن أحب إليه في ليلة شديدة الجليد في سرية من المجاهدين أصبح بهم العدو فعليهم بالجهاد، لم يكن أفضل وأجمل من ذلك عنده إلا اشتهاء العروس، وكانت غاية المتاع عنده إما الحرب أو الزواج والدعة والرفاهية؛ هذه هي الحالة التي نكتشفها في قائد عسكري عظيم مثل خالد بن الوليد.

ظل خالد بن الوليد في حمص أربع سنوات لم يفارقها إلى قليلاً وطوال الوقت كان يعيش في عزلة عن واقع العالم السياسي عربيًا وإسلاميًا، كان يعيش بين أهله وأولاده الذين قارب عددهم الأربعين ولدًا ويرجع ذلك لكثرة زيجاته، لكن الغريب أن أولاده الأربعين توفوا في حياته وأمام عينيه.. أمام عيني هذا الأب البطل الذي كان يحب الحياة ويصارع

الموت في ميدان القتال، ويصرع الأعداء، ولم يحفظ لنا التاريخ قولاً مأثورًا في موت هؤلاء الأبناء الكثيرين، ولم يقل خالد بن الوليد جملة توقف عندها التاريخ، وكتبها، ولم يلق حتى بيتًا من الشعر، ولم نشهد له مشهدًا في كتب التاريخ تدل على أنه قال شيئًا، أو تأثر أثرًا بليغًا في موت جملة من الأبناء راحوا ضحية طاعون مر بالوطن العربي والإسلامي. هذا الرجل لم يصدر منه ذلك لسبب واضح جدًا، وهو أنه التقى بالموت كثيرًا ورآه عاديًا ويوميًا، ولذلك عندما يتعقب الموت أبنائه فهذا أمر يحدث أمامه وهو القائد الأشهر الذي يعرف ماذا يعني الموت، ولم يكن يهتز للدرجة التي يقول فيها قولاً، أو يحكي فيها على الأقل شعرًا.

لكنني أريد أن أتوقف عند ابنين من أبناء خالد بن الوليد ظلا على قيد الحياة بعد وفاته أشهرهم هو المهاجر بن خالد بن الوليد الذي انضم إلى صف علي بن أبي طالب في المعارك التي خاضها ضد معاوية بن أبي سفيان، فكما نعلم أنه بعد موت عثمان بن عفان انقسمت الأمة الإسلامية إلى فسطاطين: فسطاط علي بن أبي طالب، وفسطاط معاوية بن أبي سفيان، أما ابن خالد بن الوليد الثاني فكان عبد

الرحمن واستمر حيًا حتى شهد خلافة معاوية بن أبي سفيان، وكان أحد الذين حصلوا على شـعبية هائلـة، وجماهيريـة واسعة، ومحبة صافية من جماهير المسلمين، وكان أحد أهم الرجالات والشخصيات التي سـعت إلـيهم الأمـة وقتهـا، ثم فوجئ التاريخ على حين غرة بأنه مات مسمومًا في فتـرة معاوية بن أبي سفيان عندما قيل إنه رشح للخلافة وكان ذلك قبل أن يرشح معاوية بن أبي سفيان ابنه لولاية العهد بوقـت ليس قصيرًا وسابقًا بعدة أسابيع أو أيام سقا معاوية بن أبـي سفيان سمًا ــ كما تقول كتب التاريخ والمؤرخـون ــ لعبـد الرحمن بن خالد بن الوليد على يد طبيب معاوية، وهذه هي اللحظة التاريخية التي انتهى فيها نسل وذرية هذا القائد الذي صاحب الموت والقدر، والذي لعـب دورًا تاريخيًـا رائعًـا ومجيدًا في الفتوحات الإسلامية.

كانت نهاية خالد بن الوليد على فراشه بعـد أن شـهد ما يقرب من ٥٠ زحفًا من العراق، ونجد، والشام، ولم يبـق في جسمه موضعًا سليمًا من كثرة الجراح، مات خالـد بـن الوليد ولم يتجاوز الخامسة والخمسين من عمره على فراشه.

هذا الرجل الذي غير من خريطة الإسلام والمسلمين في العالم بأسره.

ديموقراطية عمر بن الخطاب

عندما طُعن سيدنا عمر بن الخطاب وكـان ذلـك فـي المسجد النبوي عندما كان يؤم الناس في صلاة الفجر حتـى أن طعنة أبي لؤلؤة المجوسي تسببت في فض جمع الصلاة، وقيل إن سيدنا عمر بن الخطاب قرر أن يكمل الصـلاة، أو أنه أمسك بأحدهم ليؤم الصلاة مكانه، لكن المؤكد أن سـيدنا عمر بن الخطاب سقط جريحًا نازفًا، وحـاول أبـو لؤلـؤة الهروب فأحاط به المصلون في المسجد، وحاولوا مطاردتـه لدرجة أنا أبا لؤلؤة أصاب مع سيدنا عمر بن الخطاب تسـع آخرين ما بين إصابة نازفة قاتلة، وبين قتل سـريع عاجـل، وقيل إنه قتل أثناء المطاردة، وقيل إنه انتحر.

عندما طعن سيدنا عمر بن الخطاب لم يتوقـف فـورًا، هناك روايات تقول إنه طعن الأربعاء لكن توفي ودفن الأحد، وروايات أخرى تقول إنه طعن الأربعاء ودفـن الخمـيس، وخلال هذه الفترة ــ سواء كانت ٢٤ أو ٧٢ ساعة ــ كـان عمر بن الخطاب على فراش الموت ينتظر لقاء ربه في حالة نازفة وهبوط في القلب. كلنا نعلم أن آخر مـا يمـوت فـي

الإنسان هو مخه وقدرته العقلية والتي تظل تعمل حتى اللحظة الأخيرة، ومع عقلية فذة ونادرة في تاريخ الأمم، بل في تاريخ العالم مثل عمر بن الخطاب من الوارد جدًا أنه يظل حتى اللحظة الأخيرة مشغولاً بقضية مال وحال المسلمين ومستقبلهم بعد وفاته، تقول الروايات إنه عندما طعن عمر بن الخطاب قيل له: "يا أمير المؤمنين لو استخلفت؟" أي لو عينت لنا واليًا بعدك كما فعل أبو بكر الصديق عندما عينك أميرًا للمؤمنين من بعده، فقال عمر بن الخطاب: "من استخلف؟".

هل كان هذا السؤال يدور في ذهن سيدنا عمر بن الخطاب طيلة فترة ولايته وحكمه للمسلمين؟ هل كان يفكر في من يمكن أن يخلفه؟ أم أن هذا السؤال تراءى له واستدعاه مع لحظة تاريخية هي ما بين لقاء ربه، ووداع أهله، بعد الفتوحات والانتصارات التي اتسعت معها الأمة الإسلامية من حدود الهند إلى أسبانيا، وأفريقيا. في هذه اللحظة تساءل سيدنا عمر بن الخطاب" من استخلف؟ لو كان أبو عبيدة بن الجراح حيًا لاستخلفته، فإن سألني ربي قلت سمعت نبيك يقول إنه أمين هذه الأمة، ولو كان سالم مولى

أبو حذيفة حيًا لاستخلفته، فإن سألني ربي قلت سمعت نبيك يقول إن سالم شديد الحب لله". هذه هي المبررات التي يقدمها سيدنا عمر بن الخطاب لاستخلاف من بعده.

وهناك روايات كثيرة تضيف خالد بن الوليد إلا أن هذا الكلام في ظني، وفي ظن كثير من يؤرخون للتاريخ الإسلامي غير دقيق، إذ كيف يعزل سيدنا عمر بن الخطاب خالد بن الوليد عن قيادة الجيش، وقيادة الأمة العسكرية، عن أي منصب سياسي قيادي في عصره فإذا به يعينه واليًا للأمة. كان عزل سيدنا عمر بن الخطاب لخالد بن الوليد عزلاً واضح الدلالة، ومهم جدًا حيث كان سيدنا عمر بن الخطاب يتصور ــ وهذا عن حق ــ أن خالد بن الوليد بطل عسكري حقيقي، لكنه ليس بطلاً سياسيًا يستطيع إبرام معاهدات صلح وسلام مع دول مفتوحة فمثلاً في معركة سميت (ذات العيون) ويرجع ذلك إلى أن خالد بن الوليد القائد الأعلى للقوات المسلحة وقتها أعطى أمرًا بأن يضرب الجنود الأسهم في أعين مقاتلي هذه البلدة، ويقال إن نصف سكان هذه المدينة عانوا من العور، تخيل نصف شعب يصاب بالعور نتيجة هذا القرار، ومن ثم هذا القائد الفاتح

هل يمكن أن يدخل هذه المدينة ويحكمها... يمكن أن يغفر الناس الدم، لكن هل سيغفرون فقدان أعينهم وهم يرون خالد بن الوليد أمامهم طوال الوقت يذكرهم بها.

كانت وجهة النظر العمرية العظيمة ترى أن هذه القيادة العسكرية العظيمة ربما نحتاجها في الحرب، وربما أحيانًا لا نحتاجها، بينما في لحظة السياسة لا يمكن استخلافه أميرًا للمؤمنين بعده، وأعتقد أن الروايات التي وضعت اسم خالد بن الوليد كانت تريد أن ترفع من قدر خالد بن الوليد — وقدره مرفوع وعظيم وهامة كبيرة في تاريخنا الإسلامي — أو تريد أن تقول إن عمر بن الخطاب لم يمت وهو على انتقاداته لسلبيات خالد بن الوليد وتصرفاته التي لم تكن على هوى وعدل سيدنا عمر بن الخطاب.

عندما تساءل سيدنا عمر بن الخطاب: "من استخلف؟" قال له رجل من الحضور: "هل أدلك على خليفتك يا أمير المؤمنين؟ أنه عبد الله بن عمر". طرح الرجل على سيدنا عمر بن الخطاب أن يعين ابنه مكانه، وهناك إجماع من كتب التاريخ على هذا المشهد، رد عليه سيدنا عمر بن الخطاب: "قاتلك الله، والله ما أردت الله بهذا أبدًا" أي أنك لا تقول هذا

لوجه الله، إنما تقوله لترضيني، وتنـــافقني، وتنـــافق ابنـــي، وأضاف سيدنا عمر بن الخطاب: "ويحك كيف أستخلف رجلاً عجز عن طلاق امرأته"، يقال إن عبد الله بن عمر كان رجلاً حليمًا وفيه بعض التردد؛ فاعتبر سيدنا عمر بـــن الخطـــاب تردد ابنه في طلاق امرأته عجزًا لا يستحق معه أن يوليـــه إمارة أو خلافة.

المدهش أن سيدنا عمر بن الخطاب يعرض عليه مـــن حوله استخلاف ابنه عبد الله بن عمر مـــن بعـــده فيجيـــبهم: "لا أرب لنا في أموركم ــ أي لا حاجة لنا في أمـــوركم ــ، والله ما حمدتها، ولا أحببتها فأرغب فيها لأحد من أهل بيتي، إن كان خيرًا فقد أصبنا منه، وإن كان شر؛ فشـــر عنـــا آل عمر، يكفي آل عمر أن يحاسب منهم رجل واحـــد ويســـأل عن أمة محمد، وإن نجوت كفافًـــا لا وزر ولا أجـــر فـــإني سعيد". هذا الفاروق عمر بن الخطاب يقول إنه لم يكن يحب هذه المسئولية أو يرغب فيها حتى يتمناها لأحد من أهل بيته، ويكفي آل عمر أنهم قاموا بالخلافة مرة، فإن كان تخيرًا فقد حزناها مرة، وإن كانت شرًا تبعـــد عنـــا نهائيًـــا، ويقـــول "إن نجوت كفافًا" أي كما يقول الاقتصاديون "كيت" فلا يأخـــذ

عليها أجر أنه عمل شيئًا عظيمًا ورائعًا، ولا يأخذ عليها وزر أنه فعل إثمًا وذنبًا "فإني لسعيد" أي إذا طلعت منهـا لا لـي ولا عليَّ فإني لسعيد.

ويدهشني أنه في الوقت الذي كان يعرض فيـه علـى سيدنا عمر بن الخطاب أن يستخلف ابنه وأن يضع ابنه مكانه على ولاية وخلافة المسلمين كان ابن سيدنا عمر بن الخطاب الثاني وهو عبيد الله بن عمر قد قتل ثلاثة، فعندما طعن سيدنا عمر بن الخطاب، واكتشف الجميع أن طعنه هو أبو لؤلـؤة المجوسي، قرر عبيد الله بن عمر فجأة أن ينتقم وحده، وبكل نعرات ما قبل الإسلام من ثأر وانتقام بدون بحث أو درايـة أو تحقق أو قضاء، وفي نفس الوقت بحمية حب عمـر بـن الخطاب والده، في هذه اللحظة الإنسانية الكبيرة ذهب عبيـد الله بن عمر وقتل ثلاثة أعتقد أنهم متورطين في قتل والـده وهم الهرمزان وجفينة وهي الشخصيات التي كانت لها علاقة وثيقة بأبو لؤلؤة المجوسي فاعتبرهم عبيـد الله بـن عمـر شركاءه وحلفاءه في لحظة القتل والتدبير، فضلاً عن قتل بنت أبو لؤلؤة المجوسي، وكان هذا التصرف والمسـلك خارجًـا عن أي قانون أو عرف إسلامي، أو أي منطق إنساني أساسًا،

ففي اللحظة التي سفك فيها ابن سيدنا عمر بن الخطاب دم ثلاثة محاولاً الانتقام لوالده، كان يعرض على عمر بن الخطاب أن يعين ابنه الآخر حاكمًا وواليًا وأميرًا على المسلمين.

قال سيدنا عمر بن الخطاب: "فانظر فإن استخلفت فقد استخلف من هو خير مني ـ يقصد سيدنا أبو بكر الصديق الذي استخلفه ـ وإن أترك فقد ترك من هو خير مني ـ يقصد النبي عليه الصلاة والسلام على اعتبار أنه ترك الدنيا ولم يقل لنا من يخلفه ويتولى بعده وهذا ما أدى إلى واقعة سقيفة بني ساعدة وما جرى فيها من انتخاب سيدنا أبي بكر الصديق ـ ولن يضيع الله دينه. "فخرجوا عنه وتركوه في ألمه إلى شئونهم، وكانت هناك محاولة لتطبيبه، لكن لم يكن هناك إحساس بأن هذه الجروح القاتلة هي قاتلة بالضرورة، وكان هناك توقع أن ينجو سيدنا عمر بن الخطاب من هذه الموتة، لكنهم بعد قليل يكتشفون أن الأمر جلل، وأن عمر بن الخطاب يموت في تلك اللحظات وما بعدها، وهي وفقًا لبعض الروايات ٢٤ ساعة، وفي أخرى ٧٢ ساعة، وهي أخطر أيام في حياة الإسلام مثلما كانت الفترة من صلاة

الظهر وحتى صلاة المغرب بعد ثلاثة أيام من وفاة النبي عليه الصلاة والسلام في سقيفة بني ساعدة.

كان سيدنا عمر بن الخطاب مطالبًا في ذلك الوقت من قبل المسلمين أن يعين خليفة له، إذ دخل عليه المسلمون مرة أخرى فلما اكتشفوا أنه يموت قالوا له: "لو عهدت إلينا عهدًا يا أمير المؤمنين؟"، فقال ﷺ: "كنت قد أجمعت بعض مقالتي لك أن أنظر فأولي رجلاً أمركم، وهو أحراكم أن يحملكم على الحق، وأشار إلى علي بن أبي طالب، فرهقتني غشية، فرأيت رؤيا، فعلمت أن الله غالب أمره ومتوفى عمر فما أريد أن أتحملها حيًا أو ميتًا" أي أن سيدنا عمر بن الخطاب في لحظة ما قبل وفاته بقليل كان قد قرر تولية علي بن أبي طالب إلا أنه رهقته غشية أي أخذته نومة ونعسة سريعة، فلما صحا قرر ألا يعين أحدًا لأنه لا يريد أن يتحملها حيًا أو ميتًا، وقال رضوان الله عليه: "عليكم بهذا الرهط"، وفي ظني أن هذه النعسة والرؤيا كانت من لحظات العلاقة الربانية العظيمة التي رأى فيها سيدنا عمر بن الخطاب وحيًا إلهيًا؛ فمن المعروف أن القرآن كان ينزل لينتصر لرأي سيدنا عمر بن الخطاب، لكن هناك أيضًا الحالة العقلية النادرة

لسيدنا عمر بن الخطاب الذي كان يعي المأزق الذي يحاصر الأمة، وأنه لا حاجة لتولية شخص ليس عليه إجماع، أو أنه يتحمل مسئولية اختيار هذا الشخص وحده؛ لذلك أقول إن المسألة لم تكن الرؤيا فقط، وأظن أن الأمر له علاقة بعقل سيدنا عمر بن الخطاب، وربما عقله الباطن أيضًا، وأنه أراد أن تكون الأمة مجمعة على الشخص الذي سيتولى من بعده إمارة المسلمين، وخلافة الأمة الإسلامية؛ لذلك قال لهم سيدنا عمر بن الخطاب: "عليكم بهذا الرهط"، واختار سيدنا عمر مجموعة من الناس الذين قال عنهم النبي عليه الصلاة والسلام أنهم من أهل الجنة وهم:"سعيد بن زيد بن عمرو منهم ولست مدخله، ابنا عبد مناف: علي بن أبي طالب، وعثمان بن عفان، سعد بن أبي وقاص، عبد الرحمن بن عوف خالا رسول الله، الزبير بن العوام حواري رسول الله وابن عمته، وطلحة الخير؛ فيختاروا رجلاً منهم، فإذا ولوا واليًا فأحسنوا مؤازرته وأعينوه". هذه هي وصية عمر بن الخطاب وإلزامه العمري.

لكن من هو سعيد بن زيد بن عمرو الذي يعلم سيدنا عمر بن الخطاب ــ كما يعلم المسلمون كافة ــ أنه من

المبشرين بالجنة ورغم ذلك لا يضـــعه ضـــمن المرشـــحين للخلافة؟ سعيد بن زيد هو سبب إسلام عمر بـــن الخطـــاب، وهو زوج شقيقته التي ذهب إليها ليقتلها؛ فإذا به يسمع عندهم القرآن فيعلن إسلامه، وتقع أجمل علاقة حـــب فـــي تـــاريخ البشرية بين مواطن هو سيدنا عمر بن الخطاب، وبين ديـــن عملاق عظيم هو الإسلام، إذن سعيد بن زيد جعله الله ســـببًا لهداية عمر بن الخطاب، فضلاً عن كونه صـــهره إذ كـــان متزوجًا من أخته، ومع ذلك يستبعده سيدنا عمر بن الخطاب من الترشيح للخلافة.

فخرج الجمع وكان من بينهم علي بن أبي طالب فلمـــا خرج التقى بالعباس بن عبد المطلب عم النبي عليه الصـــلاة والسلام، فبادره العباس قائلاً: "قلت لك لا تدخل معهم فقلـــت لي أكره الخلاف"، لم يكن العباس يريد أن يدخل علي بن أبي طالب مع هذا الجمع، ولا أن يوافق على الانضمام إلى الستة المرشحين، وطلب منه ألا يدخل معهـــم لأنـــه كـــان يريـــد أن يطرح اسم سيدنا علي بن أبي طالب مفردًا منفردًا، لكـــن سيدنا علي قال له: "أكره الخلاف"، ولم يكن العباس بن عبـــد المطلب أيضًا يحب الخلاف أو يريده، ولكنه كان يحب سيدنا

علي بن أبي طالب، ويحب أهل بيت النبي ويراهم ــ باعتباره زعيمهم على الأقل سناً ــ الأحق بالخلافة، فما حدث ما حدث واكتشف سيدنا علي بن أبي طالب أنه واحد ضمن ستة فقال له العباس: "ألم أقل لك؟ إذن فهو ما تكره."، فلما أصبح عمر بن الخطاب دعي إليه عليًا، وعثمان، وسعدًا، وعبد الرحمن بن عوف، والزبير بن العوام المرشحين الذين اختارهم، وكان طلحة الخير وقتها خارج المدينة، فقال لهم سيدنا عمر بن الخطاب: "إني نظرت فوجدتكم رؤساء الناس، وقادتهم، ولا يكون هذا الأمر إلا فيكم، وقد قبض رسول الله ﷺ وهو عنكم راض، إني لا أخاف الناس عليكم، ولكني أخاف عليكم اختلافكم فيما بينكم، فيختلف الناس".

كان عمر بن الخطاب يقرأ الواقع السياسي من حوله، وهذا دليل على قدراته العقلية العظيمة حتى في لحظة موته، فأدرك عمر بن الخطاب أن الناس لن تختلف على هؤلاء الستة لأن النبي مات وهو راضٍ عنهم، لكن إذا اختلفوا فيما بينهم سيؤدي ذلك إلى اختلاف الناس عليهم، ومعهم، وبينهم،

وهذا ما كان حذر عمر الأساسي والرئيسي الذي منعه ألا يختار خليفة له ليس عليه إجماع من الناس.

قال عمر بن الخطاب مقولته الشهيرة هذه وكأنه يستنهض، ويستحضر في ذهنه كلام العباس بن عبد المطلب لعلي بن أبي طالب، ويحاول الرواة والمؤرخون أن يخفوا هذه القضية، لكن من المؤكد أن علي بن أبي طالب من أهل بيت النبي، وكان لديهم شعور حقيقي، وطبيعي، ومنطقي بأن عليًا أحق بالخلافة في هذه اللحظة التي تولى فيها عمر بن الخطاب، وكان علي بن أبي طالب له مقولات شهيرة في هذا الموضوع، والفكرة هنا أنه كان يرى أنه أحق بالخلافة، لكن هل فعل شيئًا؟ هل تحول هذا الاختلاف إلى خلاف وصراع؟ أو انتقل من الخلاف إلى الصدام والتصادم؟ بالعكس كان علي بن أبي طالب قاضيًا لأبي بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وكان يفتي ويجتهد، فهو الذي أفتى بحد شارب الخمر؛ حيث اعتبره علي بن أبي طالب يقذف الناس فتصح له عقوبة قذف المحصنات وهي الجلد، إذن رؤية علي بن أبي طالب والعباس بن عبد المطلب بأنه أحق بالخلافة لم تكن تعني أي شيء أكثر من مجرد رؤية، إذن التخوف

العمري من أن يختلفوا فيما بينهم كـان اختلافًا طبيعيًا، منطقيًا، مشروعًا، ومهمًا؛ وقال لهم: "اذهبوا إلى حجرة عائشة بإذن منها، واختاروا رجلاً منكم"، لماذا حدد عمر بن الخطاب غرفة عائشة؟ حتى يكون نفح النبوة، وذكرى النبي، ورسالته موجودة معهم، وبعد قليل قال لهم: "لا تذهبوا غرفة عائشة، ولكن كونوا قريبين" ويرجع ذلك إلى خوفه من أن يبتعدوا عن متابعته، ووضع رأسه وقد اشتد نزيف الدم، فدخلوا في غرفة بجواره، وبدأوا يتناجون ثم ارتفع صوتهم، وكان ذلك دليلاً على الخلاف؛ فقال عبد الله بن عمر: "سبحان الله، إن أمير المؤمنين لم يمت بعد."، فسمع عمر بن الخطاب هذا الكلام فقال لهم: "أعرضوا عن هذا الآن، فإذا مت فتشاوروا ثلاثة أيام، وليصلي بالناس صهيل، ولا يأتين اليوم الرابع إلا وعليكم أمير منكم" بهذا حدد عمر بن الخطاب ثلاثة أيام للشورى، واليوم الرابع يتم حسم اختيار الأمير لأنه يدرك خطورة أن يكون هناك فراغ سلطة"، ويحضر الشورى عبد الله بن عمر مشيرًا ولا شيء له من الأمر" أي ليس له حق الترشيح أو التصويت،".. ولا تنسوا طلحة الخير شريككم في الأمر، فإن قدم في الأيام الثالثة

فشاوروه في الأمر، فإن لم يأتي فاستقضوا أمركم، وعندما يأتي يوافق على ما اخترتموه" وسأل: "من لي بطلحة؟"، فقال سعد بن أبي وقاص: "أنا لك به وإن شاء الله لا يخالف"، فقال عمر بن الخطاب: "أرجو ألا يخالف إن شاء الله، وما أظن أن يلي إلا أحد هذين الرجلين؛ عثمان بن عفان، أو علي بن أبي طالب، فإن ولي عثمان فرجل فيه لين، وإن ولي علي ففيه دعابة".

قال سيدنا عمر بن الخطاب أن ليس لها إلا علي بن أبي طالب أو عثمان بن عفان، ثم قال لأبي طلحة الأنصاري: يا أبا طلحة إن الله عز وجل طالما أعز الإسلام بكم، فاختر خمسين رجلاً من الأنصار، واحرس هؤلاء القوم حتى يختاروا رجلاً منهم."؛ نلاحظ أن سيدنا عمر بن الخطاب استبعد من المرشحين سعيد بن زيد ــ رغم وربما بسبب ــ قرابته له ولم يستبعد سعد بن أبي وقاص أنه كان قد عزله، وأجرى له جرد وحساب مالي، فضلاً عن حرق الباب الذي كان قد صنعه سعد بن أبي وقاص ليفصل بينه وبين الناس، وهدم البيت الذي ابتناه سعد بن أبي وقاص، ومع ذلك اختاره، وعلل ذلك بقوله: "إنما عزلته عن اختلاف

في الرأي، وليس عن خيانة"، أيضًا نلاحظ خلو الاختيار من الأنصار، لذلك أوكل عمر حراسة المرشحين إلى الأنصار، وأمر أبي طلحة الأنصار بأن يختار خمسين رجلاً لحراسة من رشحهم للخلافة حتى يختاروا من بينهم رجلاً، وقال لصهيل: "صل بالناس ثلاثة أيام، أدخل عليًا، وعثمان، والزبير، وسعد، وعبد الرحمن، وطلحة إن قدم، وأحضر عبد الله بن عمر ولا شيء له من الأمر، وقم على رؤوسهم، فإن اجتمع خمسة ورضوا بالرجل فاضرب رأسه بالسيف، وإن اتفق أربعة فرضوا رجلاً منهم أبى اثنان فاضرب رأسهما، فإن رضي ثلاثة رجال رجلاً منهم، ورضي الثلاثة الآخرون رجلاً آخر، فحكموا عبد الله بن عمر، فأي الفريقين حكم فليختاروا رجلاً منهم، فإن لم يرضوا برأي عبد الله بن عمر فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف، واقتلوا الباقين إن رغبوا عما اجتمع عليه الناس".

عندما أتأمل أوامر سيدنا عمر بن الخطاب أندهش ــ ولي أن أندهش، لكنني أيضًا أعجب ــ ولي أن أعجب ــ بهذا الرجل، فهو لا يريد من اللحظة الأولى الفرقة، والانقسام، والحرب الأهلية، بل يريد أن تقبل الناس بالاختيار

والديموقراطية، لا أحد يقول إما أنا، وإما فلا؛ ولأن الاختلاف سيقوض دعائم هذه الأمة، وتقع، ومن ثم كان عمر بن الخطاب يريدهم أن يجمعوا أمرهم، وهذا لا يعني أنه لا يقبل باختلافهم؛ بل على العكس فمن حقهم أن يختلفوا، ولكنه يقرر قتل الرافض ليس لأنه اختلف، وإنما الذي يرفض الاختيار نهائيًا، ويرفض قرار الأغلبية، والتحكيم، فلا بد من قتله، فهو يقتل الذي يقبل بالخلاف والديموقراطية، وحرية الاختيار، وبهذا صنع عمر بن الخطاب قانونًا مهمًا هو القبول بالاختلاف، والذي لا يقبل بالخلاف، وحرية الناس في أن يقولوا نعم، ولا يقتل، لم يكن ذلك دموية من عمر بن الخطاب؛ وإنما حسمًا، وحزمًا لصالح حرية الاختيار، والإجماع الشعبي.

عندما خرج علي بن أبي طالب من هذا الاجتماع مع سيدنا عمر بن الخطاب قابله العباس بن عبد المطلب مرة أخرى، فقال له: "عدلت عنا"، فقال العباس: "وما علمك؟"، قال علي: "قارنني بعثمان، وقال كونوا مع الأكثر، وإن رضي رجلان رجلاً، ورجلان رجلاً، فكونوا مع الذين معهم عبد الرحمن بن عوف، فسعد بن أبي وقاص لن يخالف

بن عمه عبد الرحمن بن عوف، وعبد الرحمن بـــن عـــوف صهر عثمان لا يختلفان، سيوليها عبــد الـــرحمن عثمـــان، أو يوليها عثمان بعد الرحمن"، فقال له العباس: "لـــم أدفعـــك في شيء إلا ورجعت إليَّ متأخرًا، عند وفاة رســـول الله ﷺ قلت لك إن تسأله في من هذا الأمر؟؛ فأبيت، وأشرت عليـــك بعد وفاته أن تعالج الأمر فأبيت ــ أي أن تعلن بعـــد وفـــاة النبي عليه الصلاة والسلام أنك الخليفة فرفضـــت، أشـــرت عليك حين سماك عمر بن الخطاب في الشـــورى ألا تـــدخل معهم؛ فأبيت، فاحفظ عني واحدة، كلما عرض عليك القوم قل لا إلى أن يولوك، واحذر هؤلاء القـــوم فـــإنهم لا يبرحـــون يدفعوننا عن هذا الأمر حتى يقوم به غيرنا".

فما مات عمر بن الخطاب، وخرجت الجنازة، ووضـــع الجثمان الشريف فتقدم عثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب أيهما يؤم صلاة الجنازة، فقال عبد الـــرحمن بـــن عـــوف: "كلاكما يحب الإمارة، لستما من هذا في شـــيء، هـــذا إلـــى صهيل استخلفه عمر ليصلي بالناس ثلاثًا حتى يجتمع النـــاس على إمام."، فصلى عليه صهيل، فلما دفن عمر بن الخطاب، وكان طلحة الخير المرشح السادس للخلافة غائبًا أمـــر أبـــا

طلحة الأنصاري أن يحجبهم، فجاء في هذه اللحظة عمرو بن العاص، والمغيرة بن شعبة وجلسا عند الباب، فرآهما سعد بن أبي وقاص فشخط فيهما وقال: "تريدان أن تقولا حضرنا، وكنا في أهل الشورى"، أريد أن أشير هنا إلى أن مسلك عمرو بن العاص، والمغيرة بن شعبة يدل على لهفتهما على معرفة الأمر، ورغبتهما في المشاركة، واهتمامهما بالسياسة، ومصلحتهما المباشرة في اختيار الخليفة، وبعد ذلك سنرى عمرو بن العاص، والمغيرة بن شعبة وهما يتحالفان مع معاوية بن أبي سفيان ضد علي بن أبي طالب، فمنذ تلك اللحظة كانت فكرة المشاركة في صناعة الخليفة مهمة عندهما.

مبشرون بالجنة.. مرشحون للخلافة

ماذا دار في الغرفة بين الخمسة المبشرين بالجنة والمرشحين للخلافة؟ في البداية سأل عبد الرحمن بن عوف "من فيكم يخلع نفسه؟"، وانتظر أن يتقدم أحد، فلم يتقدم أحد، فقال: "إذن جميعكم تطلبون الإمارة، أنا أخلع نفسي "قرر عبد الرحمن بن عوف أن يخرج نفسه من الترشيح، لكنه اشترط أن يحكم بينهم وسأل: "فهل ترضون اختياري؟"، وهذا الموقف كان صعبًا جدًا على سيدنا علي بن أبي طالب لأنه يعلم قرابة عبد الرحمن بن عوف، ومصاهرته لعثمان بن عفان، ويعلم هذه الصلة أيضًا بينه وبين سعد بن أبي وقاص، لذلك كانت موافقته مشروطة؛ فقال سيدنا علي بن أبي طالب: "أوافق، لكن على ألا يكون في الأمر قرابة أو مصاهرة"، فوافق عبد الحمن بن عوف، وأقسم على ذلك وأصبح الوضع بين يدي عبد الرحمن بن عوف، فماذا فعل؟ عقد عبد الرحمن بن عوف اجتماعات منفردة بكل شخص، وفي نفس تلك الليلة أرسل مندوبًا منه إلى بيت كل من علي بن أبي طالب، وعثمان بن عفان، كل منهما منفردًا، وتقول لنا روايات التاريخ أنه لما ذهب غلام عبد الرحمن بن عوف إلى

علي بن أبي طالب سأله علي: "هل أرسلك إلى أحد آخـــر؟"، فأجاب الغلام عثمان بن عفان، ونفس السؤال سأله عثمـــان: "هل أرسلك إلى أحد آخر؟"، فأجاب الغلام: "علي بـــن أبـــي طالب"، ونلاحظ طبعًا أن سيدنا عمر بن الخطاب قال إنها لن تخرج بين اثنين علي أو عثمان، وتقول الروايات إن الغـــلام استأذن عبد الرحمن بن عوف في أن يذهب إلى علي بن أبي طالب أولاً لأن هواه معه، فابتسم عبد الرحمن بـــن عـــوف، وسمح له بذلك، ولما التقى عبد الرحمن بن عوف بعلي بـــن أبي طالب سأله عبد الرحمن: "إذا اعتبرنا إنـــك لســـت مـــن هؤلاء، فمن توافق عليه منهم خليفـــة للمســـلمين؟، فأجابـــه: "عثمان بن عفان"، وسأل عبد الرحمن بن عوف عثمان بـــن عفان نفس السؤال فأجاب عثمان: "علـــي بـــن أي طالـــب"، وفي ظني أن الذي حكى هذه الرواية هو عبد الـــرحمن بـــن عوف ليبرهن، ويؤكد أن الأمر بين الاثنـــين، وكـــل منهمـــا يرضى بالآخر لولا وجوده هو شخصيًا في هـــذه المنافســـة الانتخابية، أو المنافسة على من يتولى هذا المنصـــب، كمـــا سأل عبد الرحمن بن عوف سعد بن أبي وقاص، والزبير بن العوام، وكان هوى أحدهما مع علي بن أبي طالب، والآخـــر

مع عثمان بن عفان، لكن الاثنين سأله:" لم لا تأخذها أنت؟". فأجابهما بعد أن خلعت نفسي، وعاهدت الجميع، لقد خلعت نفسي ولن أعود عن هذه الخلعة"، أيضًا عقد عبد الرحمن بن عوف مشاورات مع كبار رجال الصحابة، والأنصار، والمهاجرين في المدينة المنورة، وتضيف الروايات مؤكدة إنه تشاور مع أمهات المؤمنين الأحياء في تلك الفترة، وانتهت مشاوراته إلى أمر وضعه في صدره في لحظة إعلان من هو الخليفة، حيث أعلن من هو الخليفة في المسجد النبوي بناء على دعوة من عبد الرحمن بن عوف للمسلمين بالحضور، وتطاحن المسلمون كثرًا في هذا الأمر تطاحنًا أعتبره تطاحن الحرية والسياسة، ونادى عبد الرحمن بن عوف علي بن أبي طالب، وكان موقفًا جللاً، وشعر المسلمون الموجودون في ذلك المكان أن علي بن أبي طالب سيكون خليفة المسلمين وأمير المؤمنين، فقال له عبد الرحمن بن عوف: "تعال يا علي" فاقترب، وقال له: "أبايعك خليفة للمسلمين، وأميرًا للمؤمنين على أن تعمل بسنة رسول الله ﷺ، وسنة أبي بكر وعمر"، فرد علي بن أبي طالب: "أعمل بكتاب الله، وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام، وبما يملي

علي عقلي"، فنادى عبد الرحمن بن عوف عثمان بن عفان وقال له: "أبايعك خليفة للمسلمين، وأميرًا للمؤمنين على أن تعمل بسنة رسول الله ﷺ، وسنة أبي بكر وعمر"، فوافق عثمان بن عفان، فأمسك عبد الرحمن بن عوف يد عثمان بن عفان، ورفعها قائلاً: "بايعت عثمان بن عفان خليفة للمسلمين، وأميرًا للمؤمنين"، فاندفع الناس يبايعون.

المؤكد في كتب التاريخ أن عبد الرحمن بن عوف كان قد اختار عثمان بن عفان، ولكنه قام بهذا المشهد أمام المسلمين كمبرر، وتفسير لاختياره، فالسبب في اختياره عثمان التزام عثمان بأنه سيسير على نهج عمر بن الخطاب وأبي بكر الصديق، إنما علي بن أبي طالب يريد أن يجتهد في هذا الأمر، فيغير من بعض ما اجتمع عليه الناس، أو أقره أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب.

كان علي بن أبي طالب يتعامل مع الموضوع باعتباره قائمًا في حد ذاته، وأن آراءه، واجتهاداته في السياسة، والفقه، والدين في عصر أبي بكر وعمر أخذ بها الاثنان، وكان قاضي الاثنين، أما عثمان بن عفان فقرر من اللحظة الأولى أنه لن يغير شيئًا، وأن كل شيء سيسير كما هو.

وفي هذه الحالة كان الاتجاه نحو عثمان بن عفان أكبر، خاصة لما عرف عن علي بن أبي طالب من صرامة، وحزم شديدين، وكان المسلمون بعد سنوات من حكم عمر بن الخطاب المليئة بالحسم، والحزم، والفصل، والمساواة الكاملة بين الصغار والكبار، والمهاجرين والأنصار، أدت إلى وجود حالة من الملل من خشونة، وحزم عمر بن الخطاب؛ فكانوا يريدون شخصًا مرنًا لينًا، يفتح لهم مساحة من النعيم الدنيوي.

انتخب عثمان بن عفان خليفة للمسلمين، وأميرًا للمؤمنين، لكن ما نريد أن نتأمله هو موقف باقي المرشحين الخمسة من عثمان، وسياسته، ومنهجه، ماذا فعلوا؟ وماذا فعل بهم؟ أول ما نلاحظ من ذلك الصلة بين عثمان وبين هؤلاء الخمسة الذين وافقوا على خلافته، وكانوا أول من وافقوا، وبايعوه على الخلافة، وفي هذا السياق لا بد أن نذكر أن علي بن أبي طالب بايع في وقتها ولحظتها في المسجد النبوي، وقبل بما جرى وحدث رغم أنه قال لعبد الرحمن بن عوف إنك تجاوزت، وبناء على رأيك الشخصي، وعاد طلحة المسافر بعد مبايعة عثمان بن عفان، فقال له مستعد إذا كنت

تريد ترشيح نفسك فاسحب موافقتي على مبايعة المسلمين، ونبدأ من جديد، فسأله طلحة: "هل بايع المسلمون؟" فأجاب عثمان: "نعم"، فوافق طلحة على البيعة.

عبد الرحمن بن عوف أول هؤلاء الخمسة، وكان الأمر كله في يده تقريبًا لتحديد من هو خليفة المسلمين علي بن أبي طالب أم عثمان بن عفان فاختار عثمان، كان بعد الرحمن بن عوف قريب المكانة من النبي، وكان هناك علاقة قربى بينه وبين أم النبي عليه الصلاة والسلام، حيث كان من نفس القبيلة والعشيرة وهي بني زهرة، كان سيدنا عمر بن الخطاب وضعه في الشورى، وميزه عنهم بقوله "فإذا ارتضى رجلان رجلاً، وارتضى رجلان رجلاً آخر، فاختاروا من فيهم عبد الرحمن بن عوف رئيسًا لهذا المجلس، لأنه رجح رأيه عند تساوي الأصوات، وكان من بين أصحاب النبي من يرشح عبد الرحمن بن عوف، ويرى في خلافته اتقاء لكثير من الشر، وتجافيًا للفرقة التي يمكن أن تنهض، وتظهر إذا حدث صراع بين علي، وعثمان، وكان اثنان من مجلس الشورى الذي استخلف عثمان بن عفان يؤثروا علي بن أبي طالب على عثمان بن عفان لمكانة عثمان بن عفان من بني

أمية، حيث كان عثمان قريبًا من بني أمية بمعنى أنه يميل إليهم، وسيمكنهم من المسلمين؛ فكان رأيهم أن عبد الرحمن بن عوف سيحقن هذا الخلاف، إلا أن عبد الرحمن بن عوف لم يسمع لمن ألح في هذا الترشيح، وقرر أن يكون حكمًا بين المتنافسين، وقبل المتنافسون بحكمه بعد أن أخذ عليه علي بن أبي طالب موثقًا من الله" يلزم الحق غير منحاز لصهر أو قرابة"، في أول خلافة عثمان بن عفان كان عبد الرحمن بن عوف مؤيدًا له ويرقيه حتى إنه لم يتخذ أي موقف سلبي أو أي جملة سلبية من تصرفات سيدنا عثمان بن عفان في تلك الفترة حتى تكلم الناس والصحابة ــ وهذا هو التعبير الوارد في كتب التاريخ ــ ويعني أن جموع المسلمين تترقب، وترصد، وترفض، ثم تقول إن عثمان يفعل كذا وكذا مع بني أمية، ويولي بني أمية، في هذه اللحظة انتبه عبد الرحمن بن عوف لما يحدث، وتشدد في مراقبة عثمان بن عفان، وذات يوم أصبح عبد الرحمن بن عوف أحد المعارضين لعثمان بن عفان في أمور الدين، والسياسة جميعًا، ولا يقف عند حد المعارضة، وإنما يقاطع عثمان فترة طويلة طول فترة خلافته، فلا يزوره، ولا يحدثه، أي أنه

حدثت قطيعة بين عبد الرحمن بن عوف وبين عثمان بن عفان لدرجة أن عبد الرحمن بن عوف اعترض اعتراضًا، واحتجاجًا، ورفضًا لبعض القرارات التي اتخذها عثمان بن عفان قاطعه، ولم يعد يزوره، أو يحدثه، وبعض الذين يغالون في كتب التاريخ يقولون إن عبد الرحمن بن عوف أعلن ندمه على توليته عثمان بن عفان، وهناك روايات تقول إنه قال ذات يوم لعلي بن أبي طالب: "إن شئت أخذت سيفك، وأخذ سيفي حتى نجاهده"، والحقيقة أنني لست مقتنعًا كثيرًا بهذه النقطة التي ذكرت كثيرًا في كتب التاريخ ويبدو أن عليها إجماع رغم مغالاة ما فيها، لأن طبيعة عبد الرحمن بن عوف وغناه الواسع فهو مليارديز الإسلام، وأغنى الأغنياء والصحابة، فضلاً عن أنه تاجر وتربطه علاقة تجارة بعثمان بن عفان، ونذكر في هذا السياق أن عمر بن الخطاب أراد أن يقترض من عبد الرحمن بن عوف مالاً، فأجاب عبد الرحمن بن عوف فليقترض من بيت المال، فلم يقترض عمر بن الخطاب مالاً من بيت المال خشية أن يموت وعليه دينًا لأموال المسلمين؛ لكن الذي لا أشك فيه أن عبد الرحمن بن عوف عارض عثمان بن عفان في أمور الدين مثل تقصير

الصلاة التي كان قد أقرها النبي، ومن بعده أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب؛ فضلاً عن أنه أعطى لقرابته مـن مـال المسلمين، كما اعترض عبد الرحمن بن عوف بالقول والفعل على الإنفاق غير المنطقي على بني أمية من أقارب وأصهار وأهل عثمان بن عفان، وعلى تولية عثمان أمراء مـن بنـي أمية من أقاربه، وأصهاره على أمصـار وولايـات الأمـة الإسلامية؛ إذن عبد الرحمن بن عوف أول الخمسة المبايعين لعثمان بن عفان، ويمكننا أن نقول إنه هو الذي عينـه فـإذا به يتحول إلى معارضة عثمان بن عفان لدرجـة المقاطعـة، ولم يعد يزوره، أو يكلمه، أو يصلي خلفه، حتـى أن كتـب التاريخ تقول إنه ندم على تولية عثمان بـن عفـان أميـرًا للمؤمنين.

أما سعد بن أبي وقاص فهو من بني زهرة مثـل عبـد الرحمن بن عوف، وكان في أحد الأيام مقبلاً على النبي عليه الصلاة والسلام، فأشار إليه النبي وقال: "هذا خالي"، وكأنـه شقيق والدته، وهذا التعبير الذي قاله سـيدنا محمـد عليـه الصلاة والسلام هام جدًا في حياة سعد بن أبي وقـاص لأن لا أحد كان يعرف جذور، وأصل شجرة نسب عائلة سـعد،

وكان هذا من الأمور التي تجرح سعد بن أبي وقاص، وبالتالي فإن عبارة النبي عليه الصلاة والسلام "هذا خالي" تحسم الموقف، وكأنه وضع له شجرة النسب والأصل التي يدور حولها تشكك، وتشكيك من قبل الأقارب، والأصهار، والأهل، وهذا شيئًا مهم جدًا في عصر صدر الإسلام، ومهم جدًا عند العرب عمومًا شجرة الأنساب والأصهار، وكان هذا التعبير هو الوسام الأول الذي أخذه سعد بن أبي وقاص من النبي عليه الصلاة والسلام، فضلاً عن أنه أول من رمى بسهم في تاريخ الإسلام في مواجهة الأعداء، ومن المفارقات المحزنة أن يكون ابنه عمر بن سعد بن أبي وقاص أول من رمى بسهم على سيدنا الحسين بن علي بن أبي طالب في موقعة كربلاء، ويضاف إلى عظمة سعد بن أبي وقاص أنه كان بطل القادسية، وهازم كسرى؛ لذلك وضعه سيدنا عمر بن الخطاب بين الستة الذين جعل إليهم الشورى في أمر الخلافة، وكان مرشحًا للخلافة، لكن عبد الرحمن بن عوف خلع نفسه، وتقريبًا خلع معه في نفس الوقت سعد بن أبي وقاص من أمر الخلافة، ويمكننا أن نقول إن عبد الرحمن بن عوف هو الذي وضع سياق انتخاب وتعيين عثمان بن عفان،

والحقيقة أن سعد بن أبي وقاص رغم ذلك المشهد الجلل في تاريخه، عندما عزله سيدنا عمر بن الخطاب عن ولاية الكوفة لأسباب خلافية حول المال، والتصرف في شئون وأموال المسلمين بين سعد بن أبي وقاص، وعبد الله بن مسعود. وأقر سيدنا عمر بن الخطاب موقف عبد الله بن مسعود، وعزل سعد بن أبي وقاص، وما زلنا نذكر في كتب التاريخ هذه الواقعة الشهيرة التي أرسل فيها سيدنا عمر بن الخطاب مندوبه محمد بن مسلمة ليحرق الباب الذي صنعه سعد بن أبي وقاص ليفصل بينه وبين المسلمين والرعايا في الكوفة، لأنه لا يصح أن يكون هناك حاجز بين الخليفة والمواطنين المسلمين، وهذا هو المبدأ العمري الذي أرساه سيدنا عمر بن الخطاب، وكان سيدنا عمر بن الخطاب من السرعة في أخذ القرار وتنفيذه بحيث لم يترك الفرصة لسعد بن أبي وقاص ليخلع الباب أو يكسره، وإنما حرقه، ومع ذلك لم يغضب سعد بن أبي وقاص بدليل أن سيدنا عمر بن الخطاب عينه ضمن المرشحين الستة وقال: "لم أعزله عن خيانة"، والمدهش أن الخلاف ذاته حدث في عهد عثمان بن عفان، وكان سعد بن أبي وقاص وقتها واليًا على الكوفة

فعزل عثمان بن عفان سعد بن أبي وقاص لخلاف بينه وبين عبد الله بن مسعود حول الأموال، وتصريف شئون وأموال المسلمين، ورغم هذا العزل الثاني في عهد الخليفة الثاني؛ إلا أن سعد بن أبي وقاص كان أحد المرشحين المنافسين له على خلافة المسلمين، ورغم أنه شارك في اختيار عثمان بن عفان خليفة للمسلمين، إلا أن سعد بن أبي وقاص لم يكن عنيفاً في معارضته لعثمان بن عفان، بل ولم يشارك في هذه المعارضة إلا عندما كانت مبدئية أولية رقيقة لا تتجاوز النصح والأمر بالمعروف، لكن عندما اشتدت المعارضة وقاربت على أن تكون ثورة ضد عثمان بن عفان لزم سعد بن أبي وقاص الحياد ولم يشارك في الفتنة أو في أعقابها، وعندما سئل بعد مقتل عثمان بن عفان: "لم لا تقاتل؟"، فأجاب: "أقاتل؟! لا أقاتل حتى تأتوني بسيف ينطق ويقول هذا مؤمن وهذا كافر"، وكان سعد بن أبي وقاص يتحرج التعبير والإعلان عن معارضة سياسة عثمان في تعيين ولاته وعماله على الأمصار من أقاربه، وأهله، وتعامله مع ثروة المسلمين بطريقة فيها إنفاق زائد عن الحد في غير مكانها، وهذا يرجع إلى رفعة، وسمو نفس، وعزة كرامة سعد بن

أبي وقاص حيث كان يخشى أن يفسر أحد موقفه من عثمان بن عفان على أنه رد فعل لعزله من الكوفة، ولم يكن سعد بن أبي وقاص يترك مساحة للشك، والتشكيك في صفاء نيتــه، ونية صفائه.

يظل هناك شخصان آخران من المرشحين للخلافة مــع عثمان بن عفان هما الزبير بن العوام، وطلحة الخير بن عبيد الله، كان الزبير ابن عمة النبي عليه الصلاة والسلام، هــذه الدائرة من القرابة والعمومية تسمح لنا أن نقول إن الزبيــر كان لصيقاً بالنبي، وكان من حواريه كما كان للسيد المســيح عليه السلام حواريون وأصحاب يرسلهم بالبشرى إلى ســائر المدن، والبلاد، حيث قال النبي عليه الصلاة والسلام في ذات مرة: "لو كان لي حواريون لكان الزبير بــن العــوام أحــد حواريي"، لزم الزبير بن العوام المدينة المنورة بعــد وفــاة الرسول عليه الصلاة والسلام ولم يخرج منها أيام أبي بكــر وعمر إلا اللمم، وبإذن من عمر، وعندما وضعه سيدنا عمر بن الخطاب في مجلس الشورى أصبح الزبيــر بــن العــوام مرشحًا للخلافة ولا شك، ولم يظهر الزبير بن العوام مــيلاً إلى أحد من المتنافسين سواء علي بن أبي طالب، أو عثمــان

بن عفان، وكان من الذين شاركوا في هذه الثورة الصـامتة، أو المعارضة الواضحة لعثمان بن عفان في تلك الفتـرة، أي أن الزبير بن العوام انتهى مواقفه هو الآخر إلى المعارضة.

ويمكن أن نقول إن موقف عبد الرحمن بن عوف كان مساندًا في البداية لعثمان بن عفان، ثم عارضه، وكانت أبلغ صور المعارضة وأقواها، وأشدها، وأوضحها عندما قاطعه؛ أما سعد بن أبي وقاص فعارض رفيقًا رقيقًا، وكان لا يريد المشاركة في فتنة خاصة أن موقفه حساس بعد عزل عثمان له من ولاية الكوفة، أما الزبير بن العوام فكان قائدًا للحرس المحيط ببيت سيدنا عثمان بن عفان في مواجهة الثوار ضده، أي أن الزبير لم يشتد في معارضة عثمان في أول الأمر فكان عثمان ــ بطبيعة الحال ــ يؤثره ويعطيه رغم ما بينهما من خصومة، ولذلك لم تكن الأمور بينهما فيها حدة المواجهة، وكان عثمان بن عفان يؤثر الزبير بن العوام وابنه عبد الله، وكان يقيمه قائدًا للحرس في مواجهة الثوار عندما أحاطوا ببيته، أي أننا نستطيع أن نقول إن الزبير بن العوام كان من أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام الذين يوجهون

إلى عثمان بن عفان نقدًا، ويسوقون إليه نصحًا لكننا لم نعرف أنه اشتد عليه إلى درجة إعلان الغضب الحاد، أو أنه كان يثير القوم عليه، ويرجع هذا لأكثر من سبب منها أن عثمان بن عفان كان يؤثر الزبير بن العوام في العطاء رغم الخصومة الواضحة بينهما في أمور كثيرة، فضلاً عن أن ابن الزبير بن العوام كان من أقرب المقربين إلى قلب عثمان بن عفان، لكن ماذا عن موقف طلحة بن عبيد الله من عثمان بن عفان؟

يرجع نسب طلحة إلى قبيلة وعائلة أبي بكر الصديق، وكان يعمل بالتجارة قبل الإسلام، وظل كذلك بعد إسلامه، وكان صديقًا لعثمان وخرجا أكثر من مرة معًا إلى التجارة في الشام، وأسلما في عام واحد عند رجوعهما من قافلة تجارة، وكان طلحة بطبيعة الحال من السابقين الأوليين كأصحابه الخمسة، ومن المبشرين بالجنة، ورغم هذا الإسلام العبقري العظيم الذي اعتنقه طلحة؛ إلا أن هذا لم يشغله عن التجارة، بل إن طلحة كان يمضي في تجارته لم يصرفه عنها إلا مشاركته في الغزوات، والمعارك لذلك فهو تاجر في كل دقائق حياته؛ عدا اللحظات المجيدة الرائعة التي كان

يستدعى فيها إلى قتال إلى جانب النبي عليه الصلاة والسلام، أقام طلحة بن عبيد الله في المدينة المنورة أيام أبي بكر الصديق، وعمر بن الخطاب كما حال كل أعيان المهاجرين في تلك الفترة، خاصة أن سيدنا عمر بن الخطاب كان يمنع خروج الصحابة من المدينة المنورة إلا بإذن وموافقة شخصية منه حتى في حالات الحج، ووضع سيدنا عمر بن الخطاب طلحة ضمن الستة المرشحين للخلافة، ولكنه لم يكن موجودًا وقتئذ حيث كان في رحلة تجارة خارج المدينة المنورة بإذن من عمر، فأرسلوا إليه يقولون: "أقبل مسرعًا"، وعندما بلغ طلحة المدينة كانت البيعة قد تمت، ورفض طلحة ما حدث لأن الأمر تم من خلف ظهره، أو من غير وجوده، لكن عثمان بن عفان سعى إليه وقال له: "إن شئت الأمر أعدته إليك، ورددته"، فقال طلحة: "أو تفعل؟" فأجاب عثمان بن عفان: "نعم أفعل"، فقال طلحة: "فإني لا أرد الأمر فإن شئت بايعتك في مجلسك هذا، وإن شئت بايعتك في المسجد"، وبايع طلحة عثمان، تذكر الروايات أن طلحة طلب ذات مرة من عثمان خمسين ألفًا، فأرسل له عثمان: "أرسل من يأتي بمالك"، فأرسل له طلحة الغلام بالمال فرده إليه عثمان قائلاً"

هو لك معونة على مروءتك"، كما حصل طلحة على مائتي ألف درهم من عثمان هبة وعطاء من عطاءاته التي كان يصرفها من بيت المال للصحابة، والأجلاء، وكان بين عثمان وطلحة مبايعات، أي يبيع طلحة ويشتري عثمان، والعكس، فكانت له نفقات ضخمة وواسعة جدًا في مجال الخير، والعطاء، ويقال إن طلحة أول من استنبت القمح في أرض الحجاز، وعندما مات طلحة كانت تركته ٣٠ مليون درهم، وكانت العملة وحدها ٢ مليون ومائتي ألف درهم، فضلاً عن العقارات والأراضي. عندما ظهر الخلاف على عثمان كان طلحة من المسرعين إلى هذا الخلاف، وتقول الروايات إنه عندما اشتد الخلاف كان طلحة من المؤلبين على عثمان، أي أنه كان يزكي الخلاف، ويشعل أواره؛ لدرجة أن طلحة كان أبرز المعارضين الخمسة الذين ألبوا على عثمان، وأعلنوا رفضهم له، ولسياساته إلى درجة أنه عندما حوصر سيدنا عثمان كان طلحة من المشاركين في حصاره، تخيل هذا الصحابي الجليل والمبشر بالجنة، وأحد المرشحين الستة لخلافه المسلمين حاصر عثمان عندما اشتدت ضده المعارضة، وعندما قتل سيدنا عثمان بن عفان كان سيدنا

طلحة يبدي علانية عجبه ودهشته من حزن سيدنا علي بن أبي طالب على مقتل عثمان؛ في الوقت الذي كان فيه علي بن أبي طالب يبكي، ويتوجع، ويتألم لقتل سيدنا عثمان بن عفان لدرجة أن ابني علي بن أبي طالب الحسن والحسين كانا من حراس سيدنا عثمان بن عفان عند محاصرة الثوار له، وعندما قتل سيدنا عثمان بن عفان صفع علي بن أبي طالب الحسين على وجهه وسأله: "كيف يقتل عثمان وأنت على بابه؟"، هذا الحزن الكبير، والثورة الحزينة من سيدنا علي بن أبي طالب على مقتل سيدنا عثمان بن عفان، كان طلحة بن عبيد الله يتعجب لها، لكن هذا لا يمنع العظمة الكلية للشخص، فهناك مثقال للخير فائض بالأعمال لدرجة أن النبي عليه الصلاة يبشره بالجنة، وقتل طلحة في معركة الجمل التي كانت بين طلحة والزبير المرشحين للخلافة من جهة ضد علي بن أبي طالب المرشح الآخر للخلافة، وكانت المعركة بعد مقتل سيدنا عثمان بن عفان، ويقول الرواة إن مروان بن الحكم هو الذي رماه بسهم فأصابه، فقال مروان: "والله ما طلبت بعده بدم عثمان أبدًا"، حيث كان يرى مروان بن الحكم أن طلحة كان أشد المحرضين على قتل عثمان، لما

أصيب طلحة وجعل دمه ينزف قال: "هذا سهم أرسله الله كي يأخذ حق عثمان مني.. هذا لك يا عثمان حتى ترضى".

أما سيدنا علي بن أبي طالب خامس المرشحين للخلافة مع عثمان بن عفان والذي كان منافسه الرئيسي؛ فكان بينهما خلاف أثناء تلك الفترة لا شك، لكن الذي لا شك فيه أيضًا أن أقارب عثمان بن عفان هم الذين لعبوا دورًا كبيرًا في إيغال صدره وإخافته من علي بن أبي طالب، ورغم أن عثمان بن عفان بايع على أن يسير سيرة أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب، إلا أنه في الحقيقة لم يسر سيرة أيهما، بل سار سيرة عثمان وقرابة عثمان، وأهله هم الذين لعبوا دورًا غير مشكوك في إثارة الخلافات حول عثمان، وإثارة معارضة شديدة ضد عثمان، ومن بين هؤلاء كان سيدنا علي بن أبي طالب الذي كان واضح الخلاف من سيدنا عثمان بن عفان في الكثير من أوامره، وقراراته لدرجة أن البعض يروي أن عثمان بن عفان كان قد قرر في أحد الأيام أن يبطش بعلي بن أبي طالب، وتوسط العباس بن عبد المطلب ــ عم النبي عليه الصلاة والسلام ــ بينهما فقال لعثمان: "هذا ابن عمك، وابن خالك، وصهرك، وصاحبك مع رسول الله عليه الصلاة

والسلام، بلغني أنك تريد أن تقوم به وبأصحابه"، فقال عثمان بن عفان: "إن شئت شفعتك، وإن عليّا لو شاء لم يكن أحد عندي دونه، وإن عليًّا لو شاء لكان من المقربين إليَّ"، المفارقة في حديث عثمان بن عفان والعباس بن عبد المطلب الذي كان يدفع سيدنا علي بن أبي طالب للمطالبة بالخلافة ما إلى ذلك؛ فيصبح هو الذي يقوم بهذه الوساطة بين علي بن أبي طالب، وعثمان بن عفان لأن الموقف حدث وانتهى؛ فلا يصح أن يكون هناك إفساد بين علي وعثمان، لكم ما حدث أن عثمان بن عفان كان يشكو عليًّا إلى العباس وقال له: "لا أريد أن أقطع رحمي"، وعبد الله بن عباس يحكي عن أبيه رضي الله عنهما أنه "أطرق قليلاً ثم قال يا بن أخت أن حقك في القرابة والإمامة لا يقطع، ولا يجحد، ماذا لو تقاربتما أنت وعلي"، فرد عثمان: "قد صيرت إليك الأمر بيننا"، إلا أن العباس بن عبد المطلب فشل في وساطته بين علي وعثمان؛ لأن عليًا كان واضحًا في الحق، ورافضًا لقرارات عثمان، لكنه لم يغال في معارضته لتصل لدرجة الثورة، ولم يأخذ موقفًا لا تمليه الصحبة ولا صحبة رسول الله ﷺ، وكان من المدافعين هو وأبناؤه البواسل العظام

في مواجهة ثوار عثمان، وكان مدافعًا عن عثمان دفاعًا حقيقيًا، وحزن عند وفاة عثمان بن عفان لدرجة البكاء الذي كان يستكثره طلحة بن عبيد الله أحد المرشحين الخمسة للخلافة، وهكذا انتهى الحال بمجلس شورى الخلافة بأن أصبح عثمان بن عفان خليفة للمسلمين، وأميرًا للمؤمنين، أما الخمسة الباقون فانتهت جميع مواقفهم إلى المعارضة، ما بين المعارضة المقاطعة التي انتهجها عبد الرحمن بن عوف، أو المعارضة الرقيقة التي انتهجها سعد بن أبي وقاص، أو المعارضة الغليظة القطعية التي انتهجها طلحة، أو المعارضة التي انتهجها الزبير بن العوام،أو المعارضة في الحق التي انتهجها إمام الحق سيدنا علي بن أبي طالب.

أبو بكر الصديق.. خليفة الرسول

خرج أبو بكر الصديق شاهرًا سيفه، راكبًا راحلته لينضم إلى الجيش، ويشارك في حرب الردة التي أمر بها، والجيش الذي جيشه، والحرب التي أعدها، والجنود الذين اصطفوا، فجأة اكتشفوا أن خليفة رسول الله ممسكًا بالسيف، ويركب فرسه، وينطلق لينضم لهم في القتال، فجاءه علي بن أبي طالب مسرعًا متسائلاً: "إلى أين يا خليفة رسول الله؟"، فأجاب الصديق: "إلى المعركة.. إلى القتال"، فرد عليه علي بن أبي طالب: "لم سيفك، ولا تفجعنا في نفسك، فو الله لئن أصبنا بك لا يكون للإسلام من بعدك نظام أبدًا"، جرت هذه الحادثة بعد أيام من قرار أبي بكر الصديق بإعلان حروب الردة، ومواجهة المرتدين، وكان الخليفة أبو بكر الصديق يريد الانضمام لجيش المسلمين ليحارب يوم أحد فقال له سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم: "لا نريد أن نفجع بك، لا تنضم للمعركة"، وكانت نفس المقولة التي قالها علي بن أبي طالب، ومعنى ذلك أن الخليفة يجب ألا ينضم للجيش، فرجع أبو بكر الصديق، ومضى بالجيش قواده، لاحظوا أن الخلفاء أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وحتى

عثمان بن عفان رضـــي الله عـــنهم جميعًـــا لـــم يشـــاركوا في الحروب كقادة عسكريين بعد وفاة النبي ﷺ؛ حيث حـــدث فصل بين الخليفة السياسي القائد الذي يشير ويـــدير فينيـــر، ويخطـــط، ويحكـــم، ويقضـــي، وبـــين القائـــد العســـكري. هذا الفصل لم يكن موجودًا أيام النبي عليه الصلاة والســـلام لأن المسلمون كانوا يبنون الأمة والدين، وكان لا بـــد مـــن وجود النبي عليه الصلاة والسلام بينهم، فكان موجودًا في كل الحروب والغزوات الكبيرة، وتعرض النبي ﷺ نفسه للإصابة في موقعة أحد، وقاد بنفسه كـــل المعـــارك، وكـــان يتقـــدم الصفوف، وكان من أسباب عدم تقدم الخلفاء الثلاثة أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان رضـــي الله عنهم جميعًا في الحروب والغزوات هو كبر سنهم، وبالنسبة لعلي بن أبي طالب كان الأمر مختلفًا فـــي حـــد ذاتـــه لأن الحروب التي خاضها كانت أهلية، وكانت تستلزم وتستوجب وجوده، لكنه أيضًا لم يشارك في الحروب بعد قيـــام دولـــة الإسلام، ونقصد هنا عهد الخليفة أبي بكر الصديق، لكنه تقدم في حربه أمام معاوية لأن تلك الحرب كانت على الشخوص، وكانت حربًا على شخص على نفسه، لكن عندما قـــرر أبـــو

بكر الصديق أن يأخذ سيفه، ويركب الفرس لينضم إلى الجيش، ويشارك في الحرب فكان يتعامل كأبي بكر المناضل، وليس أبو بكر الحاكم، فلم يكن ساعتها أبو بكر الصديق الذي يريد الحكم، وإنما كان أبو بكر الذي يريد بناء دولة الإسلام، كان يريد وقتئذ أن يكون مسلمًا من المسلمين، أن يكون فقد من آحاد الناس، وهذا ما كان يلح على أبي بكر الصديق طوال الثلاث سنوات التي تولى فيها الخلافة؛ حيث وقف بعد أيام من بيعته وقال: "يا أيها الناس، إن كنتم ظننتم أني أخذت خلافتكم رغبة فيها، أو إرادة الاستئثار عليكم وعلى المسلمين فلا، والذي نفسي بيده ما أخذتها رغبة فيها، ولا استئثارًا عليكم، ولا على أحد من المسلمين، ولا حرصت عليها ليلة، ولا يوم قط، ولا سألت الله سرًا ولا علانيةً، ولقد تقلدت أمرًا عظيمًا لا طاقة لي به إلا أن يعين الله، ولوددت أنها في أيد أصحاب رسول الله عليه الصلاة والسلام، وأن أعدل عنها، هي إليكم ردة، ولا بيعة لكم عندي، فادفعوا لمن أحببتم، فإنما أنا رجل منكم"، هذا المشهد، ومشاهد أخرى كثيرة ومتكررة منذ اللحظة الأولى لتوليه الخلافة، حتى مات؛ وهو يتحدث عن إنها تكليف لا يريده، وأمر لا يتمناه،

ولا يسعى إليه، وهو في الحقيقة لا تنقصه ذرة كي يمتلأ بها، أو يكتمل بها نقصانه ليكون خليفة لرسول الله، فهو أبو بكر الصديق لا حاجة له بخلافة، فهو في حد ذاته خلافة، روعة، عظمة، إشراق، نور، ولا يريد الخلافة، ويراها صعبة، مهولة، خطيرة، يقول لهم: "راعوني بأبصاركم، فإن استقمت فأعينوني، وإن زغت فقوموني، وإن أطعت الله فأطيعوني، وإن عصيت الله فاعصوني"، هذا هو ميثاق أبي بكر الصديق، وبيانه إلى الأمة، هل هناك أكثر من ذلك احترامًا لإرادة الناس، حريتهم، ورغبتهم؟ هل هناك أكثر من ذلك تداولاً سلميًا للسلطة؟ هل هناك أكثر من ذلك عظمة وديموقراطية؟ عندما بويع أبو بكر الصديق للخلافة أغلق بابه ثلاثة أيام، وكان يخرج إليهم في كل يوم فيقول: "أيها الناس لقد رددت بيعتكم، فبايعوا من أحببتم"، ثلاثة أيام يفتح فيها أبو بكر الصديق بابه للمسلمين والمؤمنين، يفتح بابه للتاريخ، وكان ذلك يتم يوميًا، فيسعى إليه علي بن أبي طالب ــ طبعًا العين على عليّ باعتبار أن هناك من يرى أن أهل البيت أحق بالخلافة، وهذا هو الخلاف التاريخي الذي سيظل يمتد ويتمدد ــ ويقول له: "لا نقيلك، ولا نستقيلك. من ذا الذي

يؤخرك وقد قدمك رسول الله ﷺ ؟"، عندما ثقل بأبي الصديق الحمل أشفق من أن يكــون مســئولاً عــن أمــة الإســلام والمسلمين، وأن يكون مسئولاً عن كل صــغيرة، وكبيــرة، وأنه سيأتي يوم القيامة وفي عنقه ماذا فعل لهذه الأمة؟ فجمع الناس، وقال لهم: "أنه قد نزل بي ما قد ترون"، وعندما شعر أبو بكر الصديق بدنو الأجل جمع الناس وقــال لهــم مــرة أخرى: "لقد رأيتم بي ما ترون، ولا أظنني إلا لممات، وقــد أطلق الله تعالى أيمانكم من بيعتــي، وحــل لكــم عقــدي، ورد عليكم أمركم، فأمروا، وائتمروا عليكم من أحببتم، فإنكم إن أمرتم في حياة مني كان أكبر ألا تختلفوا بعــدي". كــان القرار الأول لأبي بكر الصديق أن يترك كما تركهــا النبــي للناس أن يختاروا، فقال لهم اجتمعوا، واختاروا في حيــاتي أفضل من أن تختلفوا بعــدي، وانصــرف النــاس، قــاموا، وتشاوروا في هــذا الأمــر، ودارت مناقشــات، حــوارات، مفاوضات، ثم رجعوا فقالوا: "اختره لنا يا خليفة رسول الله"، أوكل الناس لأبي بكر الصديق هذا الأمر، إذن في البداية كان أبو بكر الصديق يريد أن يرد البيعــة، وأن يختــار النــاس، وفي نهاية حكمه قال لهم البيعة ردت إليكم لأنــي ســأموت

فاختاروا، فيقرر الناس أن يعطوا البيعة مرة أخرى لأبي بكر الصديق؛ وقالوا له: "اختره لنا يا خليفة رسول الله"، فقال أبو بكر الصديق رضي الله عنكم: "لعلكم تختلفون"، فقالوا: "لا"، وعندما نقول (قالوا) فنحن نقصد هؤلاء الصحابة العظام، الكبار، الأفاضل، الأجلاء الذين كانوا بمثابة مجلس شورى، وبرلمان مع أبي بكر الصديق، فقال الصديق: "عليكم عهد الله على الطاعة، قالوا: "نعم"، فقال: "فأمهلوني"، حينما استخلف أبو بكر الصديق جلس في بيته حزيناً، وفي تلك الفترة دخل عليه عمر بن الخطاب ﷺ، فاقبل عليه يلومه؛ كان أبو بكر الصديق يلوم عمر بن الخطاب رضي الله عنهما، وقال له: "أنت كلفتني هذا الأمر.. أنت كلفتني هذا الأمر"، فكما نعلم جميعًا أن عمر بن الخطاب هو الذي أعلن في سقيفة بني ساعدة أن أبا بكر الصديق هو الأحق بالخلافة، والولاية، وأدار معركته الانتخابية العظيمة في مواجهة المرشح الآخر سعد بن عبادة، وكان هناك تنافس بين الاثنين على من يتولى خلافة المسلمين بعد رسول الله ﷺ، كان هناك حزب المهاجرين يقوده عمر بن الخطاب، وأبو عبيدة الجراح لولاية أبي بكر الصديق وخلافته، وكان هناك معسكر الأنصار

يقوده جناح الخزرج وكان يريد ترشيح سعد بن عبادة، وبايعوه فعلاً خليفة للمسلمين حتى وصل إلى سقيفة بني ساعدة ثالث يوم عصرًا بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام، وقاد عمر بن الخطاب الدعوة إلى ولاية أبي بكر الصديق، لذلك كان أبو بكر الصديق يلوم عمر بن الخطاب بقوله: "لقد كلفتني هذا الأمر"، فقال له عمر: "أو ما علمت أن رسول الله ﷺ قال: إن الوالي إذا اجتهد فأصاب الحق فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ الحق فله أجر واحد"، وكأن عمر بن الخطاب يريد تيسير الأمر وتهوينه على أبي بكر الصديق فالاجتهاد الذي يؤدي إلى خطأ عليه أجر، وكان أبا بكر الصديق يريد أن ينزع عنه أحد الولاية، كأنه يريد أن يترك الخلافة وهذا الإحساس بالمسئولية الهائلة، وكان هذا هو السبب في قوله للمسلمين في لحظاته الأخيرة قبيل الوفاة: "ردت إليكم بيعتكم، فاختاروا من شئتم"، لكن المسلمون يصرون على أن يختار هو، فيقول لهم: "أمهلوني".

عن عبد الرحمن بن عوف أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال له في مرض وفاته: "وددت أنني يوم سقيفة بني ساعدة كنت

قذفت الأمر إلى أحد الرجلين: أبو عبيدة الجراح، أو عمر بن الخطاب، فكان أميرًا، وكنت وزيرًا".

تأمل تعبير "قذفت الأمر" وكأنما هو كرة ملتهبة ألقيت له وستحرقه، لم يكن أبو بكر يريد الخلافة، ولكنه كان يريد الوزارة فقط، لم يكن يريد أن يكون صاحب المسئولية التي تنوء بحملها الجبال.

بدا سيدنا أبو بكر الصديق عندما قال لهم أمهلوني أنه اختار عمر بن الخطاب، هذه اللحظة مهمة لأن بين احتضار الموت والوفاة كانت هناك أيام قليلة قرر فيها أن يستخلف عمر بن الخطاب، في البداية لم يكن يريد أن يستخلف، لكن عندما طلب منه الناس الاختيار اختار عمر بن الخطاب، إذن نحن نتحدث عن لحظات ما قبل الموت، وأعتقد أنها حالة أقرب على الرؤيا، والإلهام السماوي لشخص عظيم، رفيع المكانة والمقام، وأضع إلى جانب الإلهام السماوي تفكير كل سنوات الولاية في (من يستحقها؟)، ومن أوجب الأمر ليدير هذه الخلافة؟، فعندما قال أبو بكر الصديق لعبد الرحمن بن عوف: كنت أريد أن أقذف بالأمر لعمر بن الخطاب أو أبو عبيدة الجراح، وكان يراهما أحق بالولاية التي لا يريدها،

إذن هذا الأمر كان يشغل مساحة من تفكير أبي بكر الصديق، وليس فقط في أيام ما قبل الوفاة، ولكنني أظن أنه فكر في هذه الأمر عشرات المرات، وأنه إذا مات فيولي عمر بن الخطاب الخلافة، لكن في نفس الوقت لدى أبو بكر الصديق قناعة بأن المفروض أن تأخذ الناس الأمر في يدها، وهي التي تقرر.

نفس الشيء يحدث مع وفاة عمر فقبيل وفاته وهي الفترة من طعنه، وحتى وفاته والتي تقدرها بعض الروايات بثلاثة أيام، وتقدرها أخرى بيوم واحد؛ كان عمر بن الخطاب يريد أن يولي علي بن أبي طالب، ثم غشي غشية، فقرر أن يكون الأمر شورى بين الستة المبشرين بالجنة، وهنا يمكن أن نعتبر الأمر ــ هذه الغشية ــ إلهامًا سماويًا لعمر العظيم، لكننا أيضًا يمكن أن نعتبره ــ ويصبح ذلك منطقيًا ــ أن في كل سنوات خلافة عمر والتي امتدت لأضعاف الفترة التي قضاها أبو بكر الصديق كان يفكر لمن هذا الأمر بعده؟، وكانت هناك أشياء ترد في ذهنه، ويتحدث فيها مع نفسه، وربما مع غيره من الصحابة حولها، فعندما تأتي لحظة اتخاذ القرار تبزغ قائمة الأسماء الستة المبشرين بالجنة، ويستبعد

السابع سعيد بن زيد، إذن الاختيار ليس مجرد رؤيا وإلهام ـــ وربما كان ذلك بشكل كبير ـــ لكن إلى جانبه أيضًا أذهان منشغلة بمصلحة العباد، ومصلحة هذه الأمة، فعندما يقول الصحابة لأبي بكر الصديق: "ماذا ستقول إذا سألك الله عن استخلافك عمر علينا، وقد ترى غلظته وأنت فينا"، فقال أبو بكر الصديق: "أجلسوني، أبالله تخوفونني؟ خاب من تزود في أمركم بظلم، أقول استخلفت عليهم خير أهل الأرض، أبلغ عني ما قلت وللذي ورائك"، ثم اضطجع، ودعا عثمان بن عفان فقال: "اكتب.."، ثم كانت هذه اللحظة المدوية في التاريخ الإسلامي... لحظة مليئة بالهدوء مع همس وأنفاس أبي بكر الصديق اللاهثة وهو يتحدث على فراش موته ومرضه الأخير، يكتب هذا القرار الذي أشرق في سماء الإنسانية، قال له: "اكتب"، وأملاه قرار خلافة عمر بن الخطاب، ليفتح التاريخ بابًا عظيمًا على عدل وفاروقية، ويغلق بابًا على رفعة ونبل. صدق الصديق أبو بكر الصديق.

محمد بن مسلمة.. بريد الخطاب

عندما دخل النبي عليه الصلاة والسلام إلى المدينة المنورة التي كانت في ذلك الوقت يثرب، كان هناك شخص امتلأ بالشوق والمحبة للنبي إلى حد أنه أمسك خطام ناقة النبي وتشبث بها تبركًا، فأناخت الناقة أمام منزل الصحابي الجليل محمد بن مسلمة الأنصاري، ومنذ ذلك التاريخ يظهر اسم محمد بن مسلمة ذلك الأنصاري العظيم الذي مسك بخطام الناقة في ذلك المكان الذي تحول فيما بعد إلى المسجد النبوي.

في تلك اللحظة كان محمد بن مسلمة مسلمًا وموحدًا بالله، وكان من الذين أسلموا على يد مصعب بن عمير الذي كان مبعوثًا من النبي إلى المدينة، كان الشوق قد بلغ من محمد بن مسلمة الأنصاري مبلغًا عظيمًا لاستقبال النبي، وكان يود الذهاب للقائه في مكة، فقيل له إن الرسول عليه الصلاة والسلام سيأتي إلى المدينة مهاجرًا، ذلك الشوق هو الذي دفعه للإمساك بالناقة، وقضاء الله أن يصبح ذلك المكان هو المسجد النبوي، لم يغب محمد بن مسلمة عن مجلس

الرسول طول فترة وجوده، وحتى وفاته في المدينة المنورة، ذلك المجلس الذي كان الرسول عليه الصلاة والسلام يفقه فيه الصحابة، ويرشدهم إلى تعاليم دينهم، ويلقي على مسامعهم آخر ما نزل من الوحي، كما شارك بن مسلمة الرسول عليه الصلاة والسلام في غزوة بدر وكان فارسًا مغوارًا وقتل فيها من قريش ـ كما تقول كتب التاريخ ـ مقتلة عظيمة، وعندما هزم جيش الكفار والنفاق، جيش قريش كان محمد بن مسلمة مسئولاً مع مجموعة من المهاجرين والأنصار عن جمع الأسلاب، والغنائم، والسلاح من أرض المعركة، ويبدو أن ذلك كان قدر محمد بن مسلمة وهو أن يؤتمن على أموال الأمة، ومال الناس لأمانته، دقته، التزامه بدقائق دينه، فروض وتعاليم نبيه، ذلك الجمع للأسلاب والغنائم الذي قام به محمد بن مسلمة هو مفتاح شخصيته، وسنعرف فيما بعد ماذا تعني قدرته وأمانته في حفاظه على مال وثروة المسلمين، اهتمامه الشديد في هذا السياق بمصلحة الأمة، مصلحة المسلمين، لكن قبل أن نتجاوز إلى مرحلة ما بعد الرسول ﷺ أود أن أتوقف عند مشهد مهم في حياة محمد بن مسلمة؛ بل لعله المشهد الأهم في فترة مصاحبته للنبي عليه

الصلاة والسلام، وكونه واحدًا من زعامات وعظماء الأنصار، هذا المشهد هو قصة كعب بن الأشرف أحد الشخصيات اليهودية المؤثرة في المدينة في تلك الفترة، يقدم بعض المتطرفين والمغالين هذه الواقعة باعتبارها دليلاً على إباحة النبي عليه الصلاة والسلام للاغتيال السياسي، لكن حقيقة الأمر أن النبي عليه الصلاة والسلام تعامل مع كعب بن الأشرف كقائد حربي، ومحارب للإسلام، أحد الذين ناصبوا الإسلام العداء، كان أحد قيادات اليهود في المدينة المسلطة على الإيقاع بالمسلمين، حربهم، عدائهم، ومن ثم يمكن فهم أمر النبي عليه الصلاة والسلام عندما استشار أصحابه في شأن كعب بن الأشرف، فأشاروا عليه بقتله في هذا السياق.

لاحظ أن فكرة القتل كانت نابعة من خارج الحدود النبوية، صحيح أن الرسول عليه الصلاة والسلام أقرها بطبيعة الحال، لكنه في النهاية كان مطلب الصحابة قتل كعب بن الأشرف حتى تستقر الأمور، وتهدأ النفوس، يتم القضاء على فتنة يمكن أن يصنعها كعب بن الأشرف بمعنى أنه كان طابورًا خامسًا داخل صفوف المسلمين، قال رسول الله ﷺ:

من لي بكعب بن الأشرف؟"، فقال محمد بن مسلمة:" أنا يا رسول الله"، فرد عليه النبي عليه الصلاة والسلام "افعل إن قدرت على ذلك"، لاحظ تعبير "إن قدرت"، كان محمد بن مسلمة هو الذي عرض قيامه بقتل كعب بن الأشرف واغتياله، لكنه عندما تدبر الأمر شعر أنه تسرع في وعده، فظل ثلاثة أيام لا يأكل، ويشرب، ركبته الهموم، تناولته الأفكار السوداء، تناوبته الهواجس من كل جانب، فهو لا يستطيع قتل كعب بن الأشرف وحده، فأبلغ الصحابة النبي عليه الصلاة والسلام بحال محمد بن مسلمة، فدعاه النبي وسأله: "لم تركت الطعام والشراب؟"، فأجابه محمد بن مسلمة: "يا رسول الله قلت قولاً لا أدري أفيه ما أستطيع أن أقوم به أم لا"، فقال عليه الصلاة والسلام: "إنما عليك الجهد"، أي أن الموضوع كله هو بذل الجهد، وليس النتيجة؛ فضلاً عن أن الأعمال بالنيات، وأنه عليك بذل الجهد، أما النتيجة فعلى الله، شارك محمد بن مسلمة في وضع خطة لقتل كعب بن الأشرف، كما شارك في التنفيذ، عمل محمد بن مسلمة ما يشبه الخديعة والغدر لقتل كعب بن الأشرف وهو أنهم ذهبوا إلى منزل كعب بن الأشرف وكان متزوجًا حديثًا،

فدعوه للخروج معهم، كان كعب على صلة قوية بهم، ويعرفهم كأصدقاء فخرج معهم، دار بينهم حديث ـ يستغرق في كتب التاريخ ثماني صفحات ـ عن الشعر، ثم قال أحد الصحابة لكعب أن عطر شعره جميل، انحنى على رأسه ليشم ذلك العطر، فقتله.

يعتبر بعض المؤرخين أن ما فعله الصحابة اغتيال غادر لا يبرره إقرار الرسول عليه الصلاة والسلام بقتل كعب بن الأشرف، إذ لم يقر النبي عليه الصلاة والسلام بالغدر في قتله، وهنا أود أن أقول إن الرسول عليه الصلاة والسلام لم يعرف بتفاصيل الخطة، ولم يقرها، وإنما كان إقراره بالنتيجة وهي قتل كعب بن الأشرف باعتباره قائدًا، وزعيمًا حربيًا، وليس يهوديًا مدنيًا، فضلاً عن كونه غير مسلمًا أساسًا، كان محمد بن مسلمة بطل هذه القصة.

بعد وفاة النبي عليه الصلاة والسلام استعمل عمر بن الخطاب محمد بن مسلمة على صدقات جويرة وهي قبيلة من قبائل الجزيرة، كانت مسئولية محمد بن مسلمة هي جمع الصدقات وتوزيعها، وهي مسئولية مالية أنيطت بمحمد بن مسلمة مثل جمع أسلاب، وغنائم المشركين في موقعة بدر،

أيضًا اصطلح على تسمية محمد بن مسلمة في عصر عمــر بن الخطاب بـــ "بريد عمر" أو "مندوب عمر"، وكان هنـــاك مسمى آخر يطلق عليه وهو "صاحب العمال"؛ بمعنى أنه كان المبعوث الرئاسي لعمال عمر من الأمـــراء والـــولاة الـــذين استخلفهم عمر بن الخطاب على الأمصار المختلفة.

كان عمر بن الخطاب بفاروقيته، عدالته، حزمه، حسمه، صرامته يحاسب العمال ــ الأمــراء ــ محاســبة عســيرة، فاصلة، قاصمة، والذي تزيد أمواله بدينار أو درهم بعد تولي الإمارة يصادر عمر هذه الزيادة على ضآلتها، وهو ما حدث مع عمال كثيرين من خلال بريد عمر أو صـــاحب العمـــال محمد بن مسلمة الأنصاري، فكان إذا شكا أحد الرعية لعمر بن الخطاب عاملاً أو أميرًا، فكان عمر يرسل محمـــد بـــن مسلمة بمثابة رئيس الجهاز المركزي للمحاسبات أو جهـــاز الرقابة المالية؛ فمثلاً سمع عمر بن الخطاب أن سعد بن أبي وقاص أقام بابًا بينه وبين الرعية فأرسل إليه محمد بن مسلمة وأمره بحرق الباب، فسافر محمد بن مسلمة إلى الكوفة، ونفذ أمر عمر بن الخطاب بحرق الباب، وكان أمـــر عمـــر بـــن الخطاب بحرق الباب يرجع إلى اعتقاده أن مثل هذا البـــاب

يحجب الوالي عن الرعية في حين أن الوالي يجب أن يكون قريبًا من الرعية، ولن يتم ذلك تمامًا وبالكامل إلا في وجـــود دار حكم مفتوح الأبواب لكي يسهل على المتقاضـــين، وذوي الحاجات الدخول إلى الوالي.

عندما ذهب محمد بن مسلمة إلى سعد بن أبي وقـــاص أمره بأن يجلس في المسجد عقب كل صلاة ليتعـــرف علـــى أحوال الرعية، ويستمع إلى شكواهم إن كانت هناك شـــكوى، أو يفقههم في الدين إن عميت عليهم أمور الدين، فلا يوجـــد شيء اسمه دار حكم، أو حاجب؛ ثم يعـــود منـــدوب عمـــر ويريده محمد بن مسلمة ليضع أمام عمر تقريره من جملـــة ما رآه، واستمع إليه من الوالي والرعية، عندما يـــأتي ذكـــر عمر بن الخطاب، إبداعه فـــي العـــدل، العدالـــة، محاســـبته للأمراء، الولاة، العمال؛ لا بد أن يأتي ذكر محمد بن مسلمة، فنحن دائمًا ما نسعى إلى النور البازغ المضيء الذي يشع به تاريخ عمر بن الخطاب، ويملك علينا عمر بن الخطاب كـــل تفكيرنا وتصورنا، ونحن نتحدث عنه أو نسعى في تاريخـــه، لكن حقيقة الأمر أن عمر بن الخطاب كان لديه من الرجـــال الذي ساعدوه ونصروه في تحقيق هذه الأمثلة العظيمة التـــي

قام بها، القدرات العمرية الكثيرة التي ظهرت في تاريخه كان لها منفذوها، كانت هناك أيدي لعمر بن الخطاب ومنها محمد بن مسلمة الرجل الذي أمنه النبي عليه الصلاة والسلام على جمع الأسلاب وتوزيعها، فأمنه عمر بن الخطاب على مال المسلمين، ومحاسبة العمال.

عندما يذهب محمد بن مسلمة ليبلغ بعزل خالد بن الوليد، أو يقتسم مال أبي هريرة، أو يذهب لعمرو بن العاص، أو سعد بن أبي وقاص؛ فالكل يعرف أن هذا القادم فضلاً عن كونه صحابيًا عظيمًا، شارك في بدر، أحد حضور مجلس النبي عليه الصلاة والسلام، قاتل زعيم خيبر العصية على التسليم، يعرفون أيضًا أنه مؤمن بما يفعل، فلا سبيل إلى الإغراء أو الإغواء مع محمد بن مسلمة في تنفيذ أوامر عمر بن الخطاب.

عندما نذكر خالد بن الوليد قائد الجيش العظيم، أحيانًا ما ننسى في طريقنا شخصًا مثل شرحبيل بن حسنة، أو عدي بن حاتم الطائي الذين كانوا من قواد الجيش مع خالد بن الوليد، أيضًا عندما نذكر عمر بن الخطاب علينا أن نذكر اسم محمد بن مسلمة الأنصاري.

عندما توفي سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ، وتولى عثمان بن عفان تمضي بنا السنوات دون ذكر لاسم محمد بن مسلمة حتى تأتي لحظة يظهر فيها اسمه بقوة شديدة جدًا؛ وهي عندما جاء المصرين ـــ هكذا تقول كتب التاريخ ـــ إلى المدينة المنورة ثورة على عثمان بن عفان، وتروي لنا كتب التاريخ أنهم كانوا سبعمائة مصريًا كانوا قد قرروا إما قتل عثمان، أو يتنازل عن الخلافة، ويستجيب لمطالبهم التي وضعوها بين يديه ـــ ومن الواضح أن المطالب كانت تتضمن عزل والي مصر ـــ فأرسل عثمان بن عفان ﷺ إلى محمد بن مسلمة، وقال له: "اذهب إلى هؤلاء الثائرين، فارددهم عني، وأخبرهم أني سأحقق لهم الأمور التي طلبوها، ونازع عن الأمور التي اعترضوا عليها"، أي أن عثمان بن عفان أوكل محمد بن مسلمة ليكون وسيطًا، ومفاوضًا بين الثائرين، وبين عثمان بن عفان نفسه، ولم تنجح مهمة محمد بن مسلمة في هذا السياق لأن عثمان بن عفان أرسل معه خمسين راكبًا من الأنصار، وكان الأنصار في المدينة من بين الثائرين والرافضين لكثير من سياسات عثمان في إعلائه لبني أمية على رؤوس وأعناق المسلمين،

ويرجع اختيار عثمان بن عفان لمحمد بن مسلمة لأنه موضوعي جدًا لدرجة أنه كان بريد عمر، وصحابي رسول ومن ثم فهو مؤهل تمامًا للقيام بهذا الدور، ذهب محمد بن مسلمة إلى الثائرين، وأبلغهم رسالة عثمان بن عفان، ولم يزل بهم حتى قرروا الرجوع إلى بلادهم، أي أن محمد بن مسلمة نجح في الوساطة، وأقنعهم بالفعل بالرجوع إلى مصر مقابل أن عثمان بن عفان ﷺ وأرضاه سيفعل كذا، وكذا، لكنهم بعدما وافقوا على ما توصلوا إليه مع محمد بن مسلمة من مفاوضات قابلوا في طريق عودتهم واحدة من إبل بيت المال وعليها غلام لعثمان بن عفان، فسألوه إلى أين فارتبك الغلام، فأخذوا متاعه، وفتشوه، فوجودا معه رسالة مختومة بخاتم عثمان بن عفان إلى والي مصر عبد الله بن سعد بن أبي سرح يأمره فيها بقتل من حاصروه وثاروا عليه، فاكتشفوا أن الأمر جلل، فظيع، رهيب، وظنوا أن عثمان بن عفان خدعهم بمفاوضات محمد بن مسلمة، فرجعوا مرة أخرى إلى عثمان بن عفان، وحاصروه، وجرى ما جرى.

عندما علم عثمان بن عفان بعودتهم طلب من محمد بن مسلمة أن يكمل وساطته، لكن محمد بن مسلمة أعتقد أن

عثمان خدعه ليوقع بالثائرين، ويقتلهم؛ إلا أن كتب التاريخ تؤكد لنا أن عثمان بن عفان كان بريئًا من ذلك تمامًا، وأن من كتب أوامر القتل وختمها بخاتم عثمان بن عفان هو الحكم بن مروان، وبعض كتب التاريخ تقول إنه مروان بن الحكم أي قرابة وصلة عثمان بن عفان، ومن المقربين لعرشه من أبناء بني أمية، وأنهم كانوا ينتوون قتل الثائرين على عثمان بن عفان دون علمه، وهو ما انتهى بالفتنة الجبارة، الثورة الشديدة التي انتهت في المدينة المنورة بمقتل عثمان.

في تلك اللحظة عندما تخلى محمد بن مسلمة عن الوساطة لم يكن يعلم تفاصيل، ودقائق ما جرى فيما عرف بعد ذلك من ألغاز التاريخ، وكان ظنه أن عثمان خدعه ليوقع بالثائرين ويقتلهم، لكن عندما قامت الفتنة والحرب الأهلية بين علي بن أبي طالب، ومعاوية بن أبي سفيان لم ينتصر محمد بن مسلمة لأيهما؛ بل وقف بعيدًا في التاريخ عما حدث، وعندما سألوه: "لماذا ابتعدت؟"، أجاب: "أعطاني رسول الله ﷺ سيفًا ثم قال: يا محمد بن مسلمة جاهد بهذا السيف في سبيل الله، حتى إذا رأيت من المسلمين فئتين تقتتلان، فاضرب بسيفك حتى تكسره، ثم كف لسانك، يدك

حتى تأتيك منية قاتلة أو يد خاطئة"، وعندما قتل عثمان بن عفان وكان ما كان من أمر الناس، أمسك محمد بن مسلمة هذا السيف الذي حارب به في موقعة بدر، فأخذ يضرب به صخور أحد الجبال حتى انكسر السيف، وقيل إنه كان يمشي بسيف مكسور، أو بسيف من خشب طول فترة الفتنة، الصراع، الحرب، وحتى مات محمد بن مسلمة وهو يمسك سيفاً من خشب لا يمكن أن يرفعه ضد مسلم.

كلنا نعرف مدى حب النبي عليه الصلاة والسلام لزيد بن حارثة الذي كان النبي قد تبناه إلى أن قرر الإسلام وأنزل الله سبحانه وتعالى أمرًا إلهيًا بإنهاء فكرة التبني في الإسلام فعاد زيد بن محمد زيد بن حارثة وكان يطلق الصحابة وصحبة مكة والمدينة يطلقون عليه زيد الحب كما تلقب بوصف غال وهو حب رسول الله (حب بكسر الباء تعني محبوب فلانًا أي الذي يحبه فلان) وورث ابنه أسامة اللقبين وصار اسمه حب رسول الله وابن حبه ولاحظ هنا دلالة التعامل مع زيد بن حارثة وأسامة باعتبارهما الابن والحفيد للنبي الكريم ويمكن كذلك وما دام الأمر هكذا أن نعتبر هذا الكلام موجهًا لغلاظ القلوب فالنبي الكريم لا يستنكف أن يعلن

حبه لمن كان بمثابة الابن أو اعتبر بعد إلغاء التبني في مقام الأخ، وفي عام ٨ هجرية شاء الله أن يختبر الحبيب بفـــراق حبيبه حيث بعث الرسول بالحارث بن عميرة بكتاب لملك من ملوك العراق أحد أمراء الغساسنة لكن هذا الأمير قتل مندوب النبي الكريم، وأفزعت هذه القصة المسلمين بـــالطبع فضـــلاً عن اشتداد أثرها على الرسول عليه الصلاة والسلام إذ لـــم يقتل له رسول إلا هذا الرسول فجهز الرسول عليه الصـــلاة والسلام جيشاً من ثلاثة آلاف مقاتل لغزو تلـــك البلـــد التـــي تعرف باسم (مؤتة) ووضع قيادته زيد بن حارثة وقال النبي عليه الصلاة والسلام: "إذا أصيب زيد تكون القيادة لجعفر بن أبي طالب، شقيق علي بن طالب وابن عم النبي عليه الصلاة والسلام، فإن أصيب جعفر كانت إلى عبد الله بن رواح فـــإن أصيب عبد الله فليختر المسلمون من أنفسهم رجلاً" لاحظـــوا هنا أن اختيار المسلمين وليس اختيار النبي هو الـــذي أنقـــذ الجيش بعد ذلك حيث مات جميعهم كما توقع النبـــي عليـــه الصلاة والسلام وتولى قيادة الجيش أحد المحـــاربين انتخبـــه الجيش يدعى خالد بن الوليد بينما استشهد في سبيل الله كـــل من رشحهم النبي عليه الصلاة والسلام وهذه حكمة ربانيـــة

ورسالة نبوية في أهمية الشورى في اختيار البشر. مضى هذا الجيش بقيادة زيد بن حارثة حتى وصل إلى شرقي الأردن فأرسل هرقل ملك الروم مائة ألف مقاتل للدفاع عن الغساسنة وانضم إليهم ما يقرب من مائة الف من مشركي العرب وهذا الجيش الجرار وقف في انتظار اقتراب المسلمين وفي انتظار ليلة المعركة الطاحنة. في هذه اللحظة اجتمعت قيادات جيش المسلمين وقرروا أن يكتبوا إلى الرسول عليه الصلاة والسلام يستفتوه فهم ثلاثة آلاف فقط يواجهون مائتي ألف وحتى إذا كانت تقديرات المسلمين في ذلك الوقت لإظهار مدى جسامة وخطورة المشكلة ومدى ضخامة جيش الغساسنة مبالغ فيها سنقول إن جيش الغساسنة مائة ألفًا أو خمسين ألفًا بينما جيش المسلمين ثلاثة آلاف فقط فقرروا أن يكتبوا على الرسول عليه الصلاة والسلام ليخبروه بعدة وعدد وعتاد العدو، وانتظروا أمره بينما رفض آخرون وقالوا" إننا لا نقاتل بعدد ولا قوة ولا أكثر وإنما نقاتل بهذا الدين فانطلقوا إلى ما خرجتم له وقد ضمن لكم الله الفوز بأحد الحسنيين النصر أو الشهادة". والحقيقة أن هذه النظرية هي نظرية الشهداء وليست نظرية المقاتلين المحاربين فعندما

يجتمع ثلاثة آلاف في مقابل مائتي ألف أو فلنقل تجاوزًا مائة ألف ـــ حتى نترك أي تقديرات قد يعتبرها البعض مبالغ فيها ـــ لكنه في النهاية جيش قليل العدد مقابل جيش ضخم العـــدد والعدة والعتاد ويحتاج الأمر إلى إعادة نظر، فالشهيد يكـــون رأيه أن يقاتل في هذه الحالة ويحصل على النصر أو الشهادة ولكن القائد العسكري لا يندفع إلى دخـــول هـــذه المعركـــة، والحقيقة أنهم لم يرسلوا إلى النبي لنعرف ماذا كان رأيه لأن رأيه في هذه الحالة كان سيصبح بمثابة منهجًا نحتـــذي بـــه نسير ورائه أما موقعة (بدر) فلا يمكننا القياس عليهـــا فهـــي بداية الإسلام وكان عدد جيش المسلمين ثلاثمائة في مواجهة ألف أي أن الفارق العددي لم يكن مذهلاً كما في تلك الحالـــة وفي النهاية كان هناك ملائكة نزلوا من السماء ولـــم تكـــن (بدر) موقعة ونموذج لنسير خلفه طول الوقت كمثل واقتـــداء وإنما الاقتداء بمدى إخلاص المسلمين فيها ولا يصح الاقتداء بالفارق العددي بين الجيشين فيها أيضًا. في تلـــك المعركـــة التقى الجمعان على أرض مؤتة وقتل المسلمون ـــ كما أجمع الرواة ـــ قتالاً أذهل الروم وملأهم هيبة وهو لا شـــك فيـــه، فقال ثلاثمائة أمام مائة ألف يعني أنه قتل الشهداء البواســـل

العظام لكن حقيقة الأمر أن الذي قاتل بقيادة زيد بن حارثة ومن بعده جعفر بن أبي طالب ثم عبد الله بن رواح فهؤلاء الشهداء عندما يقاتلون لم تعرف راية رسول الله عليه الصلاة والسلام مقاومة في تاريخ البطولات العسكرية مثل مقاومة زيد بن حارثة في المواجهة حيث خرقت جسده كما قيل مئات الرماح حتى خر صريعًا يسبح في دمه، وتلقى الراية من بعده جعفر بن أبي طالب فقاتل ودافع حتى استشهد ولحق بصاحبه ثم اختار الجيش خالد بن الوليد للقيادة وكان خالد بن الوليد وقتها حديث عهد بالإسلام ولكنه لم يكن حديث عهد بالفروسية فانسحب بالجيش وأنقذ ما تبقى منه من فناء محتوم رهيب ومن يومها أطلق عليه النبي عليه الصلاة والسلام لقب (سيف الله المسلول) لاحظ أنه أطلق عليه اللقب لأنه انسحب وليس لأنه انتصر. فعندما بلغت الرسول عليه الصلاة والسلام الأنباء بمقتل القادة الثلاثة. زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب وعبد الله بن رواح ــ حزن حزنًا لم يحزن مثله قط ومعنى أن يطلق الرسول عليه الصلاة والسلام على خالد بن الوليد في تلك اللحظة لقب سيف الله المسلول فهذا يعني إن إبقاء الجيش وإنقاذه هو المنهج الذي يقره النبي وأنه كان

سيقر بالانسحاب والدليل على ذلك أنه عندما انسحب خالد بن الوليد وأنقذ جيشه لم يؤنبه النبي عليه الصلاة والسلام على انسحابه ولم يقل لهم "قاتلوا حتى تفنوا جميعًا بالموت والشهادة أو تنتصروا" لم يعاقبه النبي ولم يرفض موقفه بل مدحه وامتدحه بل ووهبه النيشان العظيم الذي لا بعده من الأوسمة ولا قبله وهو لقب (سيف الله المسلول) عندما توفي زيد بن حارثة شهيدًا حزن النبي حزنًا شديدًا عليه حتى أنه عندما ذهب والتقى بأهل زيد بن حارثة بكى النبي عليه الصلاة والسلام حتى انتخب فسأله سعد بن عبادة ــ زعيم الأنصار ــ والذي سيرشح نفسه فيما بعد خليفة لرسول الله شخصيًا: "ما هذا يا رسول الله؟" وكان يعتب بسؤاله على النبي وبكائه فقال عليه الصلاة والسلام: "هذا بكاء الحبيب على حبيبه" في نفس الغزوة ــ غزوة مؤتة ــ شارك أسامة بن زيد بن حارثة وكان عمره وقتئذ أقل من ١٨ عامًا ورأى بعينيه مصرع أبيه وشهد الجميع أن أسامة بن زيد لم يضعف ولم يتراجع وإنما ظل يقاتل تحت لواء جعفر بن أبي طالب حتى استشهد جعفر على مرأى من عينه ومشهد منه ولما استشهد جعفر ظل أسامة بنفس القوة والنضال والتواصل

تحت لواء عبد الله بن رواح حتى لحق عبد الله بصاحبيه ثم كان أسامة بن زيد أحد أفراد وجنود الجيش الذين قاتلوا تحت قيادة خالد بن الوليد في عودته من براثن وجحافل الروم التي كانت تودي وتفني جيش المسلمين. ورجع أسامة بن زيد راكبًا جواد أبيه الذي استشهد عليه الصلاة والسلام إليه قيادة الجيش عندما أعاد تشكيله لغزو الروم في عام ١١ هجريًا أي بعد ٣ سنوات من مؤتة وقبيل مرض النبي عليه الصلاة والسلام بأيام ثم وفاته.

فتعطل الجيش لمرض النبي عليه الصلاة والسلام ووفاته. كان أسامة بن زيد قائدًا على جيش مليء بالصحابة منهم سعد بن أبي وقاص وأبو عبيدة الجراح وعمر بن الخطاب وغيرهم من عظماء الصحابة ولم يمكن أسامة بن زيد وقتها قد تجاوز العشرين عامًا. وتحكي الروايات التاريخية أنه عندما ثقل على النبي المرض أقبل عليه أسامة بن زيد ودخل عليه فوجده صامتًا لا يتكلم من وطأة الداء فجعل عليه الصلاة والسلام يرفع يده إلى السماء ثم يضعها على أسامة فعرف أنه كان يدعو له وهذا دليل على عمل المحبة بين النبي وبين أسامة بن زيد ولكن هل عمق المحبة

هو السبب في أن يسند الرسول عليه الصلاة والسلام إلى أسامة بن زيد قيام جيش يضم فطاحل الصحابة وهو لم يتجاوز العشرين؟ والحقيقة أن الدرس الأبلغ الذي أراد النبي عليه الصلاة والسلام قوله بهذا القرار هو أنه لا شيء اسمه فارق السن أو الولاية بكبر السن وإنما الولاية بالكفاءة. لما توفي الرسول عليه الصلاة والسلام وتمت البيعة لأبي بكر الصديق أمر بإنفاذ قيادة الجيش لأسامة بن زيد لكن مجموعة من الأنصار ارتأت إنه لا يمكن تسيير الجيش لأن الأمور في حاجة إلى أن تنضبط وتستقر فانتدبوا عمر بن الخطاب ليحدث أبي بكر الصديق في هذا الأمر لكن أبا بكر الصديق أصر على إرسال الجيش فطلب الصحابة من عمر بن الخطاب "أبلغه عنا يا عمر أن نولي أمرنا رجلاً أقدم سناً من أسامة" أي إذا كان أبو بكر مصرًا على إرسال الجيش فليعين رجلاً آخر أقدم سناً من أسامة على قيادة الجيش وما إن سمع الصديق من عمر بن الخطاب رسالة الأنصار حتى وثب وأخذ بلحية الفاروق وقال له "ثكلتك أمك وعدمتك يا ابن الخطاب استعمله رسول الله ﷺ وتأمرني أن أنزعه والله لا يكون" وهو ما يكشف نموذج أبي بكر الصديق في القيادة من

أتباع النبي عليه الصلاة والسلام في كل شيء وعندما رجع عمر بن الخطاب إلى الأنصار قال لهم "ثكلتكم أمهاتكم لقد لقيت ما لقيت في سبيلكم من خليفة رسول الله" أي أن عمر بن الخطاب نفسه قد ندم على ما طلبه، وانطلق الجيش بقيادة قائده الشاب أسامة بن زيد. كان أسامة أسمر البشرة، دقيق الملامح والجسم، وغض السن. انطلق أسامة بن زيد لقيادة الجيش على فرسه وخليفة رسول الله أبو بكر الصديق يمشي إلى جواره فقال أسامة "يا خليفة رسول الله والله لتركبن أو لأنزلن" فقال الصديق "والله لا تنزل والله لا أركب وما عليَّ ألا أن أغبر قدمي في سبيل الله ساعة" ثم قال لأسامة "أستودع الله دينك وأمانتك وخواتيم عملك وأوصيك بإنقاذ ما أمرك به رسول الله ﷺ" ثم طلب الصديق من أسامة "إن رأيت أن تعينني بعمر فأذن له بالبقاء معي" كان أبو بكر الصديق يستأذن أسامة بن زيد. خليفة رسول الله يستأذن في أن يبقى أسامة بن زيد القائد الشاب عمر بن الخطاب معه فهو يشير عليه ويتعامل معه ويأخذ برأيه فهو قرينه فإذن أسامة لعمر بن الخطاب بالبقاء. كما تقول كتب التاريخ نفذ أسامة بن زيد كل ما أمره به رسول الله. كان المفترض

والمطلوب من ذلك الجيش أن يكون استعراضًا للعضلات وإلقاء الرعب والفزع في قلوب جيش الروم فلا يفكروا في الإغارة على المسلمين وحربهم وقيل إن أسامة بن زيد فعل ذلك على خير وجه وكان يقود الجيش على صهوة الجواد الذي استشهد عليه أبيه.

وتقول الروايات إن هذا الجيش بقيادة أسامة بن زيد ظل من ٤٠ ـ ٧٠ يومًا في هذه الغارات على جيش الروم ولم يحمل هذا الجيش اسم معركة أو غزوة ولكنه أدى ما عليه إلا أن اسم أسامة بن زيد اختفى من جميع المعارك التالية ولم تذكر الروايات اسمه في أي موقعة تالية في تاريخ الإسلام لا في الفتوحات ولا في الغزوات كما أن أبا بكر الصديق وعمر بن الخطاب بل وعثمان بن عفان لم يكلفوا أسامة بن زيد بأي قيادة لأي جيش فالمفترض أن أسامة بن زيد كقائد عينه النبي عليه الصلاة والسلام وأقره أبو بكر الصديق وكان قائدًا للجيش وعمره عشرين عامًا أن يكون بعد ذلك في مثل قامة خالد بن الوليد لكن ما حدث هو النقيض تمامًا حيث لم يشهد له التاريخ أي دور عسكري على الإطلاق فيما بعد لا كقائد أو مشارك. وظل أسامة بن زيد ما امتدت به الحياة

موقع إجلال المسلمين وحبهم وفاء لرسول الله عليه الصـــلاة والسلام وإجلالاً لشخصه لدرجة أن عمر بن الخطاب كـــان يمنحه عطاءً من بيت المال أكبر من الذي يعطيه لابنه عبـــد الله بن عمر بن الخطاب.

فقال عبد الله بن عمر لأبيه "فرضت لأسامة بـــن زيـــد أربعة آلاف وفرضت لي ثلاثة وما كان لأبيه مـــن الفضـــل أكثر مما كان لك وليس له من الفضل أكثر مما كان لي "فرد عليه الخطاب" هيهات. إن أباه كان أحب إلى رسول الله مـــن أبيك وكان هو أحب إلى رسول الله منك ورضي عبد الله بن عمر بهذه القسمة وعندما كان عمر بن الخطاب يقابل أسامة بن زيد في الطريق كان يقول له: "أهلاً بأميري" على اعتبار أن النبي عليه الصلاة والسلام ولى أسامة بـــن زيـــد إمـــارة الجيش على عمر بن الخطاب ورغم ذلك فالمدهش هو غياب أسامة بن زيد عن الساحة العسكرية بعد عودته بجيش أمـــره عليه ﷺ فلم يكن قائدًا لجيش بعده ولا فارسًا في موقعه ولـــم يتم ذكره في أي حرب أو فتح وهو شيء محير خاصة مـــع غيابه عن ولاية أي بلد من البلدان المفتوحة ولم نعثر عليـــه في أي حدث كبير في تاريخ الإســـلام أو الفـــتح الإســـلامي

والشيء الوحيد الذي يذكر فيه اسم أسامة بن زيد بعد عودته من قيادة الجيش أنه اعتزل الفتنة وهو التعبير الذي تعتمده كتب التاريخ للحديث عن الحرب الأهلية التي دارت بين علي بن أبي طالب من جهة والسيدة عائشة وطلحة الخير والزبير بن العوام من جهة ثم الحرب بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان. وتعبير (اعتزل الفتنة) يعني أنه لم ينتمي لأي من المعسكرين لا إلى علي بن أبي طالب ولا إلى خصومه وعاش أسامة بن زيد حتى فترة معاوية بن أبي سفيان ورغم أن التاريخ لم يذكر لأسامة أي دور عسكري بعد عودته من قيادة الجيش إلا أن التاريخ سيظل يذكر أنه كان حب رسول الله.

عدالة عمر بن الخطاب

التوقف عند التاريخ الخاص بالفترة العمرية.. فترة عمر ابن الخطاب وما قدمه من أمثلة ونمــاذج وقــوانين عمريــة رائعة في العدل والعدالة، هذا التوقف يستدعي دائمًا ولا شك عن تواضعه وعدله وحرية من حوله فــي القــول والفعــل والمناقشة والمحاورة والمناظرة والاختلاف معه. الاخــتلاف البين العميق والجذري أحيانًا، لكن العدل يساوي عند عمــر ابن الخطاب الحرية ولنتوقف قليلاً عند رواية عن عروة قال "أتيت عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما وقلت له يا أبا عبد الرحمن ــ وهو لقب عبد الله بن عمر ــ أنا نجلس إلى أئمتنا هؤلاء فيتكلمون بالكلام ونحن نعلم أن الحق غيره فنصدقهم ويقضون بالزور فنحسنه لهم فكيف ترى ذلك؟ فقال عبد الله بن عمر: يا أخي كنا مع رسول الله ﷺ نعد هذا نفاقًا فما أدري ما هو عندكم؟" وعن جاهل أن رجلاً قدم على ابن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما "كيف أنتم وواليكم أبــي فقال: نحن وهو إذا لقيناه قلنا له ما نحب وإذا ولينا عنه قلنــا غير ذلك فقال عبد الله بن عمر بن الخطاب: ذلك ما كنا نعده ونحن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم نفاقًا" وعن حذيفــة

ﷺ أن عمر بن الخطاب قال: "إياكم ومواطن الفتن فقيل لـــه وما مواطن الفتن يا أبا عبد الله فقال: أبواب الأمراء يــدخل أحدكم على الأمير فيصدقه بالكذب ويقول ما ليس فيه" كــل هذه الروايات تكشف الوضوح البين القوي الحاضر الصارخ. هذا الكلام الذي يقوله ويؤكده عبد الله بن عمر بن الخطــاب هو واحد من المدرسة العمرية فــي فهــم العــدل والعدالــة والعلاقة بالسلطة والسلطات والولاة والخلفاء وهــذه الفتــرة كانت درس واضح في عصر ما بعد الرسول عليه الصــلاة والسلام عن الحسن أن عمر بن الخطاب (علي بن أبي كعب رضي الله عنهما) في قراءة آية فقال بن أبــي كعــب: لقــد سمعتهما من الرسول عليه الصلاة والسلام هكذا وأنت يلهك يا عمر بيع بالبقيع فقال عمر ﷺ: صــدقت إنمــا أردت أن أجبركم هل منكم من يقول الحق؟ فلا خير في أمير لا يقــال عنده الحق ولا يقوله "هذا هو الدرس الفتح أن يقــول شــيء غير صادق فإذا وافقه من حوله وإذا أيده من معه وإذا مشى وراءه في غير حق بل وفي أمر يخالف الحــق والحقيقــة. لأدرك ساعتها عمر بن الخطاب أن هناك خطرًا؛ لأن مــن حوله لا يقولون الحق فقال: "لا خير في أمير لا يقال عنــده

الحق ولا يقوله". عن النعمان بن البشير أن عمر بن الخطاب ﷺ قال في مجلس وحوله المهاجرون والأنصار: "أرأيتم لو ترخصت في بعض الأمور ما كنتم فاعلين؟" أي إذا تهاونت في بعض الأمور أو لو أنا خالفت أو هو يحاكمني ماذا كنتم تفعلون؟ كان عمر بن الخطاب ﷺ يود بهذا السؤال أن يقدم اختبارًا حقيقيًا لمن حوله من المهاجرين والأنصار. كان يريد أن يعرف مدى غواية الحاكم لهم ومدى قدرتهم على مقاومة الرغبة في محالفة السلطان، وفي تمجيد ونفاق الخليفة وفي موائمة الموقف مع الأمير فقال لهم هذا السؤال فصمتوا فكرره عمر مرتين وثلاثة فقال بشير بن سعد: "لو فعلت ذلك قومناك تقويم السهم" فقال عمر بن الخطاب "أنتم إذًا". وعن موسى بن أبي قال: "أتى عمر بن الخطاب ﷺ لشخص من بني حارث فوجد محمد بن مسلمة فقال عمر بن الخطاب: كيف تراني يا محمد؟ فرد عليه محمد بن مسلمة: أراك والله كما أحب وكما أحب لك الخير. أراك قويًا على جمع الأموال عفيفًا عنها عدلاً في قسمة الأموال ولو ملت لعدلناك كما يعدل السهم في الثقاب، فقال عمر بن الخطاب ﷺ: الحمد لله الذي جعلني في قوم إذا أملت عدلوني وقوموني" لاحظ أن

عمر بن الخطاب أمير المؤمنين والخليفة يسأل مواطنًا عاديًا وصحابيًا جليلاً عن رأيه فيه، فكان عمر بن الخطاب يبحث عن الرد الرادع.. يبحث عن الحق الكامل.. يبحث عن الصراحة والمواجهة والوضوح.. يبحث عن النقد.. يبحث عن الحق. عندما كان عمر بن الخطاب يرسل عماله إلى الأمصار كان يملي عليهم شروطه وهي "لا تركبوا دابة أو حصانًا حتى لا تعلوا على الناس. ولا تأكلوا نقيًا ولا تلبسوا رقيقًا ولا تغلقوا أبوابكم دون حوائج الناس فإن فعلتم شيئًا من ذلك فقد حلت بكم العقوبة ثم يشيعهم فإذا أراد أن يراجعهم فكان يستدعي أحدهم ويقول لهم: "إني لم أسلطكم على دماء المسلمين ولا على أبشراهم ولا على أموالهم ولا على أعراضهم ولكني بعثتكم لتقيموا فيهم الصلاة وتقسموا فيهم فيئهم فاحكموا بينهم بالعدل فإذا أشكل عليكم شيء فعودوا إليَّ وإلا فلا تضربوا العرب فتذلوها ولا تفتنوا ولا تعتلوا عليهم" والمقصود بأمر عمر بن الخطاب "لا تأكلوا نقيًا" أي الغالي المرفه من الطعام" ولا تلبسوا رقيقًا" أي الغالي الفخيم. كان عمر حريصًا على ألا يعتلي ولاته فوق الناس أي يعتبر الوالي نفسه سيد أعلى الرعية ولا يعتبر

نفسه فوقهم راكبًا حتى دابة والأمر الثاني ألا يغلق بابه دونهم والأمر الثالث "ألا يذل" بمعنى ألا يجير أحدًا عنفًا.. قوة.. قهرًا.. قسرًا بالمال، هذه هي القوانين العمرية في العدل السياسي.. أرسل عمل بن الخطاب ﷺ إلى سعيد بن عامر فقال: أنا مستعملوك على هؤلاء ــ جماعة من الناس ــ فتسير بهم إلى أرض العدو فتجاهد بهم وكان سعيد بن عامر يخشى الإمارة والولاية. يخشى هذا الامتحان والاختبار، ولا يريد أن يكون أميرًا على أحد فيحاسب عند الله وعند عمر بن الخطاب وعند المسلمين على أنه أمير فقال سعيد: "يا عمر لا تفتني" فقال عمر بن الخطاب ﷺ: "والله لا أدعكم تجعلوها في عنقي ثم تخلوا عني إنما أرسلك على قوم لست بأفضلهم ولست أبعثك لتضرب أبشارهم إنما أرسلك كي تجاهد بهم عن الوغى ــ الأعداء ــ وتقسم بينهم فيئهم".

هذا هو الوضوح العمري في التعامل مع الإمارة، فالأمير ليس أفضل من الرعية والهدف من إرساله ليس أن ينتهك أعراضهم أو يأكل أموالهم. أرسل عمرو بن العاص ــ وكان والي مصر وقتها ــ إلى عمر بن الخطاب يقول له: "أنا قد خططنا لك عند السجد الجامع بيتًا" فكتب إليه عمر بن

الخطاب: "أنى لرجل من الحجاز تكون له دار بمصر". كان عمرو بن العاص كوالي وأمير من تمكن يريد بطموحه السياسي أن يبني مقرًا لخليفة المسلمين عمر بن الخطاب حتى يرضي عنه الخطاب عند زيارته إلى مصر لكن رد عمر الواضح القوي يدل على أنه لا يبحث عن الفخامة والرفاهية والنفوذ. كان لسان حال عمر بن الخطاب يقول للدنيا "غري غيري" كما يقول الصالحون للدنيا ونفاقها وغوايتها وإغرائها، وطلب عمر بن الخطاب من عمرو بن العاص أن يجعل هذه الدار سوقًا للمسلمين. وكان عمر بن الخطاب قد كتب رسالة واضحة من خليفة المسلمين إلى عمرو بن العاص عند علمه باتخاذ عمرو بن العاص منبرًا فكتب إليه بن الخطاب يقول: "أما بعد فإنه بلغني أنك اتخذت منبرًا ترقى به على رقاب الناس ألا يكفيك ويرضك أن تكون قائمًا والمسلمين عند عقبيك. " كان عمرو بن العاص واليًا على مصر ــ أي خليفة فرعون ــ ويعرف كيف يتعامل المصريون مع ولاتهم وحكامهم وفراعينهم فصنع المنبر لكي يكون له الهيبة والمهابة أمام المصريين لكن عمر بن الخطاب لم يوافقه وقال له "آمرك بكسره فورًا" وعندما علم

عمر بن الخطاب ﷺ أن الوليد بن عتبة عامله في أذربيجان يختط قصرًا من أموال المسلمين أرسل إليه يقول له: "يا عتبة ليس من كدك ولا من كد أبيك ولا من كد أمك فأشبع المسلمين في رحالهم مما تشبع منه في رحالك وإياكم والتنعم وزي أهل الشرك ولبوس الحرير". كان عمر بن الخطاب ﷺ يريد إقرار مبدأ السواسية والعدالة المطلقة فلا ينبغي لحاكم أن يميز نفسه بشيء دون سائر المسلمين. لم يكن يريد المظاهر التي تجعل من الحكم المسلم حاكمًا على الناس وإنما كان يريده حاكمًا مع الناس. وكان عمر بن الخطاب ﷺ يلتقي بالناس مرة فمر به أهل حمص فقال لهم: "كيف أميركم؟" فقالوا: "خير أمير إلا أنه بنى بناية ــ المقصود بها غرفة عالية ــ يكون فيها" فكتب عمر بن الخطاب كتابًا وأرسل مندوبه أن يحرق الغرفة فلما جاءها مندوب عمر بن الخطاب جمع حطبًا وحرق بابها وأحضر الأمير إلى المدينة فأخذ عمر الوالي لمنطقة إبل الصدقة وقال له انزع ثيابك ثم ألقى إليه ثوبًا من أوبار الإبل وأمره أن يسقي الإبل فأخذ الأمير بسقيها حتى تعب. وكان عمر يقصد من ذلك كسر حالة الغرور والإحساس بالتعالي وأنه يبتني مكانًا مرتفعًا فلا رفعة

وارتفاع على المسكين والأرملة وبعد هذا الــدرس القاســي في العدل والسواسية قال عمر بن الخطاب: "ارجع إلى عملك فلا تظلم" بلغ عمر بن الخطاب ﷺ أن سعد بن أبي وقــاص واليًا على الكوفة وهي كما يحكي التاريخ عن أهلهــا (أهــل النفاق والشقاق) لذلك كان هناك صخب وضجة فقرر سعد بن أبي وقاص أن يجعل بابًا يمنع عنه صخب الناس وضجيجهم فأرسل عمر بن الخطاب محمد بن مسلمة رضي الله عنهمــا وقال له "أتي سعد وأحرق عليه بابه" فذهب محمد بن مسلمة إلى الكوفة فأحرق الباب بأوامر من عمر بن الخطاب لأنــه لا ينبغي أن يكون لحاكم قصر أو باب بينه وبين الرعية وهذا هو عمر بن الخطاب.

عمرو بن العاص

ظل عمرو بن العاص واليًا لمصر لمدة خمس سنوات أثناء ولاية عمر بن الخطاب يتولى خراج مصر والضرائب والأحوال التي تخرج من مصر وتصل لبيت مال المسلمين وبيت المال أو وزارة المالية اختراع سيدنا عمر بن الخطاب فهو الذي أوجد هذه القيمة الإسلامية الرفيعة بأن يصبح هناك مال الأمة وخزانة لهذا المال ورعاية له ـ ووارد وصادر "قيمة المال" لاحظوا أننا نتكلم عن مجتمع انتقل من حالة الجزيرة العربية وصراع مع قبائل وعشائر وطوائف إلى مجتمع إسلامي أوسع يمتد وتمدد.. انتشر وتطور وتغير الواقع الإسلامي في حجاز وجزيرة إلى عراق، شام، فارس، مصر فالموضوع احتد وأصبح هناك ثروة إسلامية هائلة قادمة إلى بيت مال المسلمين، وهذه الثروة في حاجة إلى عقلية عادلة منصفة قادرة على توزيعها بالطريقة الصحيحة السليمة، وهذه هي اللحظة التاريخية الجبارة التي لو كان حدث أي خلل في المال العام أو توزيع الثروة، كان يمكن لهذا البناء الإسلامي الكبير الذي انتقل في الدين إلى الحضارة فهو دين بعقيدته وعباداته، ومعاملاته كتابه العظيم المنزل

"القرآن الكريم" بهداية نبيه وأحاديثه النبوية الشريفة فهذا هو العامود الفقري والعصب والمخ. أما الوعـاء أو المحتـوى اختلف وكبر عندما اتصل بالبلاد والحضارات الأخرى فـي فارس والشام ومصر.

أصبح هناك في تاريخنا الحضارة الإسلامية التي لم تكن لتقف صامدة شامخة إلا إذا كان هناك حالة عدل واضح قوي صارم حازم حاسم وهو عدل عمر بن الخطاب.

وهو ما حدث خلال فترة عشر سنوات أو أكثر ــ فترة تولي عمر الخلافة ــ والتي كانت مع الفتـوح ودر المـال والجباية كان لا بد أن يكون هناك أحد على رأس هذه الأمـة بهذا الوعي وبهذه القدرة على العدل والمحاسـبة الصـارمة للصحابة والولاة وعمر بن الخطاب هو الذي وضع عمـرو بن العاص خمس سنوات كاملة على ولايـة مصـر وكـان عمرو بن العاص يعتبر ذلك وسام شرف وتقديرًا بالغًا عظيمًا من أعدل الصحابة وأهـم نمـوذج للعدالـة فـي تاريخنـا الإسلامي.

عندما تولى عثمان بن عفان الخلافة ذهب عمرو بن العاص إليه في المدينة ليبايعه ويعرض عليه شئون ولايته ويتلقى أوامره فيها.

لكن كان أكبرهم لعمرو بن العاص أن يسأل الخليفة الجديد قرارًا واحدًا وحيدًا وهو عزل عبد الله بن سعد من ولاية الصعيد. لماذا عبد الله بن سعد؟ لأنه منافس قوي جسور لا يطيقه زعيم مثل عمرو بن العاص لأنه في الغالب من الشخصيات التي تتولى مثل هذا المنصب. وهذه المكانة في حاجة إلى شخص يتوافق ويتبع. عندما يكون صحابي عظيم جليل وداهية من داهيات العرب في السياسة مثل عمرو بن العاص لا يحتاج من يناكفه كما أنه كان يعرف بقوة أن عبد الله بن سعد، ينتمي بقرابة إلى الخليفة عثمان بن عفان. فذهب عمرو بن العاص إلى الخليفة الجديد يسبق الأحداث ويطلب منه عزل عبد الله بن سعد والحقيقة أن تقدير عمرو بن العاص للأمور في تلك اللحظة لم يكن دقيقًا أو على عهده من الذكاء والفطنة فرفض عثمان بن عفان الفكرة وأخبره أن عبد الله بن سعد سيكون مسئولاً عن الخراج حتى أن عمرو بن العاص له مقولة شهيرة هي "في

هذه الحالة وأنا أتولى مصر كمن يأخذ البقرة بقرنيها ليحلبها غيره".

وتعذر التوفيق بين المتنافسين فانتهى الخلاف بإقالة عمرو بن العاص وإقامة عبد الله بن سعد على ولاية مصر وخراجها وهذا المشهد يحكي ويبين لنا أنه يمكن لهذا الخلاف أن يكون. فالموضوع ليس أن شخصيات الصحابة لا تختلف أو تتناقض أو تتحاور أو تتصارع حتى ولكن وفق قانون إنساني وإلهي ونبوي وهو العدل.

ويتضح لنا من هذا المشهد أيضًا أن ولاية عمرو بن العاص لمصر كانت شيئًا عزيزًا على نفسه جدًا وهو متمكن منها تمامًا ويحب هذا الوطن وقادر على قيادته وفي نفس الوقت هو شخصية ذاتية تاريخية. وكان عثمان بن عفان. كما قيل في كتب التاريخ يخشى كثيرًا من طموح عمرو بن العاص. الأمر الذي جعله يصل سريعًا إلى هذا القرار وهو أن يولي أخيه في الرضاعة عبد الله بن سعد ولاية مصر تامة متممة والحقيقة أن هذا القرار لم يكن سهلاً على عمرو بن العاص ولم يكن هو هذه الشخصية التي تصمت على هذا القرار. عمرو بن العاص لم يصمت بل قاد حربًا نفسية

برعاية حقيقية سوداء ضد الخليفة عثمان بن عفـــان. ســـواء وعمرو بن العاص من منفاه الاختياري في فلسطين حيث لم يظل عمرو بن العاص في مصر بعد عزله ولم يذهب إلـــى المدينة حيث عثمان بن عفان وآثر أن يبقى في منطقة وسطى بين الجزيرة العربية ومصر وكان يزور المدينة على فترات وكان دائم الإشارة إلى سلبيات حكم عثمان بن عفان لدرجـــة أنه وشى به لدى الخليفة عثمان بن عفـــان واشٍ، فاســـتدعاه عثمان وقيل في كتب التاريخ أنه أغلظ له في القول ــ وتقول الروايات التاريخية أغلظ في شتمه ولكننـــي أريـــد تخفيـــف التعبير ــ وراح يؤنبه ويقول له "يا ابن النابغة أتطعن علـــيَّ وتأتين بوجه وتذهب عليَّ بوجه آخر" وبالطبع تنصل عمرو بن العاص وقال له "إن كثيرًا مما يقول الناس وينقـــل إلـــى ولاتهم باطل فاتقِ الله يا أمير المؤمنين".

عمرو بن العاص في هذه المقولة يقر قانونـاً إنسانيًا وهو أنه ليس كل ما يقال للولاة حقيقيًا، طبعًا هو والي وأمير وظل خمس سنوات في مصر ويعرف ذلك لكنه لا يكتـــف بهـــذا القول ويضيف "اتقِ الله يا أمير المؤمنين" هل يمكن أن يعتبر هذا الحوار خشن؟ لكنني على النقيض أعتبره حوارًا راقيًـــا

حضاريًا وحرًا جدًا ــ فعمرو بن العاص بدون منصب أو إمارة.. مجرد مواطن يواجه الخليفة ويقول له "اتق الله يا أمير المؤمنين" فرد عليه الخليفة عثمان بن عفان "استعملتك على ظلمك وكثرة القالة فيك" فقال عمرو بن العاص "لقد كنت عاملاً لعمر بن الخطاب فارقني وهو عني راضٍ".

فقال له عثمان بن عفان "لو أخذتك بما أخذك به عمر لاستقمت لكنني لنت عليك فاجترأت".

فرد عليه عمرو بن العاص "أنه تجاوز حدوده أو ألزم حدودك أو ما شبه هذا التعبير وانتهت هذه المجادلة وهذا الحوار إلى رائحة خصومة وعداوة.

كانت كلما تدرجت الفتنة. وتعبير الفتنة استخدم للحديث عن أشهر حرب أهلية في التاريخ الإسلامي والتي كانت علامة تغير وتبدل في المزاج والعقلية والحكم الإسلامي. كان عثمان بن عفان كعهد أمراء وخلفاء المؤمنين في ذلك الوقت كان مجتمعًا في المسجد بالعوام عندما سأل عثمان بن عفان عمرو بن العاص في لحظة من اللحظات التاريخية المهمة ماذا يفعل أمام جمع من مجلس الشورى عن رأيه في هذه الفتنة: ماذا يفعل؟ فرد عمرو بن العاص الذكي

الفطن وهو في نفس الوقت الذي انتزع منه عثمان بن عفان ولاية مصر ــ وهذا لم يكن شيئًا هينًا عليه ــ "لقــد ركبــت الناس بني أمية فقلت وقالوا وزدت وزادوا فاعتزل أو اعتدل" لاحظ معي أن تعبيرات عمرو بن العاص قوية وهو يقــول ذلك لخليفة المؤمنين في مشهد من الناس وهو ما قد يعتبــره البعض اجتراء ولكنني أعتبرها جرأة مبالغ في قسوتها مــن عمرو بن العاص كما لو أنه يحاسب أمير المــؤمنين وكــان عمرو بن العاص يدرك لحظتها أنه مشكوك ومطعــون فــي شهادته أو رأيه باعتباره شخصًا من الشخصيات التي عزلها عثمان بن عفان.. يعني أنه يقول هــذا الكــلام لأن عثمــان عزله. لكن عمرو بن العاص أذكى مما تظن وأكثر فطنة مما نعتقد وأكثر حيطة واحتياط للأمر مما يدرك أي منا لأنه بعد أن انفض هذا الجمع أو مجلس الشورى اقترب عمــرو بــن العاص من الخليفة عثمان بن عفان واعتذر له وقال له: "والله يا أمير المؤمنين لأنت أكرم عليَّ من ذلك وإنني قد علمــت أنه من بني قومك قد علموا أنك قد جمعتنــا لنشــير عليــك فأحببت أن أبلغهم قولي فأقول لك خيرًا وأدفع عنــك شــرًا، "لا شك في ذكاء هذا الرجل وكان يقول مثل هــذا وأشــابهه

في دولة عثمان بن عفان" بمعنى أنه بالرغم من أن أمله كان يضعف يومًا بعد يوم في الحصول على إمارة مصر مرة أخرى أو أنه يصبح ذا شأن ونفوذ سياسي في وقت دولة عثمان بن عفان، فكان دائم المراوحة في هذا الكلام وأحياناً يشتد ويغلظ قوله ويهاجم عثمان بن عفان وسياسته القائمة على تقريب أبناء أسرته ــ كما تقول كتب التاريخ ــ فكرة أن الأقارب والأهل هم الولاة والحكام ويقصد أن الولاة والخلفاء الذين عينهم عثمان بن عفان على سائر الأمصار والأقطار الإسلامية أكثر من ٩٠ % منهم من عمومته وأبناء أسرته وعشيرته. ليس هذا فقط لكنه كان يتركهم ينتهجون سياسات مالية تثير غضب الناس ثم أنهم بلغوا في مرحلة ما من الفخامة والرفاهية المتناقضة تمامًا مع عدل دولة عمر بن الخطاب، وهذا ما أثار الناس ضد ولاة عثمان ثم أثار الناس ضد عثمان بن عفان نفسه وهو الخليفة العظيم لأنه سكت على ما يفعله بني أمية وولاته ولم يشأ عزلهم لدرجة أن عمرو بن العاص وقف في المسجد وقال له "اتقِ الله يا عثمان فتب إلى الله ونتب معك" هذه المقولة التي قالها عمرو بن العاص في المسجد مقر الخلافة وأمام جمع من الناس

دليل على الحرية والاحترام الشديد للرأي والاختلاف، ثم انتهى الأمر للثورة التي اغتيل فيها عثمان بن عفان. وفي ذلك المشهد كان عمرو بن العاص وزير إعلام في مواجهة عثمان بن عفان كان صاحب بيانات في مواجهته على طريقة المنشورات السياسية الآن. فهو من الذين أثاروا الغضب على سياسة عثمان بن عفان. وكان من المنطقي تاريخيًا أنه ما دامت لم تعجبه سياسة عثمان بن عفان أن تعجبه سياسة علي بن أبي طالب رمز العدل والعدالة، لكن عمرو بن العاص لم ينصره. لماذا؟ يرجع ذلك أن بحث عمرو بن العاص كله في تاريخه كان بحثًا عن مصر وولايته مصر. فعمرو بن العاص لم ينتصر لعثمان بن عفان بل عاداه كما لم ينتصر لعلي بن أبي طالب بل ترقب وانتظر حتى يرى المشهد. نعرف أنه كان لسيدنا علي بن أبي طالب خصمان هما طلحة والزبير ثم بعدها الخصم الأكبر وهو معاوية بن أبي سفيان. فعندما شهد عمرو بن العاص هذا المشهد: علي بن أبي طالب ضد معاوية بن أبي سفيان، وجب عليه أن يختار طريقًا من الطريقين لأنه إذا آثر الاعتزال فلن يتركه الفريقان في عزلته. لماذا؟ لأنه عمرو

بن العاص. لا سكت أبدًا فإذا سكت وابتعد سيثير القلق ومن ثم كان لا بد أن يكون رأيه واضحًا. فجمع عمرو بن العاص ولديه محمد وعبد الله وسألهما "ماذا أفعل؟ قتل عثمان والأمر أمام علي ومعاوية.. فماذا أصنع؟. فأجابه ابنه عبد الله "قتل الخليفة عثمان بن عفان وأنت عنه غائب فاجلس في منزلك فلست مجعولاً خليفة ولا تريد أن تكون حاشية لمعاوية على دنيا قليلة زائلة". أما ابنه محمد فأشار عليه بأنه "شيخ قريش وصاحب أمرها وأن حسم هذا الأمر وأنت فيه حامل، صغر أمرك، فالحق بجماعة أهل الشام مع معاوية فكن يدًا من أيديهم". فرد عمرو بن العاص "أما أنت يا عبد الله فأمرتني بما هو خير لي في ديني وأما أنت يا محمد فأمرتني بما هو خير لي في دنياي وأنا ناظر فيه" وروي أن عمرو بن العاص استغرق فترة من التفكير وقال لصحبته ومستشاريه "أني إن أتيت عليّا قال إنما أنت رجل من المسلمين فلم يكن لدى سيدنا علي بن أبي طالب مثل هذه الخيارات والفواصل وليس عنده ما هو ذو مكانة وامتياز فالكل عنده سواسية كأسنان المشط. وهذا عدل عليّ.. تقوى عليّ.. ونبل عليّ.. رفعة عليّ.. دين عليّ.. وإن أتيت معاوية يخلطني بنفسه

ويشركني في أمره". يعني أصبح صاحب مكانة ونفوذ وسلطان مع معاوية. فكان ما كان وانضم عمرو بن العاص إلى معاوية بن أبي سفيان وكان ما عرفناه بعد ذلك من مواقف كان فيها من التحكيم وصاحب الدور الأول في تولية معاوية الذي يطالب بدم عثمان بن عفان بينما عمرو بن العاص كان ضد عثمان بن عفان ومن الذين قادوا الثورة ضده ــ سبحان الله ــ أيضًا عندما نرى المشهد التاريخي العظيم الذي يحكيه الصحابي الجليل عبادة بن الصامت وهو من الزهاد العظام والصحابة الأجلاء قال إنهما قدم عليهما ــ عمرو بن العاص ومعاوية بن أبي سفيان ــ وهما بالشام فجلس بينهما فسألهما أتدريان لم جلست بينكما في مكانكما فردا عليه: نعم لفضلك وسابقتك وشرفك. فقال لا والله وما كنت لأجلس بينكما في مكانكما لذلك ولكن بينما نحن نسير مع رسول الله ﷺ إذ نظرا إليكما تسيران وأنتما تتحدثان فالتفت إلينا فقال: إذا رأيتموهما اجتمعا ففرقوا بينهما فإنهما لا يجتمعان على خير أبدًا "قد يكون هذا الحديث موضع شك لكن التاريخ لا يشك فيه أبدًا.

علاء الحضرمي

في السنة الثامنة لهجرة الرسول ﷺ، أرسل علاء الحضرمي إلى البحرين. وهو أحد الصحابة الذي توقفت كتب التاريخ كثير عند سيرته. لأنها سيرة تفتح كثيرًا من الدهشة وتفتح أبوابًا من الحق. كان العلاء الحضرمي مبعوث النبي عليه الصلاة والسلام إلى البحرين لدعوة ملك البحرين في ذلك الوقت ــ المنذر ــ إلى الإسلام. والحقيقة أنه إذا كان المصريون مدينون لعمرو بن العاص بدخول الإسلام، إلى مصر فإن أهل البحرين أو بالأحرى أهل الخليج مدينون للعلاء الحضرمي، بدخول الإسلام فقد استجاب المنذر ملك البحرين وشعبه إلى دعوة الرسول لهدايتهم على يد العلاء الحضرمي فأسلموا جميعًا وأسلم معه جميع العرب وبعض العجم في منطقة الخليج حتى أهل الخليج من اليهود والمجوس والمسيحيين صالحوا العلاء الحضرمي على الجزية وكتب بينهم كتابًا يقول في نصه: "هذا ما صالح عليه العلاء الحضرمي أهل البحرين. صالحهم على أن يتقنون العمل ويقتسمون الثمار فمن لا يبغي بهذا عليه لعنة من الله والملائكة والناس أجمعين "فجاءت البحرين إلى الإسلام من

دون قتال وأرسل العلاء إلى الرسول عليه الصلاة والسلام في حياته ثمانين ألف درهم جزية البحرين، لكن بعد أن توفي النبي عليه الصلاة والسلام بأيام وتصل في بعض الروايات إلى أسابيع. مات المنذر ملك البحرين وملكوا عليهم ابنه وكان شابًا مغرورًا فقال قولته التي ربما فتحت باب حروب الردة، هي: "لو أن محمدًا نبيًا ما مات" وأصبحت البحرين مركز إشعاع الردة ولم يبق بالبحرين ارتدوا عدا بلدة واحدة هي أول قرية أقامت صلاة الجمعة من أهل الردة وحاصر المرتدون أهل هذه القرية وضيقوا عليهم الخناق ومنعوا عنهم الأقوات فجاعوا جوعًا شديدًا حتى أنقذهم الله على يد العلاء الحضرمي، وكان ما حدث امتحانًا عظيمًا لأهل البحرين وللإسلام ولعلاء الحضرمي نفسه الذي دخل على يديه أهل البحرين إلى الإسلام، فأمر أبو بكر الصديق العلاء الحضرمي أن يسير بجيشه إلى أرض البحرين ليعيدها إلى الإسلام حربًا بعد أن كان قد أدخلهم فيه سلمًا. عندما وصل العلاء الحضرمي إلى البحرين جاء إليه أن آثام وهو زعيم قبيلة كبيرة تعيش ما قبل البحرين فانضموا إلى العلاء الحضرمي فأكرمهم ورحب بهم وأحسن إليهم. وكان العلاء

الحضرمي من سادة الصحابة ومن العلماء مجابي الدعوة. وفي هذه الغزوة نزل العلاء الحضرمي بجيشه إلى مكان قبل البحرين وما إن نزل المعسكر حتى نفرت الإبل ـ كأنها أصيبت بلوثة ـ بما عليها من خيام الجيش وشرابهم وزادهم وأسلحتهم فأخذوا يطاردون الإبل ولم يقدروا على إرجاع بعير واحد فبات الجيش على هذه الأرض ليس معهم شيء إلا ثيابهم. وكما تقول كتب التاريخ في بلاغتها: فركب الناس من الهم والغم ما لا يوصف ولا يشرح لدرجة أن البعض أخذ يقول لأصحابه وصيته فنادى منادي العلاء فاجتمع الناس إليه فقال لهم: "أيها الناس ألستم مسلمين؟ ألستم في سبيل الله؟ ألستم أنصار الله؟ "قالوا: "بلى" فقال الحضرمي: "فأبشروا فو الله لا يهزم الله من كان في مثل حالكم هيا إلى صلاة الصبح" ونادى المؤذن إلى صلاة الفجر فصلى الجيش فلما انتهوا من الصلاة جثا العلاء الحضرمي على ركبتيه وجثا الناس ورفع يديه بالدعاء، ففعل الناس مثله ثم بدأ نور النهار في البزوغ ليكشف الكون ويبدد الظلمة والعتمة. ونظروا حولهم فوجودا غديرًا من الماء لم يلتفتوا إليه في ظلمة الليل، وكأنه فجر لهم بمنحة إلهية أو اكتشفوا بدعاء وابتهال إلى الله

فمشى الناس إلى الغدير يشربون ويغتسلون فوجـــدوا الإبـــل عائدة. كل الإبل التي هربت في الليل رجعت ولم يفقد الناس من أمتعتهم شيئًا. عادت الإبل بالسلاح والطعـــام والشـــراب والخيام جميعًا فاستعد الجيش بعد هـــذه المعجـــزة الإلهيـــة العظيمة إلى الحرب لكنهم لم يحاربوا كيف ذلـــك ومعســـكر الأعداء كان موجودًا طوال الليل على بعد أميال منهم يستعد لحرب طاحنة لا قبل لأحد بها؟ وكان جيش المســـلمين بـــلا سلاح فكان من المكن أن ينقض المرتدون علـــيهم ويفنـــوهم لكن ذلك لم يحدث بل ولم يحارب المسلمين أساسًا. ففي الليل التالي للاستعداد للحرب سمع العـــلاء الحضـــرمي أصـــواتًا تنبعث من معسكرات المرتدين فبعث جواسيسه إلى المعسكر حتى يكشفوا لهم خبر المرتدين فرجع جواســـيس وموفـــدين العلاء الحضرمي إليه فقالوا: "وجدناهم سكارى لا يعقلون من الشراب" من الواضح أن خبر فقدان المسلمين لإبلهم وزادهم وأسلحتهم قد وصل إلى المرتدين فشعروا بالعظمـــة وأنهـــم سينتصروا فشربوا حتى فقدوا قـــدرتهم علـــى الـــتحكم فـــي أنفسهم، فقاد علاء الحضرمي جيشه فـــورًا وقضـــى علـــيهم جميعًا لكن هناك الكثير من جيش المرتدين فر وهرب مـــن

هذه الموقعة إلى ساحل البحر وركبوا سفنًا إلى جــزر فــي البحر وما كاد العلاء الحضرمي يصل إلى مكان السفن حتى أصدر أمرًا للجيش اتبعوني وقال: "يا أرحم الراحمين يا حكيم يا كريم يا أحد يا صمد يا حي يا قيوم" ثم دخل إلـــى البحـــر على الحصان وتبعه الجيش وكما تقول كتب التاريخ لم يغرق جيش العلاء الحضرمي فكان كأنه يمشي على مثل رمل فوق ماء وكان الماء لا يصل إلى ركب الخيل وإخفاف الإبل وكان بينه وبين الجزيرة التي قصدتها سفن جيش المرتـــدين يـــوم وليلة، سارها علاء الحضرمي بجيشه في البحر حتى وصل إليهم وانتصر عليهم وعاد بالأنعـــام والأمـــوال ولـــم يفقـــد المسلمون في البحر شيئًا سوى طوق فرس لأحد المســـلمين، فعاد علاء الحضرمي إلى البحر وسار مسافة ليست بالقصيرة داخله حتى وجد طوق الفرس فعاد به إلى البر ووزع الغنائم فكان نصيب الفارس ألفين والرجل ألفًا مـــع كثـــرة أعـــداد الجيش. وكتب العلاء الحضرمي إلى أبي بكر الصديق أعلمه بما حدث. هذه الرواية التي قيلت عن شق جيش الحضـــرمي للبحر إما صنعها خيال مؤمن أو إيمان الخيال أو أنها كانـــت معجزة من معجزات عبد ربـــاني. فهـــي معجـــزة موســـى

الإسلامية فالعلاء طلب من ربه سبحانه وتعالى فاستجاب له الله وتحول البحر إلى طريق معبد سار عليه الجـيش ومـن الممكن أن تكون طبيعة ذلك المكان الجغرافية تسـمح بـذلك لكن الروايات جميعها تجزم بتلـك الواقعـة والإيمـان بهـا وإدراك عظمتها لا يعني الإيمان بالمعجزات وإنما الإيمـان بالإيمان وأن هناك إرادة قـادرة علـى صـنع مـا يشـبع المعجزات. فعودة الإبل كانت استجابة للدعاء أما سير الجيش في البحر فمن الممكن أن يكون نتيجة طبيعية جغرافية للمكان مثل جسر طبيعي بين اليابس والجزيرة. وعندما تولى عمـر بن الخطاب الخلافة قرر توليـة العـلاء الحضـرمي أحـد الأمصار فرفض الحضرمي إلا أن عمر بـن الخطـاب ﷺ تمسك به وفي طريق ذهابه إلى تلـك البلـد مـات عـلاء الحضرمي. يقول أبو هريرة إنه رأى ثلاثة أشياء من العلاء الحضرمي تجعله يحبه أبدًا: "أولها وجدته يسير على البحـر وكأنه قد صنع من تحت مائه رملاً ونبع من تحت رمله الماء فظهر من مائه الرمل. أما الواقعة الثانية فهي سقوط بعـض المتاع في البحر فرجع العلاء الحضرمي وأحضـرها. أمـا الثالثة فإنه لما مات الحضرمي كان أبو هريرة يرافقه وكانوا

على غير ماء ــ أي لا يوجد معهم ماء لغسله ــ فأرسل الله لنا سحابًا فأمطرت فغسلناه وحفرنا له بسيوفنا ولم نلحد له ــ واللحد هو الحفر أفقيًا حتى لا يهيلوا التراب على وجهه ــ ودفناه ومضينا فقال رجل من أصحاب رسول الله دفناه ولم نلحد له فرجعنا لنلحد له فلم نجد موضع قبره" وكانت هذه آخر كرامات العلاء الحضرمي.

الدهاة الأربعة

في صدر الإسلام كان هناك أربعة من دهـــاة العـــرب. والداهية هو الشخص شديد الشخص شديد الذكاء وهم عمرو بن العاص والمغيرة بن شعبه ومعاوية بن أبي سفيان وزيـــاد بن أبيه. هؤلاء الأربعة هم الدهاة الأربعة فعمرو بن العاص داهية بالبديهة بمعنى سرعة بديهته فهو قادر على الوصـــول إلى رأي وقناعة وتصرف وسلوك ولفظه بسرعة عالية جدًا. أما المغيرة بن شعبة فداهية في حل المعضلات أما زياد بـــن أبيه فداهية في كل صغيرة وكبيرة. أما معاوية فداهيـــة فـــي الروية والصبر حتى القنص فهو يمثل حالة الصياد. الـــرأي الذي لا شك فيه أنهم جميعًا من الدهاة على اخـــتلاف نـــوع الدهاء. لكن الدهاة الثلاثة بن العاص وبن شعبة وبـــن أبيـــه يقودهم دهائهم إلى الداهية الرابع معاوية بـــن أبـــي ســـفيان بحيث إنه في لحظة الصراع السياســـي الشـــديد والـــدموي الرهيب بين علي ومعاوية، استطاعوا أن يسيروا سيرهم إلى معاوية فانضموا للداهية الرابع وكان مطلبًا بعيد المنال عليهم جميعًا أن يطالب أي منهم بالخلافة في مواجهة علي بن أبي طالب. لم تكن لأحد منهم فرصة الوصول لإمارة المســـلمين

إلا معاوية بن أبي سفيان، فانضموا إليه لم يكن أحدهم واليًا على أي من الأمصار والولايات فيما عدا زياد بن أبيه الذي كان واليًا على أقاليم في فارس وكان الجميع يخشى باسه لما عنده من المال والجند لكن زياد بن أبيه كان مغمور النسب لأن أبي سفيان لم يعترف ببنوته رغم أنه أبيه الحقيقي، فأطلق عليه زياد بن أبيه وفيما بعد اعترف معاوية بن أبي سفيان بأن زياد أخوه وأنه ابن أبي سفيان وذلك في لعبة السياسة والدهاء فكان هذا الاعتراف، لكنه حتى تلك اللحظة كان لا زال زياد بن أبيه ولكن هذا لا يمنعنا من الاعتراف بعظمة وقوة دور زياد بن أبيه ومن ثم لم يكن هو الوالي الوحيد ضد معاوية بن أبي سفيان لكن لأنه مغمور النسب وليس له مكانة معاوية في أهله فلم يكن يطمح للخلافة في وجود طامح آخر في مواجهة علي بن أبي طالب. كان عمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة من آحاد الرعية يوم نشب النزاع على الخلافة بين عميد بني هاشم علي بن أبي طالب وعميد بني أمية معاوية بن أبي سفيان ولم يكن لأيهما ـ لعمرو بن العاص أو للمغيرة بن شعبة ـ الجند والمال والعصبة التي تنافس العصبية الهاشمية أو الأموية فماذا فعل

الداهية الأول عمرو بن العاص؟ ـ وتعبير الداهية لإجلاله وتقديره وليس للطعن فيه فهو داهية بمعنى شديد ورائع الذكاء ـ تردد عمرو بن العاص قليلاً قبل شد الرحال إلى صراع علي ومعاوية وتساءل إلى أين أنتحي؟ وإلى أين أذهب؟ وفي ظني أن هذه الحيرة كانت حيرة التصرف وليست حيرة القرار بمعنى أنه كان مقررًا أنه سيكون إلى جانب معاوية بن أبي سفيان وكانت حيرته سببها هو كيف يتصرف خاصة أنه استشار أبناءه فاختار له أحد ابنيه صف معاوية والآخر اختار صف علي بن أبي طالب كما استشار عمرو بن العاص غلامه وخادمه وحارسه الأمين وردان الذي كان يشتهر بالدهاء فقال له وردان: "إن شئت أظهرت لك نفسك، اعترضت الدنيا والآخرة على قلبك فقلت مع علي الآخرة بلا دنيا ومع معاوية الدنيا بلا آخرة فأنت واقف بينهما "فقال عمرو بن العاص: "ما أخطأت ما في نفسي يا وردان فماذا ترى؟" وهو ما يجعلنا نتذكر ما كان يجري من بعض المسلمين في المعارك بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان، حيث كانت هناك جماعة من المسلمين إذا نودي للصلاة ذهبوا للصلاة خلف علي بن أبي طالب وإذا دعي

بالنفير إلى الطعام جروا إلى معسكر معاوية بن أبي سفيان، ومن هنا ظهرت المقولة الشهيرة التي صارت مثلاً في التاريخ وهي أن "الصلاة خلف علي أتقى والطعام عند معاوية أشهى" وهذا هو الصراع الذي كان يدور وقتها وهو أيضًا الصراع الذي كان يدور في نفس عمرو بن العاص وما زال يدور حتى هذه اللحظة في تاريخ البشرية رد وردان على عمرو بن العاص بقوله: "أرى أن تقيم في منزلك فإذا ظهر أهل الدين ــ يقصد انتصر علي بن أبي طالب ــ عشت في دينهم وإن ظهر أهل الدنيا ــ يقصد معاوية بن أبي سفيان ــ لم يستغنوا عنك" فقال عمرو بن العاص: "صحيح ولكن الآن بعد أن علم العرب بمسيري إلى معاوية أصبح الأمر أصعب" بمعنى أنه في هذه اللحظة كان العرب قد وصل إلى ما معهم وأبنائهم أن عمرو بن العاص أظهر ميلاً وهوى إلى معاوية. بل ذهب إلى مقابلته وهو في الطريق إليه ومن ثم إن عمرو بن العاص لا يرى في الوقوف على الحياد وقتئذ في انتظار نهاية المعركة أمرًا سليمًا من حيث الذكاء والفطنة والدهاء. قدم عمرو بن العاص على معاوية فساومه على رضاه. اشترط عليه لكي يكون في فسطاطه

ولم يقنع بأقل من ولاية مصر مدى الحياة كان بن العاص واليًا على مصر وعزله عثمان بن عفان وولى عبد الله بن سعد بن أبي سرح واشترط عمرو بن العاص ليقف بجانب الطالبين بدم عثمان بن عفان أن يحصل على مصر وإلى الأبد. عندما ذهب عمرو بن العاص ليعقد هذه الصفقة مع معاوية بن أبي سفيان، تلكأ الأخير ولم يستجب سريعًا فدخل عليه عتبة بن أبي سفيان وقال له: "أما ترضى أن تشتري عمروًا بمصر؟ إن صفت لك لا تغلب على الشام أبدًا "فلما سمع معاوية قول عتبة أرسل إلى عمرو بن العاص وأعطاه مصر وكتب في أسفل الكتاب" ولا ينقض شرط طاعة" فكتب عمرو بن العاص" ولا تنقض طاعة شرط "وعلى هذا الأساس خرج عمرو بن العاص من صفقته مع معاوية بن أبي سفيان غالبًا غير مغلوب. وكان عمرو بن العاص واضحًا جدًا في هدفه. وكان معاوية يعي هذا جدًا ووافق بعد ممانعة واستعصاء لكن في النهاية حدث الاتفاق على الشرط وهو حكم عمرو بن العاص لمصر مقابل طاعته، لدرجة أن معاوية بن أبي سفيان ـ كما تحكي كتب التاريخ ـ عقد لعمرو بن العاص أربع ألوية عسكرية لواء له ولواء لكل من

ولديه ولواء لغلامه وردان. في هذه المعركة كان عبد الله بن عمرو بن العاص من أنصار أن يعتزل أبــوه هــذه الفتنــة أو ينتمي إلى علي بن أبي طالب لكنه التزم أباه ويرجع ذلك إلى أن النبي عليه الصلاة والسلام قال له في أحــد مــرات المغاضبة مع أبيه "الزم أباك" فاعتبر عبد الله أن هــذا أمــرًا نبويًا يحق له أن يلتزم به مدى الحياة. ووقف عبــد الله بــن عمرو بن العاص مع أبيه عمرو بن العاص رغم أن هــواه الشخصي مع علي بن أبي طالب. لذلك تحكي كتب التــاريخ أنه عندما ذهب إلى المدينة ودخل إلى الجامع فلقي الحســين بن علي فبكى وقال للناس أنه يخجل من مقابلة الحسين بــن علي فقال له الحسين: "إذا كنت تخجل من لقائي ومن قتل أبي والحرب ضده فلماذا حاربتنا؟" فحكى له عبد الله بن عمــرو بن العاص الحديث النبوي فسامحه الحسين بن علــي وكــان بينهما حوارات ومصاحبة لكن المفارقات أن عبــد الله بــن عمرو بن العاص والذي كان ضد الحرب على عليّ بن أبي طالب وكان من أنصاره لكن التزم والده كما أمره النبي عليه الصلاة والسلام هو الذي أصبح واليًا على مصر بعــد وفــاة أبيه عمرو بن العاص. كانت الحيلة التي لجأ إليها عمرو بن

العاص واضحة وهي شرط حكم مصر مقابل الولاء والطاعة لدرجة أن المؤرخين المعاصرين يصفونها بأنها كانت لعبًا على المكشوف، فلم يكن هناك أي خفاء ولا لف ولا دوران. وكان عمرو بن العاص واضحًا وهو يقول لمعاوية بن أبي سفيان: "أترى أننا خالفنا عليًا لفضل منا عليه؟ والله إن هي إلا الدنيا نتكالب عليها وأيم الله لتقطعن لي قطعة من دنياك وإلا لنابذتك عليها". كانت المعاملة بين الرجلين واضحة تمامًا وكان حظ عمرو بن العاص في أولها أكبر من حظ معاوية بن أبي سفيان الذي كان يمنح بن العاص حكم مصر وهو لا يملك شيئًا إلى الشام فضلاً عن أن عمرو بن العاص لم يفعل شيئًا بعد لكن عمرو بن العاص كان يعلم يقينًا أن الانتصار معناه حصوله على مصر وفي المقابل شارك عمرو بن العاص ــ بأن لم يكن هو الذي أعلن ــ في وضع معاوية خليفة للمسلمين وأميرًا للمؤمنين في مشهد التحكيم والمدهش أن عبد الرحمن بن عوف الذي كان أحد المرشحين الستة لتولي الخلافة بعد سيدنا عمر بن الخطاب والذي كان ــ ابن عوف لا الخطاب ــ رئيسًا لمجلس الشورى تقريبًا هو الذي أعلن ولاية عثمان بن عفان وأعلن مبايعته ونفس القصة

تتكرر في التحكيم ما بين معاوية بن أبي سفيان وعلـــي بـــن أبي طالب حيث كان أبو موسى الأشعري مندوب علي بـــن أبي طالب رغم أنه لم يكن يريده لكن أصحاب علي وأشياعه فرضوه عليه وكان عمرو بن العاص مندوب معاوية بن أبي سفيان ذهبا المندوبان وتحكي لنا كتب التاريخ أنه عندما جلس عمرو بن العاص وأبو موسى الأشعري منفردان كـــان رأي أبو موسى الأشعري أن يخلعا الاثنين ــ علـــي ومعاويـــة ــ وأن يختارا شخصًا آخر وكان الأشعري يفضل عبد الله بـــن عمر بن الخطاب أما عمرو بن العاص فكـــان يعـــرف مـــن البداية ماذا يريد فإما أن يولي بن أبي سفيان أو يـــولي ابنـــه عبد الله بن عمرو بن العاص ورفض أبو موسى الأشـــعري أن يتولى عبد الله بن عمرو بن العاص الخلافة نظرًا لتورطه الشديد في المعركة وكان ما كان في مشـــهد التحكـــيم مـــن خروج أبو موسى الأشعري بناء على تقديم عمرو بن العاص له وإعلانه خلع علي بن أبي طالب فخرج عمرو بن العاص قائلاً أنه يثبت صاحبه معاوية بن أبي سفيان. هذه اللحظـــات فرقت كثيرًا في تاريخ الأمة الإسلامية. هـــذا هـــو الداهيـــة عمرو بن العاص. أما المغيرة بن شعبة فيمكنك وصفه بأنـــه

يستطيع بيع سمكًا في البحر ويشتري به سمكًا مطبوخًا شهيًا فكان ذكيًا في المعضلات. كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه قد عزل المغيرة بن شعبة عن ولاية الكوفة لأن قومًا شاهدوه يضاجع امرأة غير امرأته وحدثت الواقعة الشهيرة التي أقر فيها أربعة شهود أنهم شاهدوه يواقع امرأة غير امرأته أي يلزم تطبيق حد الزنا عليه لكن المغيرة بن شعبة قال إنه قد التبس الأمر على الناظرين لشبه بين المرأتين وأنه كان مع زوجته ولم يثبت التهمة لعدول أحد الشهداء وهو محمد بن أبي بكر عن الشهادة. وقال إنه يشك فيما رآه فجلد وأعفي المغيرة بن شعبة من التهمة لأنها لم تثبت عليه ثبوتًا يوجب إقامة الحد، لكنها أيضًا لم تسقط عنه سقوطًا يزيل الشبهة، فكان الأمر يستحق هذا القرار العمري بعزل المغيرة بن شعبة. وأبقاه عمر بن الخطاب ﷺ زمنًا بغير عمل على الإطلاق، كأنه يريد استتابته حتى قرر أن يعيده فدعاه إليه وشدد عليه أن يتجنب الشبهات وولاه الكوفة مرة أخرى. فلما تولى عثمان بن عفان الخلافة عزله وعندما قتل عثمان وبويع لعلي الخلافة في المدينة ذهب إليه المغيرة بن شعبة للتقرب إليه زلفى ونصحه أن يقر معاوية بن أبي سفيان

المطالب بدم عثمان بن عفان على ولاية الشـام ليـدين لـه بالولاء، وبعد أن تمر الأزمة يعزله متى شاء لكن الإمام علي بن أبي طالب رفض أن يقره على ذلك وكانت نصيحة بـن شعبة مليئة بالسياسة إذ كانت موهبة بن شعبة الرئيسية العمل بالسياسة فرجع المغيرة بن شعبة في اليوم التالي وقال لسيدنا علي بن أبي طالب: "أني كنت أشرف عليك بالـذي أشـرف وهو أن تبقي معاوية واليًا على الشام فرفضت وخالفتني فيه ثم علمت أن الصواب فيما رأيت فاعزلهم ــ اعزل كل ولاة عثمان ــ واستعمل مما تثق بهم فإنهم أهون شوكة مما كـان "وكأن نصيحة بن شعبة معناها إذا كنت قد قررت أن تخسر أحدًا فاخسر الجميع وعاد المغيرة بن شعبة إلى عزلته بعـد هذه النصيحة التي ربما ساهمت في قسمة الأمـة. وبعـد أن انتهت الأمور إلى أن ولى عمرو بن العاص تقريبًا معاويـة بن أبي سفيان الخلافة وأبقاه على الإمارة في مواجهة علـي بن أبي طالب. الذي خلعه مندوبه أبو موسى الأشعري قـرر المغيرة بن شعبة بعد رجحان كفة معاوية بن أبـي سـفيان أن يذهب إلى الشام، وينتمي لحزب معاوية، فولاه إمرة الحج بعد انفراده بالدولة. وكان المغيرة بن شعبة ينظر إلى ولايته

الأولى للكوفة كما نظر عمرو بن العاص إلى ولايته الأولى لمصر بمعنى أن ولاية الكوفة كانت مهمة وعزيزة وقريبة وتمثل طموحًا دائمًا وحلمًا مراودًا للمغيرة بن شعبة مثلما كانت مصر لعمرو بن العاص. فلما أراد معاوية أن يعهد بولاية الكوفة وقد أصبح أميرًا للمؤمنين وخليفة للمسلمين قرر أن يعطيها لعبد الله بن عمرو بن العاص وهو من الأتقياء الأنقياء في التاريخ الإسلامي فقرر المغيرة بن شعبة أن يعمل ذكائه وأن يخوض في الأمر بكل ما يملك من فطنة وسياسة وحلم وطموح لولاية الكوفة فذهب إلى معاوية بن أبي سفيان وقال له: "أتستعمل عبد الله بن عمرو بن العاص على الكوفة، ووالده على مصر أنك بين نابي الأسد" فاستمع له معاوية وعزل عبد الله بن عمرو بن العاص وولى المغيرة بن شعبة مكانه على الكوفة فسمع عمرو بن العاص بهذا الخبر وتلك المكيدة فردها بمثلها فلم يطلب إعادة ابنه عبد الله إلى ولاية الكوفة وإنما قنع بحرمان المغيرة من ولاية الخراج. أخذ منه وزارة المالية والقدرة على جمع الأموال فقال لأمير المؤمنين والخليفة الجديد معاوية بن أبي سفيان: "أنك تستعمل المغيرة على الخراج فيأخذه ولا تستطيع

أن تنتزعه منه، أرى أن تولي على الخراج رجلاً يخافك ولا يبالي بأحد إلا بك وتؤمر المغيرة بن شعبة على الصلاة والإمارة فلا يقوى عليك بغير مال "فكانت الاستجابة من معاوية واتبع مشورته غير كال فالمشورة لم تكسبه السيطرة الكاملة على أموال الكوفة فحسب وإنما أربحته عداء وتنافس المغيرة بن شعبة وعمرو بن العاص أيضًا. وهو لا يستطيع أن يأمن أن يتحالف الاثنان عليه فاستقر الأمر لمعاوية وهان عليه خطب المغيرة فقرر عزله وعندما وصل الخبر إلى المغيرة من عيونه حول معاوية. فوراء كل رجل سياسي ذكي رجل يجلب له المعلومات من العيون والجواسيس أو الأصدقاء ذوي النفوذ والأمر. وصل المغيرة بن شعبة أن معاوية بن أبي سفيان قرر عزله بعد أن أخذ منه ولاية الخراج فأصبح أسدًا بلا أنياب تسهل الإطاحة به. وكان معاوية يريد أن يطيح بالذين ساندوه في هذه الولاية وهذا العرش حتى يظل له ولم يكن يستطيع عزل عمرو بن العاص لأن بينهما عقد مكتوب وشرط الطاعة معلق بولاية مصر فقرر البدء بعزل المغيرة بن شعبة فأشفق المغيرة من مذلة العزل فآثر أن يذهب إلى معاوية بن أبي سفيان

أن يحتال حيلته قرر أن يعمل في حل المعضلات كيف يجبر معاوية على استبقائه؟ ذهب المغيرة بن شعبة إلى دمشق عاصمة الخلافة الإسلامية وقتئذ ولكنه لم يلتق بمعاوية وإنما التقى بابنه يزيد الأمير المرفه، ابن الخليفة الذي لم يشتهر بعلم أو تقوى ولا بأي شيء سوى أنه اشتهر فيما بعد بأنه أميرًا للمؤمنين. التقى المغيرة بن شعبة بيزيد بن معاوية ووسوس إليه أن يطلب إلى أبيه تسميته لولاية العهد وبدأ المغيرة في دق المسمار في النعش. بدأت فكرة ولاية العهد وتحويل الخلافة الإسلامية إلى ملك عضود وإلى ملك يورث ابنه، وتحول الأمة الإسلامية من الخلافة إلى المملكة من شخص أراد أن يظل واليًا في مكانه. رجل ذكي قرر أنه لا خير من بيع الأمة كلها مقابل أن يظل في مكانه عندما زين المغيرة بن شعبة الأمر إلى يزيد بن معاوية كان له مقاصد كثيرة ولم يكن يتصور أن الاستجابة ستكون فورية قال بن شعبة إلى زيد بن معاوية: "أن أصحاب النبي وكبراء قريش قد ذهبوا وبقي الأبناء وأنت أفضلهم فلا أدري ما يمنع أمير المؤمنين أن يعقد لك البيعة "فلمعت المسألة وبرقت في عين زيد وقال له: "أترى ذلك ممكنًا؟" فقال المغيرة بن

شعبة: "نعم". ما حدث بعد ذلك طبيعي ومنطقي وهو أن دخل يزيد على أبيه معاوية بن أبي سفيان وأخبره بمقالة المغيـــرة فأرسل معاوية في طلب المغيرة من فوره ليناقشه في حقيقـــة الخبر والعرض الذي قدمه إلى يزيد فقال له: "ما هذا الـــذي تقوله ليزيد؟" فقال المغيرة: "أني يا أمير المؤمنين قد رأيت ما رأيت من سفك الدماء بعد عثمان ويزيد منك فأحضره وأعقد له البيعة فلا تكون فتنة "فقال معاوية": ومن لي بهذا؟" فقـــال بن شعبة: "أكفيك أنا أهل الكوفة ويكفيك زياد أهل البصـــرة وليس بين هذين المصرين أحدًا يخالفك "لمعت الفكـــرة فـــي ذهن معاوية فأمره أن يرجع إلى الكوفة وأن يتحدث مع ثقاته في ذلك. ويرجع تحديد بن شـــعبة للبصـــرة والكوفـــة إلـــى اعتبارين الأول أن العراق كان هواها منذ اللحظة الأولى مع علي بن أبي طالب وكانت تنتصر له، صحيح أنها خذلته هذا الخذلان الكبير لكن ظلت هذه المشاعر والقناعات لدى أهـــل العراق. لذا كان تركيز المغيرة بـــن شـــعبة علـــى هـــذين المصرين باعتبارهما بؤر الخطر وهكذا ربح المغيـــرة ولـــم يخسر وكما يقولون باع السمك في البحر فإذا أعرض معاوية عن عقد البيعة لابنه ــ وهو أمر مبتعد ــ فيكون المكسب أنه

فرق بين معاوية وابنه يزيد الذي سينتقم عليه ويغضب منه وفي هذه الحالة يتحقق انتقام المغيرة من معاوية بن أبي سفيان بأن يوغل صدر ابنه يزيد عليه، وإذا وافق معاوية على الفكرة وبرقت أمام عينه ولمعت سيكون المكسب أنه صاحب الفكرة وأنه الذي سيتولى التخطيط. أما المشهد الجلل في التاريخ الإسلامي فكان عندما جمع معاوية بن أبي سفيان أمرائه ورجاله ليستفتهم في عقد البيعة لابنه يزيد باعتبار أن ما يفعله سيكفي الأمة الإسلامية الحرب وسفك الدماء، وكان لمعاوية بن أبي سفيان نظرية في الملك هي أن سيدنا عمر بن الخطاب أخطأ عندما رشح ستة إلى الخلافة فأصبح هناك أكثر من شخص يطمح إلى الخلافة، ومن ثم كان يرى أن هذه النقطة هي التي أسقطت هيبة دم المسلمين وأن أي شخص يمكن أن يطمح في المنصب فيحدث بينهما سفك دماء وكانت هذه النظرية لتبرير توريث معاوية للعرش بعده لأن حقيقة الأمر أنه لو كان عثمان بن عفان سار سيرًا آخر لما كان من الفتنة عندما جمع معاوية الأمراء ليطرح فكرة ولاية العرش كان المغيرة بن شعبة هو الذي نادى وطالب بتعيين يزيد بن معاوية وعقد البيعة له وهذا هو الداهية الثالثة

أما الداهية الرابع فكان زياد بن أبيه الذي كان صعبًا عنيـدًا رغم أنه أخ لمعاوية بن أبي سفيان وكـان معاويـة يتمنـى مبايعة زياد له فرغم أنه أخوه إلا أنه كان منـزوع النسـب ومرفوض انتمائه إلى آل سفيان وكان ذلك جزءًا من اعتمال الغضب داخله على معاوية وعلى رغبته في انتزاع الخلافـة من سيدنا علي بن أبي طالب وكان في تقدير معاوية بن أبي سفيان أن يكون زياد أول من يبايعه لأنه شرعيًا لأبي سفيان لكن علي بن أبي طالب ولى زياد بن أبيه على فارس فأرسل إليه معاوية يتوعده فقام زياد في الناس خطيبًا وأغلظ القـول والجواب ورد الوعيد بمثله على مسمع من أعوان معاوية بن أبي سفيان ورؤوس أتباعه فقال: "العجب كل العجاب من ابن أكلة الأكباد والمقصود هند آكلة كبد حمزة بن عبد المطلـب عم النبي بعد أن قتله وحشي في معركة أحد ـ ورأس النفاق يخوفني ويقف بيني وبين ابن عم رسول الله وإمام المهاجرين والأنصار ألا والله لو أذن لي في لقـاءه لوجـدني ضـرابًا بالسيف "تتم الخطبة عـن مشـاعر الأخ الغاضـب لعـدم الاعتراف به من الأسرة فأخذ زياد يعاير معاوية بأمه بالرغم من أنها أسلمت وأسلم الجميع والمعروف أن الإسلام يجب ما

قبله. لكن المسألة وصلت إلى ذلك الحد من الحدة فكتب معاوية إلى زياد يلين له القول ويرجوه فقال: "إلى زياد بن أبي سفيان ــ وهو الاعتراف بنسب زياد إلى أبي سفيان الذي يتمناه ــ وكأنك لست أخي وليس صخر بن حرب أباك وأبي وشتان ما بيني وبينك. أطالب بدم عثمان بن عفان وأنت تقاتلني ــ من الواضح سيطرة حالة الرغبة في استمالة زياد بن أبيه على الخطاب لأنه يعرف ما يمكن أن يفعله زياد ــ لو خضت البحر في طاعة القوم ــ يقصد قوم علي بن أبي طالب ــ فتضرب بالسيف حتى ينقطع متنه ــ أي ينكسر سيفك من كثرة الضرب ــ لما ازددت منهم إلا بعدًا فارجع رحمك الله إلى أصلك واتصل بقومك ولا تكن كالموصول يطير بريش غيره فقد أصبحت ضال النسب فإن أحببت جانبي ووثقت بي فأتمر بأمري وإن لم تثق بقولي ففعل جميل لا لي ولا لعلي" كان هذا هو كل ما يطلبه معاوية من زياد بن أبيه الداهية في كل صغيرة وكبيرة. أخذ يقدم له الإغراءات والمبررات ليستميله إلى جانبه أو ليحيده" ففعل جميل لا لي ولا لعلي "لكن معاوية بن أبي سفيان ظل قلقًا من زياد حتى مقتل سيدنا علي بن أبي طالب، ولم يأمن مكره

وجرأته حتى توسط بينهما المغيرة بن شعبة ليشتد ساعد المغيرة بتحالفه مع زياد بن أبيه في مواجهة عمرو بن العاص. وأخيرًا استجاب زياد للمغيرة في أمر البيعة لمعاوية وبعد ذلك كان موقف زياد بن أبي سفيان واضحًا في الانتقال من مناصرة سيدنا علي بن أبي طالب وتأييده إلى بيعة معاوية وبذلك أصبح آخر من بايع وبوساطة من المغيرة بن شعبة. لكن عندما بدأ الكلام يتردد عن عقد البيعة ليزيد بن معاوية بن أبي سفيان كان زياد حادًا في رفضه إلا أنه توفي قبل إتمام هذا الأمر وإعلان مبايعة يزيد ملكًا أو خليفة أو حاكمًا للمسلمين وهو ما يدهشك في تاريخنا المعاصر لأنه حتى إذا عاش زياد بن أبيه كان من الممكن ألا تسير الأمور كما سارت لأن زياد بن أبيه على ذكائه وقدرته العقلية كان حاد اللفظ. وفي مواجهة ولاية العهد ليزيد بن معاوية فهل تظن أن هذا الصراع هو صراع مجهول النسب الغير معترف به في مواجهة الذين استأثروا بالأسرة والسلطة وأصبح شأنهم عظيمًا عاليًا؟ احتمال وارد.

عبد الله بن مسعود... صوت الإسلام

كلنا نعرف عبد الله بن مسعود أول من جهر بالقرآن في التاريخ الإسلامي. في مكة تحديدًا حيث منبت النبوة ومبعث الرسالة قال الرسول ﷺ "ما سمعت قريش هذا القرآن يجهر لها به قط فمن رجل يسمعهم؟ أي أن الرسول ﷺ قرر في لحظة ما أن قريش عليها أن تسمع وتستمع كرسالة هداية ورؤية تحدي وعلاج بالصدمة. عندما تسمع قريش القرآن عاليًا صادحًا بصوت أحد المسلمين فقال عبد الله بن مسعود "أنا" كانت هناك حالة خشية عامة من جموع المسلمين والصحابة الموجودين على عبد الله بن مسعود. لأنه فضلاً عن أن جسمه ضئيل للغاية لم يكن له حسب أو نسب أو عشيرة تحميه أو تنقذه مما يمكن أن يفعله المشركون من قريش وقتها. فرد عبد الله بن مسعود عليهم "إن الله سامع" وفعلاً ذهب عبد الله بن مسعود في اليوم التالي إلى قلب أندية قريش في مكة في قلب الكعبة وأمام الجميع وعلى رءوس الأشهاد ورفع صوته بالقرآن وقرأ "بسم الله الرحمن الرحيم" وانطلق نداء الحق وصوت الإسلام وصوت القرآن لأول مرة عاليًا خفاقًا في سماء مكة. هذه اللحظة يمكن أن نعتبرها

مفتاح شخصية عبد الله بن مسعود فهذا الرجل الذي يتحــدى بالحق صلف وقوة قريش هو نفسه كان لصيق الصلة بالنبي عليه الصلاة والسلام فكان يخدمه إلى درجــة أن روايــات التاريخ تحكي أنه كان يرد عليه ــ أي يدخل عليــه فــي أي وقت. ويلبسه نعليه ويمشي معه وأمامه. كرفيــق وحــرس ويستره إذا اغتسل ويوقظه إذا نام وكان يعرف بين الصحابة بصاحب السواد والسواك لأنه كان يحتفظ بسواك النبي أيضًا وتذكر الروايات أنه في إحدى المرات تسلق عبــد الله بــن مسعود شجرة ليأتي للرسول ﷺ بشيء منها ــ رغم أنه لــم يكن متسلقًا للنخل ــ فنظر أصحاب النبي إلى ساق عبــد الله بن مسعود فضحكوا من دقة ونحافة ساقيه، فسأل الرسول ﷺ لم تضحكون. فقالوا لمنظر رِجل عبد الله مسعود فقال النبــي مقولته العظيمة في حق عبد الله بن مسعود أن رِجل عبد الله بن مسعود أثقل في الميزان يوم القيامة من جبل أحد. ومــن أهم ما فعله عبد الله بن مسعود هو شهوده جميــع معــارك وغزوات النبي عليه الصلاة والسلام. ليس هذا فقط وحتــى بعد وفاة النبي شهد جميع المعارك فلم يكن هنــاك موضــع ليقاتل. رغم نحافة جسده وضآلة عوده ودقة أعضائه. فيه إلا

وشهده مثلاً شهد عبد الله بن مسعود موقعة اليرموك بالشام وكان فيها مسئولاً عن الأنفال" أي توزيع الغنائم "ويعني هذا أنه أصبح من حراس بيت المال.. وزيرًا للمالية..مسئولاً للخراج.. مسئولاً للأنفال.. أمينًا على عمال المسلمين حيث سير سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ عبد الله بن مسعود إلى الكوفة وكتب إلى أهل الكوفة "أني بايعت عمار بن ياسر أميرًا وعبد الله بن مسعود معلمًا ووزيرًا وهما من النجباء من أصحاب رسول الله ﷺ ومن أهل بدر. وتبتدئ مواقف عبد الله بن مسعود بوضوح عام ٣٥ هجرية وكان وقتها قد مرت سنوات على خلافة عثمان وظهر نوع من الاستنكار لأمور قام بها عثمان بن عفان حيث أنكر صاحبة كثيرون منهم عمار بن ياسر وحتى عبد الرحمن بن عوف الذي عينه واختاره والسيدة عائشة رضي الله عنها على عثمان بن عفان كثيرًا مما فعل وأشياء أنكروها مما فعلها أمراؤه وولاته، لكن أهم ما حدث في تاريخ عثمان بن عفان مع عبد الله بن مسعود كان عنده عودة عبد الله بن مسعود من الكوفة. فعندما تولى عثمان بن عفان الخلافة كان عبد الله بن مسعود مسئولاً عن الخراج في الكوفة وكان عثمان بن عفان قد أبقى على

الولاة الذين كانوا قد عينهم عمر بن الخطاب في مناصبهم لمدة عام ثم عزلهم وعين آخرين بدلاً منهم ومنهم عمار بن ياسر الذي كان واليًا على الكوفة فعزله عثمان ثم ولى الكوفة كلها لعبد الله بن مسعود ثم ولى الوليد بن عتبة إمارة الكوفة على أن يظل عبد الله بن مسعود مسئولاً عن الخراج. عندما ولى عثمان بن عفان الوليد بن عتبة. وهو أحد أقارب عثمان وثقاته ـ على الكوفة لم يتحمل عبد الله بن مسعود عبث الوليد بن عتبة بأموال المسلمين كما لم يحتمل الوليد بن عتبة أن يظل عبد الله بن مسعود حجر عثرة في طريقه، فكتب لعثمان بن عفان أن عبد الله بن مسعود يعيبه ويطعن عليه فكتب إليه عثمان بن عفان أن يرسله إلى المدينة. لاحظ أن عثمان بن عفان الذي عزل كثيرًا من الصحابة الذين كان قد عينهم عمر بن الخطاب مثل عمار بن ياسر كما نفى أبا ذر الغفاري الصحابي الجليل وأرسل في طلب عبد الله بن مسعود من الكوفة ليحاسبه على ما قاله الوليد بن عتبة. وفي المقابل قال أهل الكوفة لعبد الله بن مسعود "أقم ولا تخرج ونحن نمنعك أن يصل إليك شرًا تكرهه" هناك قضيتان في استدعاء عثمان بن عفان لعبد الله بن مسعود:

الأولى أن السبب فيها كتاب الوليد بن عتبة إلى عثمان بن عفان لعبد الله بن مسعود: الأولى إن السبب فيها كتاب الوليد بن عتبة إلى عثمان بن عفان. والرواية الثانية تقول إن سبب الاستدعاء كان قرار عثمان بن عفان بتوحيد المصاحف فأمر بجمع المصاحف كلها من الآفاق وسلقها بالماء الحار والخل حتى تنفى تمامًا ويصبح هناك مصحف واحد هو مصحف عثمان بن عفان إلا أن عبد الله بن مسعود امتنع عن تسليم مصحفه إليه وقال "إن الرسول ﷺ أقره وقال من أحب أن يقرأ القرآن غضًا طريًا كما أنزل فليقرأ على قراءة ابن أم عبد وحين بلغ عبد الله بن مسعود أمر عثمان بجمع المصاحف قال "أيأمرني أن أقرأ القرآن على قراءة زيد بن ثابت. وحيث وحد القرآن على قراءة زيد بن ثابت. والذي نفسي بيده لقد أخذت من فم الرسول ﷺ ٧٠ سورة أحكمتها قبل أن يسلم زيد". توبة عبد الله بن مسعود إلى المدينة للمثول بين يدي عثمان بن عفان وفي ذهنه أن عثمان بن عفان يريد شيئًا من اثنين.. إما مواجهته بالوليد بن عتبة ليقول له أنت قلت على كذا وكذا وفي هذه الحالة قرر عبد الله بن مسعود مواجهته بأخطاء الوليد بن عتبة وإسرافه

وعبثه ببيت المال، وكان ذلك سينتهي برفض عبد الله بن مسعود الاستمرار على بيت المال وأن يلقي بمفاتيح بيت المال قائلاً: "من غير ما ألزمنا به الله فما بنا حاجة". وكان عبد الله بن مسعود يتوقع حدوث ما حدث من إسراف الوليد بن عتبة لأن عثمان بن عفان عزل عمار بن ياسر عن الكوفة ثم عزل سعد بن أبي وقاص وولى الوليد بن عتبة بعد اثنين من الفطاحل في التاريخ الإسلامي وفي نفس الوقت كان عبد الله بن مسعود مسئولاً ببيت المال بالكوفة. فالأمر الثاني الذي كان يدور في ذهن عبد الله بن مسعود هو أن عثمان بن عفان سوف يطلب منه الانصياع إلى أمر الخليفة بتسليم مصحفه وكان قرار عبد الله بن مسعود في هذا الشأن أنه لن يأخذ بقراءة زيد بن ثابت مهما حدث. دخل عبد الله بن مسعود الجامع فلقي عثمان بن عفان مشغولاً بخطبته فقطع عثمان بن عفان خطبته وقال "إنه قدمت عليكم دابة سوء". طبعًا كلمة قاسية جدًا واستقبال مريع في قسوته من جانب عثمان بن عفان لعبد الله بن مسعود. فرد عليه عبد الله بن مسعود "أنا لست كذلك ولكني صاحب رسول الله يوم بدر ورضوان" المدهش أن عثمان بن عفان محمل بأن عبد الله بن

مسعود يرفضه ويهاجم سياسته ويرفض فكرة جمع المصاحف وتسليم مصحفه ولهذا عندما دخل عليه عبد الله بن مسعود خرج عن شعوره وهاجمه وكان رد عبد الله بن مسعود قويًا وربما أجزع عثمان بن عفان لأنه يقف بين الناس وفي خطبته بين المسلمين وهو أمير المؤمنين فأمر به عثمان فقام إليه خدم وموالي عثمان فحيز برجله فكسروا ضلعين من ضلوع عبد الله بن مسعود ورجله لدرجة أنه عندما سمعت السيدة عائشة رضي الله عنها ــ من موقعها داخل المسجد ــ ما فعله عثمان انزعجت وقال "أي عثمان" أتقول هذا لصحاب رسول الله يوم بدر؟" هذا الإخراج العنيف لعبد الله بن مسعود وأن يضربه غلام عثمان داخل المسجد كان مذهلاً عند الصحابة والمسلمين وكيف أن صاحب رسول الله يضرب صاحب رسول الله وأنه كيف هذا الرجل الذي نال من الضرب والعنف ما ناله من المشركين والكفار جزاء جهره بالقرآن فإذا بالمسلمين في عصر عثمان بن عفان يفعلوا به ما هو أكثر مرارة حتى أن تكسر رجله حتى أن سيدنا علي بن أبي طالب قال "أتفعل هذا بصاحب رسول الله لقول الوليد بن عتبة" ثم احتوى سيدنا علي عبد الله بن

مسعود وأخذه إلى بيته ويقال إنه انقسمت الناس داخل المسجد بين مؤيد لعثمان ورافض له وقتها لما فعلـــه بعبـــد الله بـــن مسعود فضرب الرافضين بالنعال داخل المسجد وحـــدث أول قتال أهلي بين المسلمين في عصر عثمان بن عفـــان وكـــان بالنعال نتيجة ما فعله عثمان بن عفان بعبد الله بن مســـعود.

واستمرت الخلافات بينهما حتى وفاة بن مسعود لدرجـــة أن عثمان بن عفان عندما رجع إلى صوابه نتيجة تداخلات مـــن الصحابة ومراجعة عثمان الأمر حاول استرضاء عبد الله بن مسعود وذهب ليزوره في مرضه الأخير ليمنحه العطاء الذي كان قد منعه عنه فرفض عبد الله بن مسعود مقابلته ورفض أخذ العطاء وقال له "منعته وأنا محتاج إليه وتعطيني إياه وأنا غني عنه لا حاجة لي به" فأرسل له عثمان "ليكون لبناتك من بعدك. فرد عليه بن مسعود "أتخشى على بناتي الفقر.. أنـــي أمرت بناتي أن يقرأن في كل ليلة سورة الواقعة وأني سمعت رسول الله ﷺ يقول من قرأ سورة الواقعة كل ليلة لم تصـــبه فاقة أبدًا" وتقول روايات أخرى أن عثمان بن عفان ذهب إلى عبد الله بن مسعود فعلاً وطلب منه أن يسأل الله المغفرة لـــه فكان جواب بن مسعود "أسأل الله أن يأخذ لي منـــك بحقـــي"

وقيل إنه دفن دون أن يعلم عثمان ودون أن يحضر جنازته وأن الذين حضروا جنازته كانوا مجموعة من الصحابة بينهم علي بن أبي طالب وعمار بن ياسر. وهناك رواية يحكيها عبد الله بن مسعود نستطيع أن نلخص بها حياته يقول بن مسعود "قمت في جوف الليل وأنا مع رسول الله ﷺ في غزوة تبوك فرأيت شعلة من النار فأتبعتها أنظر إليها فإذا رسول الله وأبو بكر وعمر وإذا عبد الله ذو البيجادين ــ دليل الرسول في الصحراء ــ قد مات بينما رسول الله وأبو بكر وعمر واقفون وإذا هم قد حفروا له حفرة ورسول الله ﷺ في الحفرة وأبو بكر وعمر يدليانه إليه ويقول أدينا إلى أخاكما فدلياه إليَّ فلما هيأه للحده قال عليه الصلاة والسلام اللهم أني أمسيت عنه راضيًا فأرضى عنه" فيقول عبد الله بن مسعود "فيا ليتني كنت صاحب هذا القبر".

الحسن بن علي ــ سيد شباب الجنة

كان الحسن بن علي أول من أسرع إلى دار عثمان بــن عفان ليزود عنه وكان الحسن والحسين من حراس عثمان بن عفان أمام أفواج الثورة ضده ــ محبة النبي عليــه الصـــلاة والسلام للحسن والحسين لا إضافة لدينا عليه فهو حب وارف جارف، حب نبوي وبشري من جد لحفيديــه. حــب عظــيم ورائع ومذكور في كل كتب التــاريخ ومعلــوم بالضـــرورة ونردده دائمًا يقينًا وصدقًا حبًا ومحبة خاصـــة إذا عرفنـــا أن السيدة فاطمة بنت محمد عليه الصلاة والسلام هي أقرب أهل الأرض شبهًا بنبينا الكريم وأبيها العظيم عليه الصلاة والسلام وعندما نعلم حب النبي لفاطمة وعلي فمن باب أولى أن نعلم حب النبي للحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة كما قــال النبي عليه الصلاة والسلام عنهما. لكن كان لكل منهمــا ــــ الحسن والحسين ــ منهج مختلف كانا الاثنين رفعــة فــوق رفعة ونبلاً فوق نبل وعظمة فوق عظمة. إنمــا يمثــل كــل منهما نظرة مختلفة للحياة مــن مــوقعين مختلفــين ورؤى مختلفة، وكل كلمة اختلاف ســابقة هــي لإظهــار العظمــة والفضل فليس بالضرورة أن يكون هناك توحد فــي الــرأي

والمنهج والقرار. أتوقف بداية عند الحسن بن علي ﷺ. عندما كان الخليفة عثمان بن عفان محاصرًا كان الحسن أول من يذهب لحراسته وكان عدد حراس عثمان بن عفان أقل من ١٠ في مواجهة ٧٠٠ يحاصرونه فضلاً عن التجمعات التالية لهم فكان من الطبيعي والمنطقي ـ وليس التآمري ـ أن ينجح السبعمائة بفوضاهم وصخبهم وكل ما كانوا يملكونه من حمية الغضب خاصة بعد أن عرفوا أن عثمان ينوي قتلهم. كان مشروعًا في لحظة الغضب والثورة ألا يفكر الناس بعقولهم. ليس مشروعًا بمعنى الموافقة على ذلك ولكن بمعنى إقرار واقع الحال، خاصة إذا عرفنا أن من ضمن الذين حاصروا عثمان بن عفان كان هناك صحابي عظيم هو طلحة الخير أحد المبشرين بالجنة وأحد المرشحين الستة مع عثمان بن عفان لخلافة المسلمين أيضًا من ضمن الذين حاصروا عثمان بن عفان. كان محمد بن أبي بكر الصديق وكان من الزعامات التي حاصرت عثمان بن عفان وقادت الثورة ضده ثم انضم إلى صفوف علي بن أبي طالب بينما كان عبد الله بن عمر بن الخطاب لزم الحياد بينما انضم أخوه عبيد الله بن عمر بن الخطاب إلى صفوف معاوية. قتل

الخليفة رغمًا عن كل حراسه حيث تسور الثائرون عليه الجدار واشتبكوا مع أهل عثمان بن عفان وانتهى الأمر بمقتله. بعد مقتل عثمان كان هناك رأي بمبايعة علي بن أبي طالب والمدهش أن كتب التاريخ لا تذكر أي شي عن آراء ومواقف واتجاهات كل من الحسين والحسن حتى هذا اليوم المشئوم الذي حوصر فيه عثمان بن عفان فيبدأ التاريخ ينتبه لكل شاردة وواردة تصدر منهما. ويبدأ التاريخ يحكي ويروي موقف الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة من مجمل وجملة الأحداث التي جرت في ذلك الوقت. أول ما تذكره لنا كتب التاريخ هو أن سيدنا علي بن أبي طالب كان معروضًا عليه البيعة فماذا كان رأي الحسن الابن البكر لسيدنا علي بن أبي طالب؟ كان الحسن يرى ألا يشترك أبوه في شيء من أمر الفتنة من قريب أو بعيد بل أشار عليه أن يعتزل الناس وأن يترك المدينة ويقيم في مكان بعيد عنها، فلا يسمع به أحد ولا يشارك في أمر من أمور اختلطت وتشابكت حتى لم يعد لأحد القدرة على معرفة أين هو صواب الحركة؟ وأين هو خطأ القرار؟ لكن سيدنا علي بن أبي طالب لم يسمع له وإنما رأى أن مكانه في المدينة المنورة حيث يستطيع

أن يأمر بمعروف أو ينهي عن منكر أو يصلح بين النــاس. وكانت رؤية سيدنا علي بن أبي طالب أنه لا يمكن الوقــوف على الحياد حيث لا حياد بين المنكر والمعــروف ولا حيــاد بين الحق والباطل. كان سيدنا علي بن أبي طالب بكل ما له من عظمة ولكل ما لديه من حكمة ولأسباب هائلة في الــدين والتاريخ يشعر أنه يعرف عن حق ما هو الحــق. فهــو إذن غير مطالب بالاعتزال لأن الرؤية واضحة بالنسبة له. عندما قتل عثمان بن عفان لم ير الحسن لأبيه أن يقيم في المدينــة ولا أن يتعرض للبيعة ولا أن يقبل البيعة إن عرضت عليــه وإن كان الأمر بيد الحسن بن علي لاعتزل الفتنة اعتزالاً كما فعلت طائفة من أصحاب النبي عليه الصلاة والســلام لكــن الحسن كان يعرف ويدرك ما لأبيه من حق عليه فأقام معــه وشهد مشاهده كلها وهو على غير حب ورغبــة منــه فــي الدخول في هذا الصراع ثم عندما حدثت تطورات المعــارك والحروب كان رأي الحسن ألا يخرج سيدنا علي بــن أبــي طالب من المدينة وألا يقبل بالبيعة فلما قبل سيدنا علي بــن أبي طالب بالبيعة ولزم عليه الخروج من المدينة، كــان رأي سيدنا الحسن أن يبقى أبوه بالمدينة المنورة بجوار النبي عليه

الصلاة والسلام وألا يرحل إلى العراق فقد كان يكره لأبيه أن يذهب إلى دار غربة ويتعرض لأبيه غريبًا وألا يدخل في المعارك، والتي بدأت بمعركة ضد طلحة والسيدة عائشة والزبير رضي الله عنهم جميعًا لكن في كل تلك المشاهد كان علي بن أبي طالب يعصى ابنه في كل ما كان يشير عليه به لدرجة أن الحسن بكى ذات يوم حينما رأى ركاب أبيه تؤم العراق فقال له أبوه: "إنك لتحن حنين الجارية" ولم يفارق الحسن حزنه على عثمان. روى بعض الرواة أن سيدنا علي بن أبي طالب مر بابنه الحسن وهو يتوضأ فقال له: "أسبغ الوضوء" فرد عليه الحسن بهذه الكلمة المرة: "لقد قتلوا بالأمس رجلاً كان يحسن الوضوء" وكان يقصد عثمان بن عفان فلم يرد عليه سيدنا علي إلا أن قال له: "لقد أطال الله حزنك على عثمان" وقد شهد الحسن مع والده علي بن أبي طالب مشاهده في البصرة وصفين النهراوان لكن المؤكد والاعتقاد الراسخ لدى كثير من المؤرخين أن الحسن والحسين شهدا مع أبيهما هذه الحروب دون أن يشاركا فيها بل إن عليًا بن أبي طالب كان يضن بهما على الخطر، مخافة أن يصيبهما شر فتنقطع ذرية النبي عليه الصلاة والسلام،

وكان المسلمون مدركين لهذا وكانوا يعرفون قيمة الحسن والحسين وكانوا دائمًا ما يتبارون في إبعادهم عن ساحات الوغى والقتال والمعارك حتى لا يفنى نسل النبي، وكان قتل كل من يحارب عليًا يعلم تمامًا أن هذه منطقة خطوط حمراء لكنها لن تظل كذلك مع معاوية بن أبي سفيان وولده يزيد ولم يذكر للحسن والحسين في كل تلك المعارك دورًا قويًا أو مبارزة بالسيف أو رمي بالرمح وهذا يبرأهما كثيرًا من مظنة أنهما أزهقا أرواح المسلمين أو أراقا دماءهم. عند تلك اللحظة تم اغتيال سيدنا علي بن أبي طالب على يد الخوارج. في تلك اللحظة التاريخية الشهيرة عندما قتل عبد الرحمن بن أبي ملجم سيدنا علي بن أبي طالب. وفي تلك اللحظة يبرز مرة أخرى اسم الحسن بن علي، فعندما اغتيل سيدنا علي لم يمت في نفس اللحظة وإنما ظل فترة بعد طعنه، بعضًا من الساعات وتصل إلى أيام في بعض الروايات التاريخية، وفي تلك الفترة طلب الناس من سيدنا علي بن أبي طالب أن يستخلف. مؤرخو أهل السنة يقولون إن سيدنا علي بن أبي طالب لم يستخلف من بعده وإذا قرر أن يختار الناس من بعده وأن القوم ــ أنصار علي بن أبي طالب من المسلمين ــ

طلبوا منه أن يستخلف الحسن فقال لهم: "لا آمركم ولا أنهاكم" أي أن سيدنا علي بن أبي طالب رفض توريث ابنه الخلافة وترك حرية اختيار الحسن من عدمه للناس "لا آمركم ولا أنهاكم" وبذلك تكون الرواية إما أن المسلمين طلبوا من سيدنا علي بن أبي طالب أن يستخلف فأبى أو طلبوا منه استخلاف الحسن تحديدًا فرفض أيضًا وإن كان لم ينهاهم عن اختياره، وفي الحالتين لم يسمى سيدنا علي بن أبي طالب اسمًا يخلفه أما مؤرخو الشيعة فيقولون إن سيدنا علي بن أبي طالب أخلف الحسن نصًا. وتعتبر هذه الروايات متأخرة بطبيعة الحال. ففي ذلك الوقت لم يكن هناك مذهب للشيعة ولكن أنصار علي أو شيعة علي ولم تتحول إلى نظرية ورؤية ومذهب إلا في عصور متأخرة وفي كل الأحوال تنتهي بنا الروايات ــ سواء السنية أو الشيعية ــ أن الحسن لم يعرض نفسه على الناس وكان مفهومًا أن الحسن لم يكن يريد ذلك الأمر برمته فهو عارض قبول أبيه للبيعة رغم علمه فضل أبيه وقدره ورفعته كما عارض خروجه من المدينة المنورة لكن قيس بن سعد بن عبادة ــ ابن سعد بن عبادة زعيم الخزرج والأنصار ــ هو الذي دعي إلى

البيعة وطالب الناس بمبايعة الحسن بن علي فبكـــى النـــاس واستجابوا فأخرج قيس بن سعد بن عبادة الحسن من مجلسه وأجلسه للبيعة وظل الحسن يشترط على الناس أن يســمعوا ويطيعوا وأن يحاربوا من يحاربهم ويسالموا مــن ســالمهم، بمعنى أن الحسن وهو في مواقف المراقب ويعرف من تلــك الفترة التي عاشها مع والده التحزبات والصراعات ومخالفــة أوامر سيدنا علي ومناقشته لدرجة التهجم بل والانشقاق عليه، كان الحسن يدرك أن هذه المجموعة الضيقة التي كانت حول سيدنا علي بن أبي طالب وحتى المجموعة الأكثــر اتســاعًا تخالف أكثر مما توافق وتصارع أميرها أكثر ممــا تطيعــه لذلك كان شرطه السمع والطاعة، لكن عندما اشترط الحســن بن علي أن "يحاربوا من حارب ويسالموا من سالم" وكــرر هذه الجملة بدأ الإحساس لدى القوم أن الحسن طالــب ســلم وصلح وليس هذا لكم بصاحب وإنما هو صاحب سلم وصلح. كانت الأمة الإسلامية في تلك الفترة منقسمة إلى شقين الشام ومصر وما خلفهما تحت إمرة معاوية بن أبي ســفيان أمــا الحجاز والعراق فكانت تحت إمرة سيدنا علي بن أبي طالب، وكان ذلك حدود الصراع الجغرافي بــين الفــريقين. مكــث

الحسن بعد البيعة شهرين أو قريبًا من شـــهرين لا يتحـــدث عن الحرب ولا يستعد لها حتى ألح عليه قيس بن سعد بـــن عبادة وعبيد الله بن العباس وكانا هما ذراعا جيش الحسن بن علي وسنعرف لاحقًا كم أن قيس بن سعد بن عبادة كان قائدًا عظيمًا مغوارًا مخلصًا للحسن تمامًا وكلية بينما مال عبيد الله بن عباس في لحظة ما إلى معاوية بن أبي ســفيان ويمكـــن أن نستخدم تعبير تخلى عن الحسن كما تخلى عبـــد الله بـــن عباس عن علي بن أبي طالب. كتب عبيد الله بن عباس مـــن مكة إلى الحسن يحرضه على الحرب ويلـــح عليـــه فـــي أن ينهض بما كان ينهض به أبوه، واشتد إحساس الناس بعـــدم إقبال الحسن على الحرب لدرجة دفعت ببعضهم إلى اقتحـــام خيمة الحسن وتعنيفه تعنيفًا شديدًا وصل إلـــى حـــد الســـباب والملاعنة، وما كان منهم إلا أن نهبوا متاعـــه. كـــل ذلـــك والحسن لم يأخذ قرارًا بالحرب بعد، فخرج الحســـن يريـــد المدائن وأثناء ذهابه إلى هناك طعن لكن هذا الرجل لم يصب منه مقتلاً. ويقول بعض المؤرخون إن هذا الرجل كان مـــن العراقيين أصحاب الحسن الذين غاضبوه ولعنـــوه وســـرقوا متاعه، والبعض الآخر يقول إن هذا الشـــخص كـــان مـــن

الخوارج. وأرى أنه إذا كان القاتل صـــاحبه فهـــي الخيانـــة وإن كان من الخوارج فهو الغدر وما بين الخيانـــة والغـــدر وكانت معركة الحسن الأخيرة. ظل الحسن بـــن علـــي فـــي المدائن حتى يشفى من جراحه. ويقول المؤرخون إنه تعجـــل السلم في أثناء ذلك. كان الحسن بن علي يريد أن يرى انتهاء المفاوضات إلى قرار سليم. لكن هل من الممكن أن يتراجـــع معاوية عن طلب الخلافة والعرش وأن يعود عن صراع ضد علي بن أبي طالب؟ وكيف ذلك إذا كان معاوية قد أصر على معركته ضد علي بن أبي طالب وهو ـــ من هو ـــ من أرفع الخلق وأعظمهم وأحد المبشرين بالجنة وصحابي رسول الله وابن عمه؟ ومع ذلك كان معاوية يريد أن ينتزع منه وينتزع عنه الخلافة. فهل من المعقول إذا جاء الحســـن أن يرتـــدع معاوية ويرتد عن طلبه للخلافة؟ في ظني أنه بمقتل ســـيدنا علي بن أبي طالب أصبح معاوية يرى الأمر أقرب وألصـــق وأصبح يرى كرسي الخلافة في الواقـــع كمـــا كـــان يـــراه في الحلم، كان الخوارج قد حاولوا اغتيال عمرو بن العاص ومعاوية بن أبي سفيان في نفس اللحظة التي اغتـــالوا فيهـــا سيدنا علي بن أبي طالب وكان ما كان من اغتيال علـــي ﵁

أما عمرو بن العاص فلم يخرج لصلاة الفجر يومها وخرج صاحب الشرطة أو كما نقول رئيس حرس عمرو بن العاص فاغتالوه الخوارج وقتلوه. أما معاوية بن أبي سفيان فأصابته الطعنة في المؤخرة ــ منطقة أسفل الظهر ــ واستطاع أطباء معاوية معالجته وكان الأثر الجانبي الوحيد للعلاج أنه لن يستطيع الإنجاب ووافق معاوية على هذا العلاج. صحيح أنه لم يخلف بعدها لكنه استخلف فماذا فعل الحسن بن علي في تلك الأثناء؟ كون الحسن بن علي جيشاً من السفراء واتفق معهم على الصلح وأعلن أنه لن يدخل في حرب ضد معاوية، وخير الناس ما بين أن يدخلوا في السلم معه أو يحاربوا معاوية وحدهم وأعلن قيس بن سعد بن عبادة القائد الأعلى للقوات المسلحة للحسن بن علي هذا الأمر على الناس فوقف قيس بن سعد بن عبادة خطيبًا في الناس وقال لهم: "لقد أظهر لنا الحسن أنه سوف يصالح معاوية بن أبي سفيان فإما أن ندخل فيما دخل فيه الإمام الحسن وإما أن نظل نحارب وندخل المعركة على الحق بدون الإمام الحسن فاختار الناس العافية ووضعت الحرب أوزراها وفتحت

الطريق إلى معاوية نحو الكوفة فدخلها موفورًا سالمًا غانمًا منتصرًا مبايعًا له.

وعرض معاوية على الحسن ثلاثة أشياء لاكتمال الصلح هي: أن يجعله ولي عهده، وأن يجعل له راتبًا سنويًا من المال وقدره مائة ألف درهم وأن يترك له مدنًا من فارس يرسل إليه بمالها وخراجها بل ويعين الحسن بن علي حكامهم. فقال له الحسن: "إن آمنت الناس بايعتك" لاحظ أنه صالح معاوية لكنه للآن لم يبايعه بعد فكان للصلح شروطه واتفاقيته وللمبايعة شروط واتفاقية أخرى. كان كل ما يريده الحسن بن علي هو الأمان للمسلمين وحقن دماء هذه الألوف المؤلفة التي سارت خلف علي بن أبي طالب ومن ورائه الحسن بن علي ولم يكن الحسن بن علي يطمع في أو يريد ولاية العهد فلجأ معاوية إلى أسلوبه مرة أخرى وهي أن يعطيه التفويض وهو ورقة بيضاء عليها خاتمه على أن يكتب الحسن بن علي ما يرضيه من شروط فكتب الحسن: "هذا ما صالح عليه الحسن بن علي معاوية بن أبي سفيان صالحه على أن يسلم إليه ولاية أمر المسلمين على أن يعمل فيها بكتاب الله وسنة نبيه وسيرة الخلفاء الصالحين وعلى أنه

ليس لمعاوية بن أبي سفيان أن يعهد لأحد من بعد وأن يكون الأمر شورى بين المسلمين والناس آمنون حيث كانوا على أنفسهم وأموالهم" أي أن الشرط الذي قدمه وطلبه الحسن بن علي هو الأمان للناس وأن يعمل بكتاب الله وسنة الخلفاء الصالحين وهم أبو بكر وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب أما أهم شروط الحسن فهو أنه ليس لمعاوية أن يضع أو يولي أحدًا من بعده ويبقي الأمر من بعده شورى بين المسلمين. بالطبع حدث إخلال بهذا التعهد وهذه الاتفاقية.

كان كل طرف من طرفي الاتفاقية يدرك الطرف الآخر جيدًا ويفهمه فأنصار الحسن يعلمون أن معاوية لن يحترم الاتفاق أما معاوية فكان يعلم يقيناً أن وجود الحسن على قيد الحياة يمثل خطرًا عليه بقوة وشد فهو الرجل الذي كان يصارعه على الخلافة لذلك لم يكن ممكناً أن يظل الحسن حيًا بينما معاوية بن أبي سفيان يحكم ويأمر ويقود الأمة الإسلامية، فطول الوقت سيظل الحسن بديلاً متاحًا أمام المسلمين إذا ظلم معاوية أو تجاوز من الممكن أن يثور المسلمون عليه ويختاروا الحسن بديلاً له، أيضًا لم يكن ممكناً

أن يظل الحسن حيًا بينما معاوية يحكم ويـــأمر لأن الشـــرط الذي وقعه معاوية مع الحسن يمنعه من تولية ابنه يزيد ولاية العهد من بعده لذلك كان لا بد من التخلص من الحســـن بـــن علي فضلاً عن أنه في تلك الفترة لم يكن الحسن راضيًا عن سير معاوية بن أبي سفيان في الأمر، وكانت له ملاحظـــات واضحة وشديدة على استبداد معاوية والتصرف المالي لأبنائه وتحول الخلافة إلى مظاهر تبعد عـــن شـــورى المســـلمين والخلافة وتتجه إلى الملك. ورغم أن معاوية بن أبي ســـفيان كان يدرك أنه لا بد من مواصلة إمداد الحسن بن علي بمئات وألوف الدراهم والخيرات إلا أنه كان يعرف أن سيدنا الحسن خطر محدق به وعليه فكان سنة ٥٠ هجرية أي بعد مـــرور ما يقرب من ١٠ سنوات على توقيع هـــذا الصـــلح أن دس معاوية بن أبي سفيان ــ كما تقول كتب التاريخ ــ للحسن بن علي من يسمه ليخلو له ولابنه من بعده وجه الخلافة. وحتى مؤرخو السنة يرون ذلك ويردون أن معاوية بن أبي ســـفيان هو الذي دس السم أو وضع من يضع السم في طعام الحسن وشرابه.

وبالرغم أنه لا يوجد إجماع في كتب مــؤرخي الســنة على أن معاوية هو الذي أمر بدس السم للحسن أو أن الحسن مات مسمومًا إلا أن روايات التاريخ كلها تجمع علــى أنــه عندما ذهب الناس ليزورون الحسن في مرضه الأخير قــال لهم: "لقد سقيت السم مرات ولكنني لم أسق قط أشد علي من هذا السم الذي سقيته هذه المرة" ويقولون إن شدة السم كانت لدرجة جعلته يلفظ قطعة من كبده وعندما سأله الحسين بــن علي "من سقاك السم؟" أبى الحسن أن يخبره وحتى اللحظــة الأخيرة من حياة سيدنا الحسن بن علي كان يــرفض إراقــة الدماء مهما حدث وجرى وعندما أدرك الحسن أنه ســيموت كره أن يلقى الله وقد اقتص لــه بالشــبهة بــالرغم أن كــل الشبهات كانت تتجه نحو أزواجه ويزعم بعــض المــؤرخين أنها بنت الأشعث بن قيس زوج الحسن بن علي ﷺ هي التي اختارها معاوية لتدس السم للحســن فــي بعــض طعامــه أو شرابه أكثر من مرة وبأكثر من طريقة ورثاهــا معاويــة في مقابل ذلك بمائة ألف درهم، ومنهم من يزعم أنه وعــدها بأن يزوجها ليزيد ابنه فلما مات الحسن وفى لهــا معاويــة بالمال لكنه كره أن يتزوجها أو يزوجها لابنه ومفهوم طبعًــا

أنه من الصعب أن يتزوج هو أو ابنه سيدة وضـعت سـمًا في طعام أو شراب زوجها. لكن الروايات التي تنفـي عـن معاوية ترتيب دس السم للحسم بن علي لا تنفي موت الحسن مسمومًا وإن كانت لا تجيب عن سؤال من فعل ذلك؟ ومـن مصلحته دس السم للحسن وقتله والتخلص منه؟ ثم هل مـن المعقول أن يرفض معاوية ويأبى أن يـأمر شخصًـا بقتـل الحسن في حين أن معاوية وافق على وتسبب في قتل الآلاف من المسلمين في حرب من أجل العرش؟ ونكتشف أن الموت بالسم كان ظاهرة في فترة ولاية معاوية بن أبي سفيان فمثلاً المالك بن الأشهر أحد الزعامات المهمة والذي كان سـيتولى مصر وكان معاوية يدرك خطورة ذلـك الرجـل وأهميتـه ومناقشته للجميع بما فيهم معاوية نفسـه إلا أن مالـك بـن الأشهر يتوفى بالسم وهو الموقف الذي قال فيه معاوية "إن لله جنودًا من عسل" لأن السم وضع لمالك في العسـل، أيضًـا توفي عبد الرحمن بن خالد بن الوليد مسمومًا بعد الحسن بن علي لأنه كان من أهم المنافسين ليزيد بن معاوية لما له مـن رفعة وعظمة وإجماع من المسلمين. وكان الواقـع العربـي والإسلامي وقتها على قناعة أن زوج الحسن بن علي هـي

التي دست له السم في العسل، فكان يتم معايرة أخوتها بهـا كأن يقول الناس لهم يا أخ/ أخت قاتلة السم وكـان الجميـع على قناعة راسخة أن معاوية هو الذي أمر بدس السم للحسن لكي يتخلص منه ومن منافسته ومن خطره عليه وعلى ابنـه يزيد من بعده. لكن معاوية بن أبي سفيان حين تذكر خطـر الحسن نسى الحسين بن علي.

الحر بن يزيد

هناك مشاهد في تاريخ الإنسانية هي اختبار للإنسانية نفسها امتحان للبشر والبشرية ذاتها. هناك مشهد جلل وخطير ومهم ومعذب في تاريخ الإنسانية هو موقف كربلاء والوقفة الحسينية العظيمة أمام جحافل جيش زياد بن مرجانة ويزيد بن معاوية الحاصل أن أي إنسان يمكن أن يأتي إلى الدنيا ويرحل منها دون أن يمتحن أو يدخل الاختبار، وهناك لحظات يكون فيها الاختيار اختبارًا أن تكوم ما بين الجنة والنار فتتردد ويكون لديك القدرة على تحديد مصيرك ومسيرك ما بين الحق والباطل. تلك لحظات الاختيار الكبرى. لحظات الاختيار العظمى في التاريخ الإنساني، كان مشهد الحسين في كربلاء من مشاهد الاختيار والاختبار. لم يكن الحسين بن علي مجال اختبار لإيمانه وتقواه وشهادته وشجاعته لكن البشرية هي التي كانت في مجال الاختبار. فهل تنجح أم لا؟ هل ستختار الحق أم الباطل هل ستختار الحرية والعدالة أم الثروة والسلطة والاستبداد والاستعباد؟ لم يكن هناك من يمثل البشرية في لحظة الاختيار والاختبار تلك إلا الحر بن يزيد. فمن هو الحر بن يزيد؟ هو من كبراء

القوم عليتهم في الكوفة وكما قلنا كانت الكوفة عاصمة سياسية مهمة في ذلك الوقت. يدور فيها كثير من جدل والسياسة وصراعات الساسة وحالات التحزب مع أو ضد. من اللحظة الأولى لبنائها عندما أنشأها سعد بن أبي وقاص وهي تسير في التاريخ مسارًا مهمًا وخطيرًا ليس مهمًا كونه إيجابيًا أو سلبيًا ولكن المهم أنها تلعب دورًا وكان سكانها من العراقيين بطبيعة الحال ومن وفد إليهم وسكن معهم وتصاهر وتمازج معهم من القبائل العربية أو من الصحابة أو من الأنصار والمهاجرين وأدى ذلك إلى أن أصبحت الكوفة واحدة من القرارات الهامة والأرقام الصعبة في الصراع السياسي في ذلك الوقت منذ عام ٦٠ هجرية في كربلاء ولأعوام تالية لكن تظل حقيقة أن الحر بن يزيد هو أحد زعامات الكوفة السياسية والعسكرية. ذهب الحر بن يزيد إلى كربلاء مع جيش زياد بن مرجانة وإلى الكوفة في عهد يزيد بن معاوية وكان الجيش يترأسه يقوده عمر بن سعد بن أبي وقاص ابن الصحابي الجليل والمبشر بالجن وأحد المرشحين الستة للخلافة بعد عمر بن الخطاب وعلى الرغم من أن سعد بن أبي وقاص كان قد اتخذ موقفًا محايدًا

تمامًا في الصراع السياسي بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان حتى مات وعمره ثمانون عامًا وكان سعد بن أبي وقاص يبرر موقفه المحايد بقوله: "لا أقاتل حتى تأتوني بسيف ينطق فيقول لي هذا مؤمن لا تقتله وهذا كافر اقتله" ورغم أن تلك كانت سياسة سعد بن أبي وقاص إلا أن ابنه عمر كان قائدًا لجيش الباطل كما اعتبره ويعتبره معي كثيرون وهو جيش زياد بن مرجانة ويزيد بن معاوية لأنه أخذ موقفًا منحازًا ضد حفيد النبي الحسين بن علي بن أبي طالب كان الحر بن يزيد يرافق الجيش المنوط به قتل الحسين. وقف الحر بن يزيد على فرسه ينظر إلى الأمر كله بعيون دامعة وقلب واجف. بدا مرتعدًا مرتعشًا تأخذه الرعشة، تنهك قلبه من هذا الاختبار الهام والقوي. كان الحر بن يزيد يسأل نفسه ما الذي أتى بي إلى هنا؟ كان يتحرك بالفرس دائرًا حول نفسه ملقيًا على الصحراء الممتدة أمامه نظرات منكسرة ومكسورة، متأملة منتظرة لرحمة ربه تحكمت فيه الأفكار وسيطرت عليه الأحاسيس المتناقضة المتصارعة، بدا كأنه ليس الحر بن يزيد أقوى فرسان قومه وأعظم قادة الكوفة العسكريين وكانت حوافر الفرس تخبط

في الرمال تثيره غبارًا وتفجره ترابًا فوق تلك الربوة التـــي اعتلاها الحر بن يزيد في تلك الموقعة. كان الغبار والتـــراب وما أثارهما هو تعبير عن الصراع والنار التي تشتعل داخله في حماس الأفكار وتصارع الهواجس ووجد الحر بن يزيـــد نفسه بين أمرين.. بين قدرين.. بين حياتين.. بين مســـتقبلين فتردد عن يمينه جيش الحسين بن علي بن أبي طالب وابـــن بنت النبي ﷺ يحاصره الجنود والحطب والقصب والنار وهو يقف في الخيام التي يتخذها حماية لظهره ووقاية لأهله عندما تتصلب عيون الحر بن يزيد على هذه البقعة من كـــربلاء ــ كرب وبلاء على ابن نبيه الذي يصلي ويسلم عليه ويرجـــو عفوه وشفاعته كل صلاة ويقتل ويقاتل من أجل دينه فإذا بـــه مطالب أن يقتل حفيده. لكز الحر بطن فرسه وهو يسأل نفسه كأنه يوقظ فرسه ليستيقظ هو. من الذي أوقعني؟ مـــن الـــذي قادني إلى تهلكة نفسي وبيع الدين بالدنيا؟ كانت أوامر عمـــر بن سعد بن أبي وقاص قائد جيش يزيد الزاحف بأربعة آلاف جندي وفارس. واضحة أنهم يطلبون دم الحسين أو جره إلى قصر الكوفة حيث ينتظره رجال زياد بن مرجانـــة القبـــيح الدميم.. دميم الفكر والعقل والقلب وأمير يزيد بـــن معاويـــة

على الكوفة. يزيد بن معاوية الوالي الأمير الحاكم السلطان، الملك الجالس على مقعد في دمشق وزياد بن مرجانة هو واليه وحاكمه في الكوفة بدمامته ووحشيته وسوء خلقه وخلقته. يفترس عظم ابن النبي العظيم وينهش في لحم رسالته وحلم إمامته. كان الحر بن يزيد يقف ذلك الموقف الذي يصرخ فيه ومعه "ما الذي أوقفني هنا معكم يا أبناء الأفاعي؟" حدث الحر بن يزيد نفسه وهو يلتفت إلى جيش عمر بن سعد وقد حسم أمره. عمر بن سعد حسم الأمر والحر بن يزيد يتردد في أمره وقد أجبر شيطانه على التراجع لا طمع في دنيا طموح لمجد بل هو السعي إلى الآخرة. ذهب الحر بن يزيد إلى عمر بن سعد بن أبي وقاص قائد الجيش فسأله: "أمقاتل أنت هذا الرجل؟" يقصد الحسين بن علي. فأجابه عمر: "أي والله قتالاً أيسره أن تسقط الرؤوس وتطاح الأيدي" كان العنف واضحًا مؤكدًا وكان ما يمني الحر بن يزيد نفسه من أن المسألة ستكون مجرد تهديد يتراجع معه الحسين بن علي عن طلب الخلافة.

لم يكن الأمر مجرد إرهاب ليسلم الحسين بن علي ليزيد بن معاوية فالأمر جد والهلاك قادم والحسين مقتولاً لا محالة

وهو يقف بين ثلاثين إلى أربعين رجـــلاً فقــط مـــن أهـــل وعشيرته. كان كل ما يملكه الحسين بن علي من حطام الدنيا هم ٧٢ شخصًا فقط هم أهله وعشـــيرته وأنصــــاره وأبنائــــه وشقيقاته الذين ذهبوا معه إلى كربلاء. كان الحسين بن علي في تلك الصحراء الشاسعة القاتلة وحده خلفه النيران الناشبة في خيامه حيث أشعلوا النار في خيامه وأجبروه على الوقوف في العراء هو وأصحابه الاثنين وسبعين ما بين ابـــن يبكـــي وأخت تنتحب ومن معهم من النســـاء والغلمـــان والفرســـان العظام الذين التفوا حوله وحده ووحيدًا. بينما أمامــــه أربعـــة آلاف فارس يقـــودهم الطـــامع للإمـــارة المنـــافق والأفـــاق والمريض بالسلطة الذي باع دينه مقابل كيس دراهم والـــذي أجبره الخوف وضعف النفس فاندفع لمقاتلة من؟ مقاتلة ابـــن النبي ولا كذب.. ابن علي بن أبي طالب. ابن فاطمـــة بنـــت محمد. حفيد النبي عليه الصلاة والسلام.

يقف الحر بن يزيد بين جيشين.. بين عمـــرين.. بـــين قدرين.. بين منهجين.. بين الحسين بن علي وبين جيش يزيد بن معاوية. ما أضيع النفس وما أضعف القلب ومــــا أخـــف الحمل يوم العرض على الميزان، سمع الحر حوافز الفـــرس

تقترب وجسد رجل يرتج فوق ظهر فرس وهمهمة بعيدة تبدو أنها لصاحبه ورفيقه المهاجر بن أوس في رحلة الصـــحراء وصفوف الجيش وسكن الكوفة والخـــروج لقتـــال الأعـــداء والصلاة فجرًا في المسجد والتسبيح في العشـــاء وجلســـات الشعر أمام النيران تدفئ القلب والصدور فزعق فيه المهاجر منتفضًا فوق حصانه: "والله لأمرك مريب يا حـــر والله مـــا رأيت منك موقفًا قط مثل ما أراه الآن ولو قيل لي من أشجع أهل الكوفة رجلاً؟ ما اخترت غيرك فما هذا الذي أراه منك؟ فرد عليه الحر بن يزيد: "أني والله أخير نفسي ما بين الجنـــة والنار والله لا أختار على الجنة شيئًا" ومندهشًا مذهولاً تابعه المهاجر وهو يدخل بفرسه إلى حلقـــة الحســـين الصـــغيرة المقاتلة الشجاعة واقترب الحر بن يزيد من الحسين بن علي بفرسه لاهثًا واثقًا مطمئنًا ثم هبط من الفرس إلى الحسين بن علي وقال له: "جعلنا الله فداك يا ابن رسول الله. أنا صاحبك الذي حبستك عن الرجوع ــ حيث حبسه ومنعه من الرجوع إلى مكة ــ وأني جئت إليك تائبًا مما كان مني إلـــى ربـــي وموفيًا لك بنفسي وحتى أموت بين يديك أفتـــرى ذلـــك لـــي توبة؟" ذهب الحر بن يزيد إلى الحسين بن علي ليغسل ذنوبه

ويعلن توبته الكاملة "أفترى ذلك لي توبة". فنظر إليه الحسين بن علي وقال: "نعم يتوب الله عليك ويغفر لك ما اسمك؟ فقال "أنا الحر بن يزيد" فقال الحسين "أنت الحر لما سمتك أمـــك. أنت الحر إن شاء الله في الدنيا والآخرة" هذا المشهد الـــذي وفق فيه الحر بن يزيد وعرض توبته وقدم نفسه وروحه فداء للحسين بن علي، عودة عن طريق الخطأ واختيـــار للجنـــة عن النار والحق عن الباطل. هذه هي اللحظة التي كان يعتقد التاريخ الإنساني كله أنها تكون لحظة الحر بن يزيد وحـــده لكنها كانت المفترض أن تصبح لحظة كافة مـــؤمني الأرض ومسلمي الإنسانية. لحظة الاختيار الحر الذي اختاره الحر بن يزيد لكن الأمر لم يكن كذلك. ليس في تلك اللحظة فقط بـــل قبل ذلك حين خرج الحسين من المدينة إلـــى مكـــة بأبنائـــه وأخوته ومعظم أهل بيته مدفوعًا بالحمايـــة بالبيـــت الحـــرام والسكن في أمن مكة اشتدت على عنقه الضغوط وزادت فوق كواهله دعوة أمير المدينة الوليد بن عتبة بطلب بيعته ليزيـــد مقاليد الحكم طبقًا للبيعة السابقة كولي عهد فأرسل يزيد بـــن معاوية. خرج الحسين بن علي في طريق الهجرة المضـــادة فقد هاجر النبي ﷺ من مكة إلى المدينة بينما ها هو الحســـين

بن علي يخرج من المدينة إلى مكة لأن أمير المدينة الوليد بن عتبة يطلب البيعة منه ليزيد بن معاوية. كان معاوية بن أبي سفيان قد توفي في رجب عام ٦٠ هجرية وتولى يزيد إلى واليه في المدينة برسائله وقال له فيها: "من يزيد أمير المؤمنين إلى الوليد بن عتبة أما بعد فإن معاوية كان عبدًا من عباد الله استخلفه وخوله ومكن له فعاش بقدر ومات بأجل فرحمه الله فقد عاش محمودًا ومات برًا تقيًا أما بعد فخذ الحسين بن علي وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير وعبد الرحمن بن أبي بكر أخذًا شديدًا ليس فيه رخصة حتى يبايعوا" أي أن الرسالة اشترطت أن يمضي هؤلاء الأربعة حتى يمضي الملك ما إن وصلت الرسالة حتى ألح الوليد ثقيلاً على الرجال مسرعًا في تنفيذ الأمر مضبوطًا كأي والي من ولاة يزيد على تلقي الأوامر، لكن الحسين بن علي رفض إعطاء البيعة. ما كان منه إلا أن انتظر يومين ثم انطلق إلى مكة. لم يكن رفض الحسين لبيعة يزيد حتى تلك اللحظة في عام ٦٠ هجرية طمعًا في حكم أو رغبة في اعتلاء مقعد الخلافة ولا حتى إرثًا تاريخيًا من العداء بين علي ومعاوية فالحسين لا يعادي وعلي بن أبي طالب لا يعادي. هذه مناهج

للعدل والعدالة في الدنيا. موقف ومنهج ورؤية. هذا العـــداء الذي رفعت فيه السيوف والرمـــاح والســـهام والمصــــاحف وخاضوا فيه صراعًا شديدًا ومعارك شرسة وانقسامات وفتن وفرق سياسية ودينية راح ضحيتها الحسن بن علي الذي قتل مسمومًا وتثار الشبهات حول معاوية في دس السم له. بـــأن الحسن بن علي ضحية هذا الصراع وهو شقيقه فـــي الـــدنيا وفي حفادة رسول الله ﷺ وسيد شباب أهل الجنة الذي مـــات مسمومًا بالعسل وقد تحمل معاوية في التاريخ ــ رغم كـــل محاولاته وتبرأته ــ وزر دس السم إلى فم الحسن. لم يبـــايع الحسين بن علي يزيد بن معاوية خليفة للمسلمين ولـــم يكـــن الأمر أن الحسين يريدها بل إن يزيد لا يستحقها. لـــيس لأن العادل يريد أن يكون الخليفـــة بـــل لأن الظـــالم لا يســـتحق أن يكون الخليفة، لكن السؤال الذي يبرز هو إذا كان الحسين بن علي قد رفض أن يبايع يزيدًا أميرًا للمؤمنين، وإذا كـــان الحسن بن علي قد وافق أساسًا على ولاية العهد ليزيـــد بـــن معاوية فلماذا يعود ويرجع "ويتراجع" ويرفض أن يتم الأمـــر ليزيد بن معاوية؟ التساؤل الذي يبدو في مظاهره أن يتناقض وظني أنه لا يتناقض أبدًا ولا يمكن أن يتناقض أمـــرًا فعلـــه

أو فكر فيه مع أمر آخر فعله أو فكر فيه فأنا أربأ به وبعقلـــه وبنبله وشهادته ورفعته أن يكون في لحظة ما وقـــد تنـــاقض بينه وبين نفسه أو تناقض رأي له مع رأي آخر سالف لـــه. الأمر أن معاوية بن أبي سفيان ذهب إلى المدينـــة المنـــورة قبيل وفاته في موكبه بين حراسه وزعائم دولته وصـــولجانه وعزه وسلطته ومكث فيها أيامًا يلتقي برجالات المدينة الذي يعلم علم يقين بإدراك رجال السلطة والنفوذ وأنهم لن يقبلـــوا ببيعة ليزيد ما عاشوا وما عاش وهم الحسين بن علي وعبـــد الله بن الزبير وعبد الله بن عمر بن الخطاب وعبد الـــرحمن بن أبي بكر الصديق. رغم أن عبد الرحمن كان من الـــذين شاركوا معاوية في الحروب على عليّ بن أبي طالب أو على الأقل انتموا له بالقول والفعل وباللفظ والسيف إلا أن معاوية كان يعلم علم اليقين أنه لن يقبل أحدًا من هؤلاء بيزيد ومـــن ثم كانت مهمة عندما جلس عدة أيام في المدينة أن يأخـــذهم بالتهديد والوعيد ولأنه معاوية فكان يأخـــذهم أيضًـــا بـــاللين والمهادنة فأجرى معهم مفاوضات مطولة كثر فيهـــا الغمـــز واللمز والتغريب الترهيب والتنمر حتى أذعن هؤلاء الأربعة إلى الأمر رضوخًا مؤقتًا وتأجيلاً لفض الجرح وطلبًا منهم لله

عز وجل أن يتدخل برحمته ورعايته فينقذ الأمة من ذلك الأمر، بعد أن وافقوا حقناً للدماء وإبراء للذمم إلا أنها لم تكن موافقة نهائية وإنما موافقة مؤقتة تشبه الهدنة والمهادنة حتى يقضي الله أمرًا كان مفعولاً، وكان لمعاوية في هذا الأمر خطبة شهيرة يقول فيها: "لقد علمتم سيرتي فيكم وصلتي لأرحامكم ــ حيث كان معاوية بن أبي سفيان دائم العطاء لهؤلاء وغيرهم في المدينة المنورة بالأموال والرعاية المالية المادية الكاملة ومحاولة إضفاء أجواء من الرفاهية عليهم لكي يخضعوا ويخنعوا ويرقوا له في تصرفاته وسياساته ويبدوا عن جدل السياسة والمعارضة ويصبح الأمر كله أنهم أصحاب مصلحة في بقاء معاوية ما دام يجزل لهم العطاء ــ يزيد أخوكم وابن عمكم وأردت أن تقدموا يزيد باسم الخلافة" ــ أي أنه يريد أن يصبح يزيد الخليفة ــــ ومعاوية في استكمال خطبته التي ترويها لنا كتب التاريخ خطب ذلك في الأربعة الذين حددنا أسماءهم وهم الحسين بن علي، عبد الله بن الزبير، عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق، عبد الله بن عمر بن الخطاب خطب فيهم وسط حشد من الناس وقال لهم "أريد أن تسموا يزيد بالخلافة" أي توافقوا على خلافة يزيد،

على أن تعزلون وتأمرون وتجمعون المال وتقسمون أي أن الأمر يكون بين أيديكم مقابل أن يصبح يزيد خليفة للمؤمنين وكأنه ملك لا يملك وأنتم غير ملوك تملكون وتحكمون. هذا الإغراء والإغواء الذي كان من الطبيعي والمنطقي أن يعرضه معاوية بن أبي سفيان للحصول على الرضا والموافقة. قدم معاوية عرضه على مائدة المفاوضات بكل الوسائل المعتادة مكرسًا الأمر كله لصالح نفوذه ولنفوذ مصالحه. أغرى كبار معارضي خلافة ابنه بامتلاك الزمام الفعلي للإمارة والجباية والقسمة على أن يكون يزيد صورة في إطار فقط لكن الرجال الأربعة كانوا يدركون ببصر وبصيرة أنها حيلة. حيلة معاوية السياسي لا وعد معاوية صاحب الرحم والكرم فأجابه الزبير بأن يصنع ما صنع الرسول من ترك الأمر دون خليفة أو كما صنع أبو بكر بالعهد إلى رجل ليس من بين أبيه أو كما فعل عمر في ترك الأمر شورى لكن معاوية غضب وأسفر عن نيته وطوى ستار السياسة ليكشف عن ستار الملك فقال: "إنني أنذر.. أنني أحذر أن أخطب فيكم فيقوم القائم يكذبني على رؤوس الناس فأحمل ذلك وأصفح وأني قائل بمقاله وأقسم بالله لئن

رد علي أحدكم كلمة في مقالي هذا لا ترجع إليه كلمة غيرها" أي أن من سينطق ويناقش لن يستطيع فتح شفتيه بكلمة أخرى حتى يسبقه السيف لرأسه. وأضاف معاوية: "فلا يبقين رجلاً إلا على نفسه ثم أمر صاحب حرسه أن يقوم على رأس كل منهم رجلين في يد كل منهما سيف فيقف بجوار كل رجل من الرجال الأربعة. ووقف معاوية في المسجد وأعلن يزيد واليًا للعهد والخليفة القادم وكان الجميع موافقًا وإذا حاول أحدهم النطق كان السيف سينطق.

الحسين.. سيد الشهداء

بعد موت معاوية بن أبي سفيان تفرقت السبل بهــؤلاء الأربعة فعاش عبد الله حتى دخل الحجاج بن يوسف الثقفــي المدينة. بعد أن انتصر على عبد الله بن الزبير بــن العــوام الذي حكم الحجاز والعراق ١٠ سنوات. يقال إن عبد الله بن عمر كان قد كف بصره وقتها ويقال إن عبد الله بن عمر قد قتل عن طريق رمح مسموم في قدمه أصابه به الحجاج بــن يوسف الثقفي لأسباب كثيرة منها أن عبد الله بن عمر لم يكن ليضع في اعتباره أن هذا هو الحجاج الذي يستطيع بكلمة منه أن تطير رأس وبكلمة أخرى أن يطير لسان.

أما الشخص الثاني وهو عبد الله بن الزبير فهو الــذي استطاع بالفعل أن يحصل على ثمرة القرار السياسي بخروج الحسين بن علي ويقال إن عبد الله بن الزبير كان من الــذين شجعوا الحسين بن علي على الخروج من المدينة إلى مكــة ثم من مكة إلى العراق كي يطلب الخلافة أو سعيًا لمن طلبوا منه أن يقبل بخلافة المسلمين وفي النهاية فرغــت الحجــاز من قيادي عظيم إلا عبد الله بن الزبير الذي اســتطاع بعــد

مقتل الحسين بن علي بسط نفوذه وسلطته ودولته على الحجاز والعراق أما عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق فتوفي. في تلك اللحظة التي قال فيها معاوية بن أبي سفيان بمنتهى الوضوح أنه سيتحدث فإذا خرج عليه أحد بكلمة بتصديق أو بتكذيب فليضربا بسيفهما ثم خرج بهم إلى المنبر ووقف وأثنى على الرسول ﷺ وقال "هؤلاء الرهط سادة المسلمين وخيارهم ولا يبرم أحد دونهم ولا يقضي على بمشورتهم وأنهم قد رضوا وبايعوا ليزيد بولاية العهد فبايعوه على اسم الله" فبايع الناس هذا هو ما حصل عليه يزيد بن معاوية من ولاية العهد.

التهديد بالقتل وسفك الدماء إذا رفعت المعارضة كلمة فوق شفتيها لا يوحي بذكاء معاوية المصروف بذكائه ودهائه.

لا شك أنه هدد بإراقة الدماء في المسجد ودماء من؟.. دماء هؤلاء الأربعة برجالهم وأهليهم وذريتهم وتاريخهم ويحدث ذلك أين؟ في مسجد رسول الله ﷺ ومدينته هذا الفعل على الرغم في وجوده على الألسنة وفي كتب التاريخ والمراجع إلا أنه لا يمكن أن نجد له تفسيرًا واضحًا لا لبس

فيه إلا أن معاوية المسلم والحاكم والسياسي ورجل الدولة لم يقدم على مثل هذا الأمر إلا عندما أدرك تمامًا وعليه أن المطلوب صعب وشاق جدًا فهو يطلب ليزيد ولاية العهد ومن ثم خلافة المسلمين. صحيح أن الدولة الإسلامية كانت في طور النشأة والتأسيس وأن أعمدتها كانت لا تزال رطبة وصحيح أن أي خطر قد يهدد المملكة من الممكن أن يطيح بها ومن الممكن جدًا إذا قتل أحد في الأربعة أن تحدث فتنة.

لكن حقيقة الأمر أن معاوية كان متشددًا أو عنيفًا وقاسيًا ومهددًا في هذا الأمر رغم مخاطره وآثاره الجانبية، إذا أدرك بذكائه أن الرجال الأربعة لا يمكن أن يسمحوا له بإراقة الدم في مسجد رسول الله ﷺ وهم يعلمون أنه يمكن أن يفعلها. الثابت أن السادة الأربعة قد صمتوا عندما أعلن معاوية ابنه يزيد وليًا للعهد واكتفى معاوية بصمتهم وترك أثار وتبعات ذلك تعالجه الأيام مع تولي يزيد بن معاوية الولاية وظلت الأمور معلقة حتى ليلة قدوم الحسين بن علي من المدينة المنورة إلى مكة. كان الحسين بن علي يدرك تبعة خروجه رافضًا منح البيعة ليزيد بناء على طلب الوليد بن عتبة والي المدينة. كان يدرك مشقة الأمر كله. كان يدرك أنه بدينه

ودنياه وأهله ومستقبله فما هذا المنهج المالكي الوراثي الجائز حكمًا واختصام السلطة. وظلم الناس وقهـر العبـاد وجبـر الجمهور على منح البيعة بالدم. وكان يدرك في الوقت ذاتـه سوء يزيد وضعفه وهزال خلقه وانحلال سياسته، ليس قياسًا إلى الحسين كمنافس فالحقيقة لأنه لا مجال للمقارنة بين ابـن بنت رسول الله ﷺ الزاهد المقاتل السيد الحليم المؤمن الحكيم سيد شباب أهل الجنة ذلك الذي دعا له النبي ﷺ مـع أخيـه الحسن" اللهم أني أحبهما فأحببهمـا وأحـب مـن يحبهمـا" لا يصلح يزيد قياسًا للحسين لكن قياسًا للشخص الذي يمكـن أن يكون حاكمًا لأنه للمسلين فهناك شروط يجب أن تتـوافر في من يحكم المسلمين لا تتوافر في يزيد ولا ينطبق عليـه. فيزيد لا يصلح ولا يمكن أن يصلح من كان مثلـه شـغوفًا بالملذات عن انطلاقه لأي مهام قتالية أو استشـهاد.. ولعـه باللهو والصيد وقلة عقله الديني وهـواه ومنطقـه السياسـي أيضًا، عدم درايته وفهمه لشئون السياسة والحكـم. ويزيـد باختصار ذلك الذي دسه لنا المغيرة بن شعبة فـي التـاريخ عندما نصح يزيد أن يذهب لوالده معاوية كي يعينـه واليًـا للعهد فقط لكي يبقي المغيرة حاكمًا واليًا على الكوفة. فبيعت

الأمة بالكوفة لم يكن يزيد الحاكم الذي يؤتمن على أمه فضلاً بطبيعة الحال عن صعوده لسرير العرش محفوفًا بالسيوف مرفوعًا بالرماح مدفوعًا بنفوذ أبيه وجلاء قصره وخبث امرأته وطمع أوليائه. رفض الحسين بن علي أن يكون ذلك الرجل قوامًا على أمه مسلمة ورجال أشداء وصحابة ما زالت تعيش.

كان لابد من موقف وقد اتخذه الحسين فقرر أن يقول لا.. فقرر يزيد ــ ببساطة ــ أن يقتله وهذا هو كتاب يزيد لقائد جيشه ــ عمر بن سعد "أما بعد فإن لم أبعثك إلى الحسين لتكف عنه أو لتطارده ولا لتمنيه السلامة والبقاء ولا تعلم له عندي شافعًا فإن نزل الحسين وأصحابه على الحكم واستسلموا فابعث إليَّ بهم سلمًا وإن أبوا فازحف إليهم حتى تقتلهم وتمثل بهم فإنهم لذلك مستحقون فإذا مات الحسين فأوطأ الخيل صدره وظهره فإنه عاق شاق قاطع ظلوم.. ليس رغدي في هذا ــ أي رغبة مني في هذا ــ أن يضار بعد الموت شيئًا ولكن على قول قولته أن قتلته مقلت به هذا.. إن أنت مضيت لأمرنا فيه جزيناك جزاء السامع المطيع وإن أبيت فاعتزل عملنا وبصرنا وخلي بين شرم بن الجوشن

ــ القائد الثاني في جيش عمر بن سعد ــ وبين العسكر ــ أي أن يعين شرم بن الجوشن قائدًا للجيش في حالة رفضه واعتزاله ــ فإن قد أمرنا بأمرنا والسلام" واضحة إذن الأوامر. وتعني هذه الرسالة البشعة أن اقتلوا الحسين إما أن يستسلم ويمنح يزيد الإمارة وإما أن يقتل ويمثل بأصحابه وتطأ الخيل صدره وظهره لا شيء يضره ــ لا سمح الله ــ بعد الموت ولكن لأن صاحبهم عبيد الله بن زياد قد نذر ذلك حال قتل الحسين وبرفض هذا الأمر العسكري أن يرفع عمر بن سعد بن أبي وقاص عن كتفيه شرف القيادة ويرحل تاركًا العمل الميداني لشرم بن جوشن فإنا قد أمرنا بأمر "اقتلوه" هذه هي كلمة السر والعلن في أوامر يزيد بن معاوية. الغريب أن هناك بعض الروايات التاريخية تطفو على سطح المراجع وبعض أمهات الكتب تزعم أن الحسين قد عرض على جيش عمر بن سعد عندما تقابلا في كربلاء أثناء اللقاءات الليلية بين المعسكرين على الحدود أحد ثلاثة خيارات يرى فيهم عمرًا أمرًا ينفذه الحسين دون قتال أو إراقة دماء. زعموا الحسين قوله: وهي إما أن أرجع إلى مكة وإما أن أضع يدي في يد يزيد بن معاوية فيرى ما بيني

وبين رأيه وإما أن تسيروني إلى ثغر من ثغور المسلمين ــ والمقصود بالثغر ليس الميناء فحسب ولكن أي مدينة على الحدود. فأكون رجلاً من أهله لي ما لهم وعلي ما عليهم هذه الاختيارات نقلت حرفيًا إلى عبيد الله بن زياد لكنه رفضها قاطعًا بضرورة مبايعة الحسين يزيد وحضوره حتى قصر الإمارة بالكوفة وإما الموت وأرسل الرد الذي عرضناه في السطور السابقة لعمر بن سعد وهو (إما يبايع الحسين أو يقتل ويمثل بجثته) لكن من الذين صاحبوا الحسين من مكة وحتى مقتله وشهادته مثل عقبة بن سمعان نقض هذه الرواية تمامًا وقال! لم أفارقه حتى قتل وليس بمخاطبة الناس بكلمة في المدينة ولا في مكة ولا بالطريق ولا بالعراق ولا في عسكر إلى يوم مقتله إلا وسمعتها والله ما أعطاهم ما يتذاكر الناس وما يزعمون من أن يضع يده في يد يزيد بن معاوية ولا أن يسيروه إلى ثغر من ثغور المسلمين لكنه قال دعوني أذهب في هذه الأرض العريضة حتى أنظر إلى ما يصير من أمر الناس. عندما يموت البطل الرمز تخرج أحاديث إفك تنسب له سقطات وتنازلات تشوه الصور النقية التي يراه فيه الناس وتضعف من قوة الإيمان وتشكك في المواقف القاطعة

كأنهم يريدون التشويش على فكرة أن الحسين بن علي اختار الشهادة ويقولون إنه لم يكن يتمنـى إلا السـلامة والأمـان. وتزعم هذه الرواية أن الحسين عرض على أعدائه اختيـار واحدة من الخصال الثلاثة فإذا كان الأمر صحيحًا فلماذا لـم يعرض الحسين هذه الاختيارات وهو جالس في المدينة وكان ذلك من باب أولى وكانت ترسل إليـه أمـوال بـلا حـدود أو وصف من يزيد طمعًا في رضاه ومبايعة ليزيد بن معاوية لكن الجهاد الحسيني لم يكن كذلك. رفض الحسين أن يبـايع يزيد وقرر أن يستشهد وقرر أن يعطينا المثل فهو فـي ٧٢ شخص عظيم مناضل حول الحسين وهو كل ما تبقـى مـن الدنيا مقابل ٤ آلاف وكانت كربلاء.

رجال كربلاء

كان الليل مطلق العنان في تلك الصحراء التي لم يظهر فيها قمر، ولم يظهر بها فرح كذلك كالذي سطع قبل شهادة الحسين. ربما أرق أبناء كربلاء الذين عاشوا حتى الفاصل بين رمل الصحراء قبل عناق ظهر الإمام الحسين وبعدها. ربما صاروا يؤرخون أيضًا لاختلاف القمرين بين المرحلتين. قمر ما قبل شهادة الحسين وما بعدها في هذه الصحراء الكربلائية. جلس الحسين مع صحبه وأهله رجال سيماهم على وجوههم. اطمئنان الشهادة، رقة الفوز. عشق النبوة. ولاء الرجال، عناق القلوب. إصرار أولى القوة. عناد الحق. أحلام الجنة. الحنين للقاء سيدنا محمد ﷺ ومصافحة حور الجنة. قطرات من النور المصفى تفيض على جبهة الحسين وترسم عطرها فوق شفتيه وعلى محنته وبين لحظة وأخرى يرقب ابنه الصغير العليل الذي أصابته حمى فأرقدته في حجر عمته السيدة زينب تلك التي عجزت ووثبت حزنًا وألمًا عندما سمعت الحسين يهمس بشعر ينعي فيه نفسه وثبت تجر ثوبها وتحسر غطاء رأسها وتبكي دمًا من قلبها "المنزوف" واثكلاه لبث الموت أعدمني الحياة. اليوم فاطمة

وعلي أبي والحسن أخي مات يا خليفة الماضي وثمالة الباقي" سمعها الحسين فارتد واقترب منها وعانقها مبللاً بـــدموع أخ كريم وشهيد قادم قد علته نمصة في صـــوته. كمـــا ضـــمت رأسها على صدره "بأبي وأخي يا أبا عبد الله. نفسي فـــداك" وغشي على السيدة الجليلة التـــي وثقـــت أن المـــوت قـــادم وأن الحسين أخاها سيد شباب أهل الجنة ذاهب. تاركًا لوعـــة نفسه وحرقة قلبها واغتصـــاب الظـــالمين لحقـــوق النـــاس والشهداء. صب الحسين على وجهها ماء وقال لها: "يا أختاه اتق الله وتعز بعزاء الله واعلمي أن أهـــل الأرض يموتـــون وأهل السماء لا يموتون وأن كل شيء هالـــك إلا وجـــه الله. خلق الأرض بقدرته ويبعث الخلق فيعودون وهو فرد وحده. أبي خير مني وأخي خير مني ولي ولهم ولكل مسـلم فـــي رسول الله أسوة" كان يستعد بذاته للشدة ويـــروي تفاصـــيله بعينيه وهو ينظر لصحبه وأهلـــه وعلـــى وجـــوههم ســـمت الشهداء. قال لهم: "أني لا أعلم أصحاب أولـــى خيـــر مـــن أصحابي ولا أهل بيت أعز ولا أوصل من أهل بيتي وجزاكم الله عني خيرًا إلا وأنني أظن يومنا من هؤلاء الأعداد غدًا ألا وأني قد أذنت فانطلقوا جميعًا في حل ليس عليكم من دمـــاء

هذا البيت قد غشيكم فاتخذوه بدلاً وليأخذ كل منكم بيد رجـل من أهل بيتي ثم اذهبوا في بسيط الأرض وفي سواد الليـل إلا بلادكم ومدائنكم فإنما القوم يريـدونني". أبـى الشـهداء إلا الشهادة فتجمعوا حول الحسين وقالوا قولة واحدة: "لا بقاء لنا بعدك لا أراد الله ذلك أبدًا فالتفت الحسين إلى أخيه مسـلم بن عقيل وابن عمه وفارسه ومندوبه قال لهم: "حسبكم مـن القتل من قتل على يد والي الكوفة ويزيد بن معاوية، اذهبـوا فقد أذنت لكم" قالوا: "فما يكون ذلك يقولون أنا تركنا شـيخنا وسيدنا وبني عمومتنا خير الأعمام لم نرم معه بسـهم ولـم نطعن معه برمح ولم نضرب معه بسيف رغبة فـي الحيـاة الدنيا. لا والله لا نفعل ولكن نفديك بأنفسنا وأموالنـا وأهلنـا ونقاتل حتى نرد موردك فقبح الله العـيش بعـدك" وانطلـق الرفاق: "والله لا نخليك حتى يعلم الله أنا قـد حفظنـا غيبـة رسول الله ﷺ فيك: "انطلق الرفاق يقولون له ويقسمون معـه ويعلنون وإياه أنهم غير مفارقين وأنهم باقون معًا. وقال لـه أحدهم: "والله لو علمت أنني أقتل دونك ألف قتلة وأن الله يدع بذلك القتل عن نفسك وعن أنفس هؤلاء الفتية من أهل بيتـك لأحببت ذلك. إنما هي قتلة واحدة" كان ليل كربلاء يشهد على

هذه اللحظة النادرة في تاريخ البشـرية. صـحبة الحسـين يقولون: "لا أراد الله يوم فقدك ولا حاجة لنا في الحياة بعدك والله لا نفارقك وأنفسنا فداء لك. نفديك بأموالنا وأنفسنا وأهلنا وأبداننا فإن نحن قتلنا وفينا أنت وقضينا ما علينـا فيكفينـا". قضـى الشـهداء لـيلهم يصـلون ويسـتغفرون ويـدعون ويتضرعون بينما جنود وفرس عدوهم تمـر مـن ورائهـم وصوت الحسين قوي نابعًا من الجنة.. من خنـدق الشـهادة وخرج الضوء الأول من النهار على مشهد كـربلاء. وقـف الحسين بن علي فوق حصانه. نظر للكـون نظـرة مـودع والتفت للقوم التفاتة القائد. لحظة التفاتـة التـاريخ وتوقـف التاريخ على التفاتها. رفع الحسين يديه بالدعاء: اللهـم أنـك ثقتي في كل كرب ورجائي في كل شدة وأنت لي في كل أمر نزل بي ثقة. كم من المهم يضعف به الفؤاد وتقل فيه الحيلـة ويخذل فيه الصديق ويشمت فيه العدو أنزلته بـي وشـكوته إليك رغبة مني إليك فيمن سواك فكشفته وفرغته فأنت ولـي كل نعمة وصاحب كل حب ومنتهى كل رغبـة" ثـم أمـر الحسين صاحبه بإضرام النار في الحطب والخشب والقصب من خلفهم حتى لا يأتي المهاجمون من خلفهم فاشتعلت النار

من كل المداخل إلى قلوب ربما فيها بصيص من أمل. وقف الحسين خطيبًا في الفريق الظالم يتجول بفرسه يدور برأسه. يصافح العيون والقلوب والضمائر يمتلأ صوته حزنًا عميقًا مستقيمًا نافذًا يرفع يده إلى السماء يشير إلى صدره يربت على فرسه "أيها الناس اسمعوا مني نصيحة أقولها لكم. أيها الناس إن قابلتم مني وأنصفتموني كنتم بذلك أسعد ولم يكن لكم عليَّ سبيل وإن لم تقبلوا مني فأجمعوا أمركم وشركائكم ثم لا يكون أمركم عليكم غيمة ثم اقضوا إليَّ ولا تظلمون هل يصح لكم قتال من هو مثلي وأنا ابن بنت نبيكم وليس على الأرض ابن بنت غيري وعلي أبي وجعفر ذو الجناحين عمي وحمزة سيد الشهداء عم أبي. قال رسول الله ﷺ لي ولأخي (سيدا شباب أهل الجنة) أيها الناس ذروني أرجع إلى مأمني من الأرض" هل كان من الممكن أن يستمع أهل الظلم والضلالة إلى كلمة طاهرة تمام الطهر قادمة من فم عفيف فم قبله الرسول عليه الصلاة والسلام؟ هل كان ممكنًا لهؤلاء الظلمة الفسقة أن يقتنعوا أن لا ابن بنت نبي على وجه الأرض غيره وأن النبي ﷺ قال له ولأخيه (أنتما سيدا شباب أهل الجنة)؟ هل كان من الممكن أن يرضخ قلب.. أن يتحرك

ضمير.. أن تسقط دمعة.. أن تبرق فكرة؟ قالوا له: ما منعك أن تنزل على حكم بني عمك؟" فقال: "معاذ الله أنـــي عـــذت بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب. أخبروني أتقتلونني بقتيل لكم قتلته أو مال لكم أكلته أو بقصاص مـــن جراح" فأخذوا لا يكلمونه. صمتوا. فنادى: "يا فلان ألم تكتبوا لي أنه قد أينعت الثمار فأقبل علينا فإنما تقبـــل علـــى جنـــد مجندة" لم تفلح كل المداخل وأدت كلها إلى الحقيقة المؤكـــدة وهي أن الصراع لم يعد ضد الحسين ولكنه بات ضد أنفسهم وضد صوت العقل وهمس الضمير. كان لا بد وأن يحطموه ويقتلوه ويمثلوا بجسد الضمير وليس الحسين فقـــط. زحـــف عمر بن سعد قائد الجيش وقد أعمتـــه الطموحـــات الملكيـــة وعشقه لولاية العهد في دولة الفرس فوضع سهمه في كبـــد قوسه صم رمى وقال: "اشهدوا أني أول من رمـــى" وبـــدأت المعركة بهذه الانطلاقة من سهم عمر بن سعد فـــإذا برجـــل يقال له عبد الله بن حوزة يقف قبالة الحسين مناديًا: "يا حسين أبشر بالنار" فأطرق الحسين مجيبًا: "كلا أني أقدم علـــى رب رحيم وشفيع مطاع" ثم التفت وسأل: "من هـــذا؟" فقـــال لـــه أصحابه: "هذا ابن حوزة". فقال: "ربي حـــزه إلـــى النـــار"

فاشتعل حوزة غضبًا وهم باقتحام فرسه بينه وبين النهر فوقع منه وتعلقت قدمه بركاب الفرس ووقع رأسه في الأرض ونفر الفرس فأخذت رأسه تصطدم بكل حجر في الأرض حتى مات. لكن حتى المعجزات أو ما يبدو أنه معجزات لم تكن قادرة على تغيير دفة المعركة. خرج رفيق الحسين وحافظ القرآن الذي كان يحفظه لعدد من رجال جيش القتلة برقة وبرز يزيد بن عقل فانطلقا بفرسيهما إلى المبارزة فخرجت ضربتان في نفس اللحظة من كليهما فأصابت برقة صاحب الحسين ضربة خفيفة لم تضره أما ضربته بسيفه النار فقد اخترقت رأس يزيد فأفقدته التوازن والحياة فسقط من الفرس صريعًا فاندفع شخص آخر من رجال الجيش الظالم وسقط بجسده فوق برقة الذي عاركه مقاتلاٍ مستبسلاً وبينما كان على وشك الانتصار فإذا بكعب بن زيد يغرس رمحًا في ظهره غدرًا وخيانة فقاتل برقة والرمح مغروس في ظهره بيديه وأصابعه لكن كعب بن زيد عالجه بطعنة قاسية فما كان من المقاتل الشرس صاحب الحسين إلا أن نهض على ركبتيه ونفض التراب عن جسده وهو يقول: "أنعمت عليَّ يا أخ السوء نعمة لن أنساها أبدًا ثم نظر إليه

والتفت ناحية الحسين مبتسمًا مودعًا ثم إلى ذهب إلـــى ربـــه "اتجه الحر بن يزيد إلى إحدى قيادات الجيش الظالم ليتبـــارز معه، كانت نفس الحر على كفه لذلك عنـــدما رفـــع السـيف وهوى به على الأخير مات من فوره في تلك اللحظـــة كـــان رجلات الحسين ينتصرون في كل مبارزة فصاح أحد رجال جيش القتلة بالناس: "يا حمقى أتدرون مـــن تقـــاتلون؟ قـــوم مستميتون لا يبارزون منكم منهم أحدًا فـــإنهم قليـــل وقلمـــا يخسروا والله ولولا أن ترموهم بالحجارة لقتلتمـــوهم" فقـــال عمر بن سعد: "صدقت الرأي" ثم أرسل لرجالـــه ألا يبـــارز رجل منكم رجلاً منهم وأصدر أمره العسكري بمد فرســـان جيشه بخمسمائة من الرماة وشقوا خيل الاثنين وثلاثين فارس الحسين فماتوا جميعًا. وصار أصـــحاب الحســـين فـــرادى راجلين فوق الأرض البطحاء التي رويت بدمائهم الزكيـــة. وفي حين كانت الأحصنة تحمل الجروح فوق جيش الحسين المحدود في العدد والعتاد كان أحدهم يتضرع للحسين وهمس في أذنه وهو يقول على باب الآخرة ويلفظ أنفاسه الأخيـــرة: "بشرني بالجنة بشرك الله بالخير" فقال له صديق آخر: "لولا أنني أعلم أنني في أثرك ورواحك لأحببت أن توصيني بكـــل

ما أهمك" فرد عليه: "نعم أوصيك. أوصيك أن تلزم هذا رحمك الله" وأشار بيده التي دنت من الموت إلى الحسين وهمس همسته الأخيرة: "أوصيك أن تموت دونه" فبكى صديقه واحتضن جسده المسجي في دمائه وهتف: "أفعل ورب الكعبة". انطلق شمر الجوشن.. المرشح لقيادة الجيش خلفًا لعمر بن سعد. نحو فسطاط الحسين بينما اشتعلت النيران في خيام الشهداء وأحرقوها عن آخرها. انطلق شمر نحو فسطاط الحسين حتى طعنه برمح فهوت الخيمة على نساء وأبناء الحسين فصرخت النسوة ومزق صراخهن نياط القلب. ونادى شمر متوحشاً: "عليَّ بالنار حتى أحرق هذا البيت على أهله "فصاح الحسين به: "حرقك الله بالنار" ساعتها رحل شمر دون أن يشعل نار حقده في فسطاط الطهر وبدأت قائمة الشرف في الاكتمال. الشهداء يذهبون إلى ربهم يوصون الذي يحيى بالذي يحيى بينهم شهيدًا ويستشهد بينهم حيًا. يوصونه بالحسين حتى التفتوا فإذا هم قلة يعدون على أصابع اليد الواحدة وأنهم باتوا لا يستطيعون منع حسيناً ولا أنفسهم فتنافسوا بأن يقتلوا بين يدين الحسين: "يا أبا عبد الله عليك السلام حادنا العدو إليك فأحببنا أن نقتل

بين يديك. نمتعك وندفعك عنك "فرد عليهم: "مرحبًا بكم أدنوا مني" فدنوا منه.

"أتينا ابن عم وإخوان الأم" واقتربوا منه وهما يبكيان:

ــ "أي ابن أخي ما يبكيكما"

"جعلنا الله فداك، لا والله ما على أنفسنا نبكي ولكننا نبكي عليك نراك وقد أحيط بك ولا نقدر على نمنعك" ثم قائلاً بين يديه واقترب من الحسين حنظلة بن أسعد "أفلا نروح إلى الآخرة ونلحق بإخواننا" فقال الحسين: "رح إلى خير من الدنيا وما فيها وإلى ملك لا يبلى" فهتف به حنظلة: "السلام عليك يا أبا عبد الله وعلى أهل بيتك وعرف بيننا وبين جدك رسول الله ﷺ "فقال الحسين: اللهم آمين". فقاتل حنظلة حتى قتل، جثا أبو شعث الكندي على ركبتيه بين يدي الحسن ورمي بمائة سهم أصابت كلها عدا خمسة فقط ثم عتل علي بن الحسين الأكبر مضيئاً منطلقاً رافعًا سيفه على الظلم وفرسانه والدنيا وزينتها بين لحظة وأخرى ينظر إلى أبيه فيشرب يقينه ويمتص رحيقه، يعدو على العدو ويقتل ويصرع حتى لمحه (مر بن المنقذ) أحد فرسان الظلم فأوجس في نفسه أنه قاتله ولما هم علي فوق الأرض اجتمع حوله

حشد من السيوف التي تزاحمت فوق جسد الشاب وأعملت فعلها الوحشي في الفتى فاقترب الحسين محتسبًا الأجر عند ربه ولثم ولده وبكى دمعه وهمس: "قتل الله قومًا قتلوك يا بني ما أجرأهم على الرحمن وعلى انتهاك حرمة رسوله. على الدنيا العفاء من بعدك" ثم التفت وقال: "احملوا أخاكم". اندفع غلام من آل الحسين مذعورًا من صوت السيوف ولون الدماء وعصف الجثث يلتفت يمينًا وشمالاً باحثًا عن حضن دافئ ينقذه من بشاعة ما يحدث فإذا برجل يخرج بسيفه راكضًا على فرسه حتى دنا منه ومال عليه وقطع بالسيف وبينما سقط الابن الشهيد في حجر الحسين وحاول الحسين أن يغمض عينيه مبتعدًا عن الدم المسكوب والجرح المفتوح إذ رماه أحدهم بسهم فذبحه في حجر الحسين فتلقى الحسين دمه في كفيه ثم صبه على الأرض وبيده المغطاة بدماء ابنه رفعها إلى ربه: "ربي إن تك حبست عنا النصر من السماء فاجعل ذلك لما هو خير وانتقم لنا من هؤلاء الظالمين"، مرت دقائق القتال عصيبة ودنت الشهادة حتى أعناق الرجال. عطش الحسين واشتد به العطش فاقترب ليشرب من الماء فأتاه أحدهم بسهم فوقع في فمه فجعل يتلقى الدم من فمه

ويرمي به إلى السماء: "اللهم أحصهم عددا واقــتلهم جــددًا ولا نذر على الأرض منهم أحدًا" ودخل الحســين معركتــه الأخيرة عطشانًا للماء وللشهادة.

الحسين أمام أربعة آلاف مقاتل إلا قليلاً. وحيــدًا فــي الصحراء والرمال والقتال والعدد والنقــاء والبقــاء. وحيــد تمامًا. النساء يقفن أمام الخيام وينتظرن باكيــات مروعــات مجزوعات لهذا المشهد اللانهائي. علي بن الحســين طفلــه الصغير المريض العليل ينظر في حضن السيدة زينب. ينظر وهو محموم بهذا المشهد المضجع. وحيدًا جدًا. خيل سقطت وأخرى وقفت مجهدة مرهقة مدلاة الأذن والرؤوس بأجســام خرقت ودماء انتشرت وأعضاء بعثرت. ســيوف تكســرن. رماح تحطمت. ثياب تمزقت. خيام أخرقت وحيد تمامًا. الكل يعرفه وهو وحيدًا جدًا قادمًا من زمن النبوة صاعدًا إلى ربوة الجنة تحاصره عيون ورماح وســيوف وخيــول تتشــارك وتتقاسم كلها السواد. فصاح شمر في الناس" ويحكــم مــاذا تنتظرون بالرجل. اقتلوه". فحمل عليه من كل جانب ضــربه سيف في كتفه اليسرى ثم ضربه على عاتقه وانفضوا عنــه وهو يميل ويكبو وحمل عليه سهام بن أنس فطعنه بــالرمح

فوقع. جثا على ركبتيه وكتفيه وصدره. التفـوا واسـتداروا وعبثت خيولهم بالرمال واندفعوا وانهالوا بالسـيوف علـى جسده ثم هتفوا في (خولي بن يزيد): "اختز رأسـه" فـأراد أن يفعل فضعف وارتعد. لكنه لمح بريـق سـيف وصـوت السلطان فنزل عن فرسه وذبحه. ذبح الحسين. ثلاثة وثلاثون طعنة وأربع وثلاثون ضربة في جسد الحسين. تقدموا منـه فانتزعوا سيفه وثيابه وسرقوا سراويله. وبقى وحيدًا عاريًـا. وحيدًا تمامًا على الأرض المنكوبة. ثم تقدم القتلـة بخيـولهم فداسوا على عظامه ولحمه ومرت على جسده وضغطت على أطرافه وحطمت بدنـه وأصـابته بالكسـور والرضـوض والجروح، حوافر الخيل فوق صدر الحسين. خيل يزيد بـن معاوية ودولته فوق صدر وحلم الحسين.

سالم مولى أبو حذيفة

اشترى أبو حذيفة غلامًا وقال إنه غدا به منزلة الابن من أبيه فقالت قريش: "نعم ما صنعت" وكان ذلك تقليدًا طبيعيًا ومتبعًا قبل الإسلام، أن يتبنى أحد أحدًا ويصبح اسمه ملتصقًا به. ومنذ ذلك اليوم أصبح الفتى يدعى سالم بن أبي حذيفة. مرت شهور قليلة وبعث الله نبيه بدين الحق، فكان أبو حذيفة وابنه سالم من أوائل من شرقت نفوسهم بإعلان الإسلام واستنارت قلوبهم بنوره. ومضى الأب وابنه إلى رسول الله ﷺ، وأعلنا إسلامهما بين يديه في ذلك الوقت ومنذ ذلك الحين شهدا مع النبي بعد أن شهدا الشهادة الأولى أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدًا عبده ورسوله. لم يمض وقت طويل على دخول أبي حذيفة وسالم دين الله حتى أنكر الإسلام التبني، وأمر الناس برد الأبناء إلى آبائهم حفظاً للأنساب. لكن المفارقة أن أبي حذيفة لم يهتد لوالد سالم على الرغم من كثرة البحث والتمحيص ومن ثم لم يجد له أبًا وذلك لأن سالمًا تم اختطافه وبيعه وهو صغير لم يدرك بعد وهو يجلب إلى مكة ويباع في سوق النخاسة وهو في سن لا تمكنه من أن يعرف لنفسه أبًا أو أمًا. فأطلق عليه الناس

سالم مولى أبو حذيفة. وأصبح سالم مولى أبو حذيفة لكن لم تكن العلاقة بينهما علاقة مولى بمولاه ولكن علاقة أخ بأخيه وقد وحد الإسلام بين قلبيهما وآخى الإسلام بين نفسيهما وغمر قلبهما حب رسول الله وحب الله سبحانه وتعالى وحب دين الحق رغم فارق السن بينهما ورغم أنهما كان في عمر الأب والابن إلا أنه بعد الإسلام صارا موقع الصاحب من صاحبه والصديق من صديقه. أصبح بين المصاحبين منذ اللحظة الأولى لإسلامهما ومنذ اللحظة الأولى حتى الأخيرة لم يفرق بينهما أحد ولا شيء لكن فرق بينهما أحداث الشرك والكفر حينما حدثت أحداث جسام ومعاناة جبارة عاناها وكابدها المسلمون الأولون من قسوة الكفار والمشركين. اضطرت البعض إلى الهجرة. كانت الهجرة الأولى إلى الحبشة مهاجرًا إلى الله ورسوله فارًا بعقيدته من أذى قريش. أما سالم فآثر أن يبقى في مكة مع رسول الله ﷺ. وأخذ سالم يعكف على كتاب الله عز وجل يأخذه غضًا طريًا كما أنزل على النبي عليه الصلاة والسلام، ويتلو آياته البينات بخشوع ويستحضر سوره المنزلة بفهم وتدبر، وكان موهوبًا في ذلك حتى غدا واحدًا من كبار حملة القرآن في عهد النبي عليه

الصلاة والسلام وأصبح رابع أربعة أوصى الرسول الكـــريم بأن يؤخذ عنهم القرآن فقال عليه الصلاة والســـلام "اقـــرأوا القرآن من أربعة عبد الله بن مسعود وسالم مولى أبي حذيفة وأبي بن كعب ومعاذ بن جبل" فعرف الصحابة فضل ســـالم عليهم لحفظه لكتاب الله وإتقانه له وإدراكه لمراميه وتـــدبره معانيه ولم يعد سالم مولى أبـــي حذيفـــة مجـــرد صـــحابي في صحبة رسول الله بما لهم من فضـــل ومكانـــة ومنزلـــة وتقدير، ولكنه برز عنهم واختط لنفسه خطًا وعرف لنفســـه مسارًا وأدرك لنفسه تميزًا وهو القرآن الكريم. فأصبح أحـــد أربعة يؤخذ عنهم قراءة القرآن الكريم، ولما هاجر المسلمون من مكة إلى المدينة دعوا سالم ليؤمهم في الصلاة ويدل ذلك على عظمة وروعة هذا الدين فسالم مولى أبو حذيفة مجهول النسب يؤم صحابة كثيرين ذوي حسب ونسب مـــن قـــريش ومن عائلات عظيمة مثل أبي بكـــر الصـــديق وعمـــر بـــن الخطاب وصحابة لهم مكانتهم في الثروة والثراء مثل عثمان بن عفان وغيره لكن عندما يذهب كل هؤلاء الصحابة إلـــى المدينة وكان الرسول عليه الصلاة والسلام وأبو بكر الصديق لم يأتيا بعد في هجرتهما. في تلـــك اللحظـــة يصـــبح إمـــام

المهاجرين هذا الذي بيع في سوق النخاسة ولا يعرف له أبًا وكان ابنًا متبنى واسمه سالم مولى أبو حذيفة وللإسلام لحظات مشرقة كثيرة في تعامله مع العبيد. فهو جاء ليحرر العبيد ويساوي بين البشر. فبلال بن رباح العبد عندما يتحرر بالإسلام يصبح صوت الإسلام وعندما يتحرر عبد الله بن مسعود بالإسلام من العبودية يصبح صوت القرآن الجهور العالي. فهو أول من جهر بالقرآن في تاريخ البشرية في مكة وعندما يؤم للصلاة في غير وجود النبي عليه الصلاة والسلام ومع المهاجرين في دولة النبي الجديدة يصبح سالم مولى أبو حذيفة إمام المهاجرين هو الذي يؤم الصلاة. هل هناك مساواة وعدل أكثر من ذلك؟ وما زال سالم مولى أبو حذيفة يصلي بهم حتى قدم النبي عليه الصلاة والسلام، عندما فتحت مكة للمسلمين أرسل الرسول عليه الصلاة والسلام بعض السرايا إلى ما حول مكة من قرى وقبائل، وأخبرهم النبي عليه الصلاة والسلام أن هذا السرايا والمجموعات الصغيرة إنما يبعث بهم دعاة لا مقاتلين. عندما كان الرسول يحاور ويبشر ويدعو كان يبعث بالسرايا دعاة لا محاربين وكان على رأس إحدى هذه السرايا خالد بن الوليد وكان في

أول إسلامه وكان على فروسيته ووجاهته وقوته إلا أنه كان به شدة وعنف ما من اللحظة الأولى لقيادته وظلت الأمـور تتراكم حتى عزله عمر بن الخطاب ﷺ عن قيـادة الجـيش وكانت تولية خالد بن الوليد لقيادة هذه السرية لـيس لإراقـة الدم واستعمال السيف لكن عندما ذهب خالد بن الوليد استخدم السيف وعندما سمع النبي عليه الصلاة والسـلام نبـأ هـذه الواقعة اعتذر إلى ربه طويلاً وهو يقول: "اللهم أني أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد" وظل أمير المـؤمنين عمـر بـن الخطاب يذكرها له ويأخذها عليه ويقول إن سيف خالد بـن الوليد فيه رصق أي اندفاع وطيش وتعامل عمر بن الخطاب مع دعوة الرسول على أنها منهج وأنه لا يصح أن نتعامـل مع الناس بعصبية السيف والعصبية هنا لا تعنـي العصـبية القبلية وإنما عصبية التوتر. كان خالد بن الوليد يصحب فـي هذا السرية سالم مولى أبي حذيفة مع غيره من المهـاجرين والأنصار. ولم يكد سالم يرى صنيع خالـد حتـى واجهـه بمناقشة حامية وراح يعدد له الأخطاء التي ارتكبها رغم أنهم في سرية عسكرية ولا يوجد في الجيش نقاشات ديموقراطية من هذا النوع ولا يوجد أخذ ورد لكن سالم مولى أبي حذيفة

كان ذاهبًا بوصفه داعية وليس مقاتلاً فكان لا بد أن يواجه ويناقش. ولما بلغ الرسول عليه الصلاة والسلام ما فعله خالد بن الوليد سأل: "هل أنكر عليه أحد؟" ما أجله من سؤال وما أروعه وسكن غضب النبي عليه الصلاة والسلام عندما أخبروه أن سالم مولى أبو حذيفة راجعه وعارضه. عاش سالم مع الرسول والمسلمين لا يتخلف عن غزوة ولا يقعد عن عبادة وكان إخاؤه بأبي حذيفة يزداد مع الأيام حتى اللحظة التي شهدت قمة هذا التمازج والتماسك والتواصل والانصهار بينهما في موقعة اليمامة. كان النبي عليه الصلاة والسلام قد توفي وتولى أبو بكر الصديق الخلافة. وفي الأيام الأولى لعهد أبي بكر الصديق ارتدت العرب حيث أعلن كثير من العرب ردتهم سواء عن طريق رفض دفع الزكاة أو مناقشة أهمية الصلاة والصوم والخمس الذي كان يدفع للنبي هل يدفعونه أم لا؟ وكانت المحصلة هي أنه كانت هناك ردة وكان هناك موقف حاسم لأبي بكر الصديق بالتصدي لهذه الردة فيما عرف باسم حروب الردة. في ذلك اليوم في موقعة اليمامة وكان أحد الأيام الذي شكل مفصلاً في تاريخ الإسلام، كان قتال مسيلمة الكذاب. استنفر المسلمون في كل

مكان للقضاء على كلمة مسيلمة الكذاب العمياء التي أوشكت تودي بدولة الإسلام وتدمر أهلها. بادر سالم وأبو حذيفة بالذود عن دين الله فلم يكن سالم يتوارى في لحظات القتال والنضال أو يغيب عنها. كان قارئًا للقرآن حافظًا ومعلمًا وفقيهًا له. لكنه كان سيفًا ساعة الحرب. ويمكن أن نطلق عليه مصحف وسيف. وكان سالم مولى أبو حذيفة من أبرز حفظة القرآن الذين توفوا في موقعة اليمامة. خرج سالم وأبو حذيفة لقتال مسيلمة الكذاب فالتقى الجمعان على أرض اليمامة ودارت بينهما معركتان طاحنتان أبلى فيهما المسلمون بقيادة عكرمة بن أبي جهل وخالد بن الوليد الكثير من ضروب الشجاعة. كما تقول كتب التاريخ يعجز عن وصفها الواصفون. وكان المسلمون المتأخرون أمثال خالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل بواسل هذه المعارك لإثبات جدارتهم بدين الله ولإثبات تعلقهم بدين الله ولإثبات قوة إسلامهم وإيمانهم وفروسيتهم وأهميتهم لهذا الجيش العظيم من المهاجرين والأنصار، كما أنهم يريدون أن يعوضوا ما فاتهم من مشاركة مع النبي عليه الصلاة والسلام في غزواته وفتوحاته وتحت إمرته وقيادة جيشه وربما أيضًا يريدون أن

يعوضوا اللحظات المريرة التي وقفوا فيها كأعداء مشـــركين في وجه رسول الله فكان خالد بن الوليد وعكرمة بـــن أبـــي جهل من القيادات العظيمة في تلـــك المواقـــع والمعـــارك، بالإضافة إلى شرحبيل بن حسنة والعلاء الحضـــرمي لكـــن المرتدين بقيادة مسيلمة لم يكونوا أقل إقدامًا على ما يفعلـــون وكانوا يملكون عصبية شديدة جديدة وتحمسًا مجنونًا في هذه المعارك. كان النصر في معركتي اليمامة حليـــف مســـيلمة الكذاب حتى أن رجاله اقتحموا خيمة خالد بن الوليد وكـــادوا يقتلون زوجته لولا أن أجارها رجل من جـــيش المســـلمين. في تلك اللحظة دبت الحمية في صدور المسلمين وبرز بينهم أبطال عز ميامين باعوا لله نفوسًا تموت اليوم أو غدًا بنفوس لا تموت أبدًا وهي الشهادة. أعاد خالد بن الوليد تعبئة الجيش فأسلم لواء المهاجرين لسالم مولى أبي حذيفـــة فهـــو غمـــام المهاجرين في الصلاة والحرب وأسلم لواء الأنصار لثابـــت بن قيس ووقف أبو حذيفة وهو ينادي: "يا أهل القرآن زينـــوا القرآن بفعالكم" ثم ذهب مجاهدًا حتى استشهد مقبلاً نحو جنته أما سالم مولى أبو حذيفة فتوجه إلى المهاجرين وقال: "بـــئس حامل القرآن أنا إن أخذ المسلمون من جهتي وأعلن القتـــال

حتى الشهادة" ثم اندفع يدافع عن راية دينه حتى قطعت يده فأخذ الراية بشماله وناضل عنها حتى قطعت هي الأخرى فأخذ الراية بعضديه وفخذيه وثبت بها حتى ملأته الجراح، وسقط على الأرض ولما انتهت المعركة وقف خالد بن الوليد على جسد سالم مولى أبو حذيفة المسجى أمامه وكان لا يزال به رمق فقال له سالم: "ما صنع المسلمون يا خالد؟" فأجابه: "كتب الله لهم النصر وقتل مسيلمة الكذاب وهزم جنده وأتباعه" فسأل سالم: " وما فعل أخي أبو حذيفة؟" فرد خالد: "مضى على ربه مقبلاً غير مدبر وقتل شهيدًا" فقال سالم: إمام المهاجرين في الصلاة والحرب ورافع رايتهم في رمقه الأخير: "أضجعوني إلى جواره" فقالوا له: "ها هو ذا راقد في شهادته عند قدميك" فأغمض عينيه وهو يقول: "معًا هنا يا أبا حذيفة ومعًا هناك إن شاء الله" ولفظ آخر أنفاسه.

مواقف عمرية

تتوقف كتب التاريخ عند سيرة عمر بن الخطاب عند نقطة في غاية الأهمية والدقة والرقة. عندما نتأمل فيها ونكتشف أن سيدنا عمر بن الخطاب كان قد أصدر قرارًا واضحًا صارمًا لا فصال فيه ولا تراجع عنه ولا مراجعة معه وهو ألا يترك المدينة أحد من المهاجرين، وألا يخرج خارج حدودها إلا بإذن منه وكان لا يأذن إلا بموافقة منه وكان يوافق على مضض أحيانًا وأحيانًا أخرى كثيرة يرفض. كان الخروج الكبير من المدينة المنورة في وقت وتوقيت سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ بمعنى أن سنوات خلافة أبي بكر القليلة استغرقت في حروب الردة والمرتدين وكانت هناك وقتئذ حروب حقيقية وانتصارات فاتحة في العراق شمالاً لكنها لم تكن على نفس درجة وأهمية واتساع الحروب التي تمت في عصر سيدنا عمر بن الخطاب، ويحدث هنا مفارقة غريبة وهي أن سيدنا أبا بكر الصديق كان يسمح للصحابة وللمهاجرين أن يتركوا المدينة المنورة وأن يخرجوا منها قتالاً أو إقامة خارج المدينة في الشام والعراق وما إلى ذلك من البلاد المفتوحة وليس في الجزيرة العربية. لكن

سيدنا عمر بن الخطاب أصدر قرارًا بمنع الصحابة من ترك المدينة والخروج منها. السؤال الأول الذي يسترعي انتباهك هو لماذا كان الصحابة يريدون الخروج؟ هذه المدينة المنورة التي تشهد في كل شبر ومتر منها ذكرى غـزوة أو جلسـة أو لقاء مع رسول الله. وتمتلئ بعطر النبوة ونفحاتها وذكراها وسنوات الانتصار العظيمة. وفترة الإيمان العظمى وإشراق الإسلام. فإذا كانت الناس تسعى حثيثًا بعد ١٥٠٠ سنة إلـى الذهاب إلى المسجد النبوي لتحتمي به وفيه فما بال هـؤلاء الصحابة المهاجرين كانوا يريدون الخروج منهـا؟ السـؤال الثاني هو ما حكمة هذا القرار؟ كان لعمر بن الخطاب تعبير قوي هو "أن قريش تريد أن تتخذ مال الله معونات دون عبادة ألا وابن الخطاب حي فلا أني قائم دون شعاب المدينة فأخـذ برجال قريش وحجزها أن يتهافتوا في النار" إلى هذه الدرجة كان عمر بن الخطاب يعتقد أن خروجهم معناه التهافت إلـى النار. فلما تولى عثمان بن عفان الخلافة سار سيرًا آخـر، وتكتشف أن هناك خلافًا واضحًا شاسعًا كبيرًا بـين سياسـة ثلاثتهم رغم أن عثمان بن عفان عندما تولى الحكم اشـترط عليه أن يأخذ بسنة النبي عليه الصلاة والسلام وسنة الخلفـاء

الراشدين من بعده أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب لكنه خالف من هذه السيرة والسنة تمامًا (سنة الشيخان) وهذه علامة فارقة وشديدة الإيضاح الفرق بين سياسة عثمان بن عفان وسياسة عمر بن الخطاب وهذا شيء لا يعيب أيًا منهما. فالخلاف في الفقه رحمة فما بالك بالخلاف في السياسة هو تقدم ولا شك. لا داعي لإيضاح الفرق بين عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان فكلاهما صحابي عظيم جليل لا قبل لأحد أن يصل إلى هذه القامة العظيمة الرائعة الرفيعة العالية في التاريخ الإسلامي ولا قبل لأحد أن يتحدث عن فروق بين شخص وآخر. لكن يمكننا لكي نتعلم ونتدبر ونفهم أن نقارن بين سياسة وأخرى. كانت سياسة عمر هي منع المهاجرين من الخروج من المدينة ووصل به الأمر أنه كان يمنعهم من الجهاد والقتال في سبيل الله، وهنا يبرز السؤال من الممكن أن يخرج الصحابي من المدينة إلى العراق أو الشام أو مصر لكن كيف يطيق أن يقيم ويعيش هناك بعيدًا عن بيت الله الحرام وبعيدًا عن المدينة المنورة والمسجد النبوي؟ حيث اقتصر قرار عمر بن الخطاب على منع الصحابة من الخروج من المدينة فقط. أما عثمان بن

عفان فلم يأخذهم بالذي أخذهم به عمر بن الخطاب فانساحوا ــ فانطلقوا ــ في البلاد وسكنوا وأقاموا فلما رأوا الدنيا ورآهم الناس كان ذلك ــ كما يقول بعض المؤرخين ونقاد التاريخ ــ أول وهن دخل على دولة الإسلام أي أن ذلك كان أول ضعف وفتنة في العامة وكانت تلك اللحظات هي التي بدأت، فيها الوهن والضعف في الدولة الإسلامية. وهي اللحظات التي بني عليها بعد ذلك حالة وظاهرة الفتنة الكبرى في التاريخ الإسلامي والحرب الأهلية التي دارت بين المسلمين وانتهت إلى تحول الخلافة الإسلامية إلى ملك عضود. ملك معاوية والوراثة وما إلى ذلك من قرون يمكن أن تعتبرها قرون فتح سبيل الله واتساع لدولة الإسلام لكنها كانت أيضًا عصورًا من الاستبداد. وانتهت إلى تساقط وتهافت هذه الحضارة الإسلامية العظيمة والتي بنيت بالإيمان وسقطت بالاستبداد ــ ويقولون إنه عندما مات عمر بن الخطاب لم يمت حتى ملته قريش لأنه حاصرهم بالمدينة وامتنع عليهم قائلاً: أن أخوف ما أخاف على هذه الأمة انتشاركم في البلاد" لدرجة أن الرجل كان ليستأذنه في الغزو وهو ممن حبس في المدينة من المهاجرين، فكان عمر بن

الخطاب يقول له: "يكفيك غزوك مع رسول الله". لكن عثمان بن عفان خلى عنهم فانساحوا وانتشروا في البلاد فانقطع إليهم الناس. فكان عثمان بن عفان أحب إليهم.

عندما خرج الصحابة من المدينة بدأ الناس يجتمعون حولهم وبدأ الناس يعاملون الصحابي على أنه المهاجر في سبيل الله مع النبي. إذن له من التقدير والمكانة ما تحول الأمر معه إلى قيادات منفصلة وجزر منعزلة، لكن الفاصل في هذا القرار أن عمر بن الخطاب منع مهاجري المدينة المنورة من الخروج منها والانطلاق في الأرض الرحبة، وحتى من الخروج والمشاركة في القتال من أجل رفع راية الإسلام وإعلاء راية ولواء الإسلام خفاقًا عاليًا في السماء، لأنه كان يعرف طموح قريش ورغبتها في النفوذ. وكان عمر بن الخطاب يدرك ويعلم ويعي أن الإقبال على الإسلام مفتوح للإقبال بالإسلام على السلطة أيضًا. بمعنى أنه هناك سلطة ونفوذ ومال وثروة. وإسلام عظيم يفتح العالم كله فهذا يجعل صاحب الرغبة في العلو والرفعة والشأن والشأو والمكانة أن يصبح مفتوحًا أمامه إغراءات وإغواءات أخرى. فقريش معتادة على السلطة والقيادة والمكانة والعظمة ثم

أصبحوا مؤمنين بدين عظيم وفاتح متألق في قوته وعظمته وفتحه ورفعته، وهو ما يغري بالبحث عن قوة إضافية ومكانة عالية وسلطة وعظمة دنيوية.

عندما قرر سيدنا عمر بن الخطاب أن يمنع المهاجرين وأهل قريش من الخروج من المدينة المنورة كان يعرف قيمتهم وكان يعرف ما عرف الرسول ﷺ لهم من فضل ومنزلة عظيمة. منزلة الهجرة مع النبي عليه الصلاة والسلام في سبيل الله إلى المدينة المنورة وعندما حبسهم في المدينة اختصهم بكثير من العناية والرعاية والعطايا والرواتب. وكانوا يمارسون التجارة والأعمال داخل المدينة، فليس المقصود من تعبير (حبسهم) أنه سجنهم أو أنه كان يعاملهم معاملة الطبقة الأقل أو أنه كان يظلمهم. فعمر بن الخطاب لم يظلم ليشتهر بالعدل وإنما هو عادل في كل تصرفاته وقراراته على الأقل عندما نحللها ونقيسها بعد ١٥٠٠ سنة. كان عمر بن الخطاب حريصًا عليهم لدرجة وقوفه على شعاب (حدود) المدينة المنورة وهذه الاستعارة البلاغية التي قدمها عمر بن الخطاب ليظهر إلى أي حد هو متشدد في هذا الأمر، بأنه سيقف بنفسه على حدود المدينة ليمنع أي مهاجر

من الخروج من المدينة إلى العراق أو الشام. كان كثير من أبناء قريش عن نية صادقة يريدون أن يعوضوا بالبلاء في القتال في الفتوح الإسلامية ما فاتهم من مشاركة ومصاحبة النبي في غزواته وقتاله ومعاركه، ولذلك كان أكثر الناس سرعة في الاستجابة إلى الغزو سواء في الدفاع عن الإسلام في حروب الردة أو في الفتوحات العربية الكبرى التي انطلقت إلى الشام والعراق وفارس ومصر، وكانوا من أكثر الناس الذين نفروا إلى القتال خفافًا وثقالاً هم الذين أسلموا في وقت متأخر بعد انتصار الإسلام وفتح مكة. كان المسلمون المتأخرون في إسلامهم من أبناء قريش أهم وأسرع وأقوى الناس في المشاركة في الحرب من أجل الفتح الإسلامي. لماذا؟ ليعوضوا ما فاتهم مع النبي عليه الصلاة والسلام ورغبة في الشهادة ورغبة في إظهار كل كوامن الإيمان وكيف أن الإيمان تغلغل فيهم تمامًا، فكانت حالة الفرار إلى المعارك. وكانوا من أقوى المجاهدين وكان منهم شهداء كثيرون والواقعة الشهيرة التي نكررها هي أنه عندما مات عكرمة بن أبي جهل، واستشهد في معركة اليمامة التي كانت ضمن حروب الردة على جيش مسيلمة الكذاب. عندما

استشهد عكرمة أراح خالد بن الوليد رأسه على حجره فقال عكرمة: "يزعم عمر أننا لا نستشهد" بمعنى أن سيدنا عمر بن الخطاب كان يرى أن طموح القريشيين إلى الدنيا أعلى كثيرًا من طموحهم إلى الدين. وكانت هناك رغبة من زعامات ورجال قريش من المسلمين المتأخرين إلى الإسلام قبل أي شيء وقبل أي رغبة في عظمة دنيوية.

أيضًا من مشاهد عمر بن الخطاب مع الصحابة مشهده مع عبد الرحمن بن عوف أعظم الأثرياء وأثرى العظماء والمبشر بالجنة حيث كان النبي عليه الصلاة والسلام قد أحل له لبس الحرير بقرار استثنائي نبوي لأنه كان يعاني من حساسية ــ أو كما تقول كتب التاريخ من حكة ــ من القماش العادي فكان يلبس الحرير حتى لا يصاب جسده بالتهاب. ومن المعروف أن لبس الحرير ممنوع دينيًا للرجال فكان لا بد من استثناء نبوي، فأحل له النبي لبس الحرير، أقبل عبد الرحمن بن عوف ذات يوم على سيدنا عمر بن الخطاب ومعه أحد أبنائه وقد لبس قميصًا من حرير فنظر إليه عمر وسأله: "ما هذا؟" ثم أدخل يده في جيب القميص فشقه على نصفين، فقال عبد الرحمن بن عوف: "ألم تعلم أن رسول الله

ﷺ رخص لي في لبس الحرير؟" فرد عليه عمر بن الخطاب: "بلى لشكوة شكوتها أما لبنيك فلا." كان الحسم العمري واضحًا في ألا يستخدم النص النبوي بشكل فيه امتياز وتمايز وبتجاوز عن سواء الأمر وحقه. فكان عمر بن الخطاب شرسًا في الحق ويرفض توسع المهاجرين فيما منحهم إياه الرسول عليه الصلاة والسلام من منزلة وكرامة. عندما جاء عثمان بن عفان كان عليه أن يسلك سبيلاً من السبيلين لا ثالث لهما، إما أن يشتد كما اشتد عمر فيمسك زعماء المهاجرين في المدينة، ويظهر لعامة قريش ما كان عمر بن الخطاب يظهر لها من سوء الظن في نظرة آل قريش على أمور الحكم والولاية. وكان عمر بن الخطاب يريدها شائعة بين العرب والمسلمين فلا ينهض بهذه الخلافة والولاية وأمورها إلا القادرون على احتمال أعبائها أو أن يخلي بين قريش وبين الطريق إلى السلطة والولاية.

كان عثمان بن عفان أمام أحد الخيارين إما أن يمنع أو يترك ويفتح فاختار الثانية راضيًا أو مقتربًا بها إلى نصرته وأهله وعشيرته، فخالف بذلك السيرة العمرية مخالفة كانت أشد خطرًا وخطورة من أي شيء آخر. كما أعطى

عثمان بن عفان كثيرًا من الأموال والمنح والجواهر، وسمم بالتفرق إلى الأرض فاجتمع جند غالبون برعية مغلوبين. جند عظام جدًا يتعاملون مع أغلبية مهزومة بما عندها من إحساس في التقرب ورغبة في التودد والتعلم أيضًا مع إسلامهم. فأصبح لكل شخص من الذين ذهبوا وتفرقوا في الأرض من أصحاب المال والثراء من الجند الغالبين، أصبح لكل منهم أتباع وأشياع ولكل منهم حزب يرى أنه أحق الناس بولاية أمور المسلمين، وينتهز الفرصة ليتمكن من ولاية أمور المسلمين خاصة أن عثمان بن عفان عين كثيرًا من أقاربه وذوي رحمه وأبناء أسرته وتحول هذا الأمر من منع للمهاجرين وآل قريش من الخروج من المدينة المنورة إلى الأمصار والولايات إلى السماح عندما أذن عثمان بن عفان بالخروج من المدينة. فأصبحت هناك مراكز قوى ضخمة وكبيرة وسياسية ودينية، فأصبح هناك مدارس وأفكار وفقه مختلف ومغاير كما أصبح هناك مراكز ثراء. وأدت كل هذه الأمور إلى الثورة على عثمان والتي أدت بدورها إلى مقتله.

بلال.. نداء الحق

إذا افترضنا أن بلال بن رباح أسلم في السنة الأولى للدعوة حيث كان سبب إسلامه أبا بكر الصديق. ومن ثم حدث ذلك في السنة الأولى للدعوة فهذا يعني ببساطة أن بلال شهد الإسلام في مكة قبل الهجرة، ثم شهد الإسلام في المدينة منذ الهجرة وحتى وفاة النبي عليه الصلاة والسلام ثم مات بلال عام ٢٠ هجرية في خلافة عمر بن الخطاب، أي أن عمر بلال في الإسلام أكثر من ٣٠ عامًا. هذه الثلاثون هي أعظم فترة في التاريخ الإسلامي ففيها عهد الرسول عليه الصلاة والسلام ثم الشيخين أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب. وهي الفترة التي كان الإسلام فيها صافيًا، وكانت الدولة الإسلامية هي الأعظم في أنحاء العالم صفاء ونقاء". نستطيع أن نقول إن بلال عاشر أحسن وأفضل سنوات الإسلام وعافاه الله من شرور الفتن. حين يقتل المسلم أخاه المسلم أي أنه لم يختبر في معركة الفتنة عندما انقسم المسلمون إلى فسطاطين. معسكرين. حزبين. قسمين. ففي البداية كانت الثورة على عثمان وانقسم فيها المسلمون ما بين مؤيد لعثمان ومعارض له، ثم ما بين مؤيد للثورة عليه بشكل

حاسم حتى قتله أو عزله، وبين معارض لـــه لكنـــه لا يقـــر الثورة المسلمة عليه ثم ما بعد عثمان مـــن انقســـام العـــالم الإسلامي بين علي ومعاوية. إذن عاش بلال الإســـلام بـــلا حرب أهلية وبلا دم الإخوة الإسلامية. عاش بـــلال لصـــيقًا بالنبي عليه الصلاة والسلام في المدينة المنـــورة. والغريـــب عند النظر في الطبائع الإسلامية هو أنه بمجرد وفاة النبـــي عليه الصلاة والسلام لا يطيق بلال البقاء في المدينة المنورة. ظل في المدينة المنورة بعد وفاة النبي عليه الصلاة والســـلام عظماء الصحابة مثل أبو بكر الصديق وعمر بـــن الخطـــاب وعثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف وعلي بـــن أبـــي طالب رضوان الله عليهم جميعًا. فما سبب سلوك بلال؟ ألـــم تكن في هذه المدينة حبيبـــك ونبيـــك وذكـــرى هـــذا النبـــي والحبيب؟ فإذا بك تتصرف عنه وتفر منه. سبب ذلـــك هـــو اختلاف الناس في ذوق وتذوق الحياة ومذاق القلـــوب فلكـــل إنسان تعبيره الخاص عن مشاعره نعرف أن تعبير عمر بن الخطاب عن مشاعره. في لحظة وفاة النبي عليـــه الصـــلاة والسلام كان تعبيرًا غاضبًا حانقًا مكذبًا هذا الـــزعم، مهـــددًا الذين يدعون بالباطل أن النبي قد مات بالقتل، فلما جاء أبـــو

بكر الصديق وكان خارج المدينة ليومين لم يعلم فيها بوفاة النبي وخلال تلك الفترة كان جسد النبي مسجى على فراشه ولا أحد يعرف ماذا سيفعل مع موت النبي والناس منقسمة ما بين مصدق ومكذب لموت النبي، وظل عمر بن الخطاب طوال هذين اليومين يهدد بقتل من يقول إن النبي قد مات. وكان يرى أن روحه قد بعثت أربعين يومًا كما بعث موسى وأن روحه خرجت لكنها ستعود مرة أخرى، وعندما جاء أبو بكر الصديق وقال قولته الشهيرة: "من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت" في هذه اللحظة أدرك عمر الحقيقة، فسقط مغشيًا عليه. هذه النفس البشرية، نفس عمر بن الخطاب بكل عظمته وروعته وعقله الرهيب، لكنه جاء في لحظة وأنكر الموت وأدى حزنه وخوفه على النبي ورجعته من تلك اللحظة الشنيعة إلى أن يسقط مغشيًا عليه بعد هذا الإنكار إلا أنه بعد ذلك بعدة ساعات يذهب إلى سقيفة بني ساعدة ويقود معركة سياسية شديدة عظيمة لانتخاب أبي بكر الصديق. أي أن النفس البشرية في حالة من حالات التنويج لاختلافها أيضًا. بلال بن رباح فبينما آثر بعض الصحابة البقاء في المدينة إلى

جوار عطر النبي عليه الصلاة والسلام ونفحه. كان البعض الآخر ومنهم بلال لا يحتمل أن يظل في مكان بعد أن غاب عنه حبيبه الذي ليس كمثله حبيب. لكن متى خرج بلال من المدينة؟ هناك روايات تقول إنه خرج بعد وفاة النبي مباشرة وروايات أخرى تقول إنه خرج بعد وفاة أبي بكر الصديق. إذا كان بلال قد خرج من المدينة بعد وفاة النبي عليه الصلاة والسلام مباشرة فهذا يعني أنه لم يشارك في حروب الردة، وهنا يبرز سؤال هو أين ذهب بلال في تلك الفترة؟ حيث لم تكن الدولة الإسلامية قد اتسعت بعد ولم يكن هناك أمصار مفتوحة في العراق والشام ومصر. هناك رأي آخر يقول إن بلال خرج من المدينة في عصر عمر بن الخطاب مع الجيوش الذاهبة إلى الشام للحرب. وكان عمر بن الخطاب يمنع المهاجرين من الخروج من المدينة المنورة إلا بإذن. وإن كان لا يأذن وإلا بأمر شخصي منه وكان لا يأمر لدرجة أنه كان واقفاً على حدود المدينة ليمنع المهاجرين من الخروج أو هكذا كان يقول لإظهار مدى حسمه في هذا الأمر لدرجة أنه عندما كان يستأذنه أحد الصحابة في الخروج للغزو والجهاد كان يقول له: "يكفيك غزوك مع النبي عليه

الصلاة والسلام". هل يعني هذا الأمر العمري أنه من الممكن أن يكون بلال قد خرج في فترة وولاية وخلافة عمر بن الخطاب؟ الأمر يحيطه غموض ما عند هذه النقطة. خاصة إذا عرفنا أن بلال كان جنديًا عظيمًا. فإذا كان قد شارك في حروب الردة فكان لا بد من ذكر الموقعة التي شارك فيها وما فعله من بطولات وفي أي جيش ومع أي رفقة كان. فلم يكن بلال يحضر في مكان إلا ويبرز فيه اسمه ومن ثم فأغلب الظن أن بلال قد خرج من المدينة المنورة في عصر أبي بكر الصديق أي أنه لم يستطع أن يظل في مكان كان فيه النبي ومات. وهناك قرائن أخرى على أن بلال خرج من المدينة المنورة في فترة خلافة أبي بكر الصديق منها مثلاً أنه لم يؤذن بعد وفاة النبي عليه الصلاة والسلام إلا مرتين الأولى عندما طلبت السيدة فاطمة بنت محمد أن تسمع الآذان الذي كان يسمعه أبوها وكما نعلم فإن السيدة فاطمة أعظم نساء الأرض وأحب خلق الله إلى قلب سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام وهي أم الحسن والحسين. كان قد أطلق على بيت السيدة فاطمة بعد وفاة النبي عليه الصلاة والسلام بيت الأحزان أو بيت الحزن حيث عاشت السيدة فاطمة من ٤٠ ـــ

٧٠ يوم بعد وفاة النبي قبل أن تتوفى، ويقال إنها لم تتوقف عن البكاء خلال تلك الفترة حتى سمي بيتها بيت الحزن. وفي لحظات الحزن الشديدة تلك طلبت السيدة فاطمة من بلال أن يؤذن لها بهذا الصوت الرائع العظيم الشجي الذي كانت تسمعه في فترة النبي، ومن ثم يذكرها بوالدها العظيم النبي الكريم. واستجاب بلال لأمر السيدة فاطمة وطلبها حيث كان يعلم كل من على الأرض وقتها مكانة السيدة فاطمة في قلب سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام فأذن بلال وبكت السيدة فاطمة كما تبكي حبًا لرسول الله وبكت المدينة كلها. أما المشهد الثاني الذي أذن فيه بلال بن رباح بعد توقفه عن الأذان بعد وفاة النبي فهو عندما ذهب عمر بن الخطاب إلى الشام ليتسلم مفاتيح بيت المقدس. وهناك التقى ببلال ووسط جمع منتصر عظيم وارتفاع راية الإسلام. هذا الوضع النفسي هو الذي جعل عمر بن الخطاب يشعر أنه يريد سماع صوت بلال بن رباح مؤذن الرسول ليتذكر معه تلك المشاهد العظيمة مع النبي الكريم ولحظات الذكريات المشرقة الجميلة في التاريخ الإسلامي. كان الصحابة يريدون أن يتذكروا يومًا كانوا فيه مع نبي الله عليه الصلاة والسلام فطلب عمر بن

الخطاب من بلال أن يؤذن فأذن بلال من أجلهم بصوته وكان ما كان من ارتجاج المعسكر كله بالبكاء ثم بالتهليل ثم بالتكبير. إذا أضفنا هذين المشهدين إلى حقيقة أنه لم يؤذن بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام ولم يشارك في حروب الردة وأن عمر بن الخطاب كان قد أصدر أمرًا يقضي بمنع خروج المهاجرين من المدينة، فيدلنا هذا كله على أن بلال بن رباح مؤذن الرسول خرج من المدينة المنورة بعد وفاة النبي عليه الصلاة والسلام، وهو دليل على نفس عظيمة ومشاعر رقيقة في منتهى الشفافية والحب والعاطفة المرهفة اسمها بلال بن رباح. أحد مفاتيح شخصية بلال بن رباح هو خروجه من المدينة بعد وفاة النبي عليه الصلاة والسلام مباشرة حيث استأذن بلال الخليفة أبا بكر الصديق وخرج إلى الشام رغم أنها لم تكن قد فتحت بعد الفتح الإسلامي الكبير وهذا يدل على أن بلال لم يكن ليقيم المدينة المنورة وهي خالية من نورها العظيم البازغ. نور محمد ﷺ. لم يكن يتحمل مقامًا خاليًا من النبي. هذا الفراغ الكبير الذي خلفه النبي عليه الصلاة والسلام هو الذي دفع بلال إلى الخروج من المدينة والجزيرة العربية كلها حتى

وفاته عام ٢٠ هجرية، كان بلال هو أول عبد يعلن إسلامه فأول حر آمن بالإسلام هو أبو بكر الصديق والذي كان سببًا في إسلام بلال بن رباح ثم أصبح بلال مؤذنًا للرسول وكأن الإسلام والرسول عليه الصلاة والسلام قررا أن يكافئا رمز العبودية التي تحررت بالإسلام. هذا الدين الحر بأن يصبح صوتًا للإسلام. فهو أول من رفع آذانًا للصلاة. وهو أول من ارتفع صوته بهذا النداء الذي أصبح بعد ذلك ولألف وخمسمائة عام تالية وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها نداء للصلاة يتكرر خمس مرات يوميًا.

لم يكن بلال صاحب فكرة الآذان وإنما كان الأذان حلمًا لأحد الصحابة حكاه إلى الرسول عليه الصلاة والسلام فتفتح قلب النبي إلى هذه الرؤيا فقال له: "حفظ بلال ما رأيت فهو أنداكم صوتًا. وتقول كتب التاريخ أن عمر بن الخطاب جاءته نفس الرؤيا وحكى نفس الحكاية فأصبح الآذان برؤية صحابيين، وقبل هذه الرؤية كان الرسول عليه الصلاة والسلام يفكر في أن يدعو للصلاة بصوت الجرس كما يفعل المسيحيون وبالفعل اشترى المسلمون جرسًا من حداد في المدينة وأعدوا له الخشب ليعلقوه فجاءت هذه الرؤيا التي

انشرح لها صدر النبي عليه الصلاة والسلام، فأصبحت الدعوة إلى الصلاة بالآذان كان الحدث الأشهر في حياة بلال بعد خروجه من المدينة هو عزل خالد بن الوليد حيث أمر عمر بن الخطاب بلال بأن يخلع العمامة عن رأس خالد بن الوليد ويقيد بها يديه وقدميه ثم يخلع عنه نعليه أي يعري خالد بن الوليد من كل نياشينه وكل اعتبار بأنه الفارس المغوار صاحب السطوة والإمارة وكانت هذه المعاملة التي أمر بها عمر بن الخطاب ليعرف خالد بن الوليد أن الرؤوس سواسية ولإعلان رسالة المساواة التي جاء لها الإسلام والتي ربما جاء من أجلها. فكل ما كان لدى خالد بن الوليد من إحساس بالكبرياء والكرامة وعزة النفس والفخر بالأصل لا ينفي حقيقة أنه عبد من عباد الله وفرد من الرعية الإسلامية له ما لهم وعليه ما عليهم وكان قرار عمر بن الخطاب في تلك اللحظة أن يقتسموا كل ما لدى خالد بن الوليد لدرجة أنهم قسموا نعليه فأخذوا الفردة الشمال. توفي بلال في دمشق عام ٢٠ هجرية وتقول الروايات إنه مات عن بضع وستين عامًا أي أن نصف حياته كانت في الجاهلية والنصف الآخر كان في الإسلام ومن ضمن ما قيل في وفاة

بلال بن رباح أنه مات بحلب ودفن علـــى بـــاب الأربعـــين بحلب. وشهد عام ٢٠ هجرية الذي مات فيه بلال بن ربـــاح طاعون عمواس وهو أكبر بلاء وكارثة وقعت على المسلمين ومات فيه كثير من الصحابة منهم أبو عبيدة الجراح ومعـــاذ بن جبل والعلاء الحضرمي وشرحبيل بن حسنة وبلغ عـــدد من مات في الطاعون ــ كما تقول كتب التـــاريخ ــ خمسًـــا وعشرين ألفًا.

سعد بن أبي وقاص

كان المسلمون ينتظرون نتيجة معركة القادسية. لم يكن اسمها البلاغي الواضح وقتها معركة القادسية ولكنها عرفت فيما بعد باسم القادسية التي غيرت من خريطة الإسلام في العالم كله.

معركة القادسية أو هذه المعركة التي يخوضها المسلمون بقيادة سعد بن أبي وقاص، وقد عاش المسلمون في المدينة عاصمة الخلافة في حالة انتظار ولهفة شديدة لمعرفة ماذا جرى في ذلك الوقت. كان سيدنا عمر بن الخطاب يسير في صحراء المدينة المنورة يتفقدها وكان ذلك تفقدًا طبيعيًا لأحوال الرعية والناس في المدينة، وكان يتفقد في تلك المنطقة إبل الصدقة وهي أشبه بإسطبلات الحكومة الآن وأثناء ذلك لقيه راكب على ناقلة (ناقة) قادمًا من طريق يبدو أن ذلك هو الطريق الذي يقبل منه أو نحوه أو خلاله القادمون من العراق والشام فأدرك عمر بن الخطاب أن ذلك الشخص قادم من العراق أو أنه قادم من حيث تلك المعارك، فقال يا عبد الله حدثني ماذا جرى بين المسلمين والفرس فقال

الرجل هزم الله المشركين. فأصاب عمر بن الخطاب حالة من الاحتفال بالفرحة والإحساس بنصر الله وفتحه القريب وهذه العظمة التي أصابها فرسان الله. فرسان الإسلام فأخذ عمر بن الخطاب يقفز ويجري خلف الرجل على راحلته وعمر ورائه يمشي على قدميه متلهفًا لمعرفة تفاصيل أخرى عن المعركة. وما جرى على أرض القتال بين المسلمين عظام فتحوا بلدًا جديدًا وبين أعدائهم الذين حالوا بين المسلمين وبين نصر سريع سهل. كان هذا الراكب هو مندوب سعد بن أبي وقاص على أمير المؤمنين وكان يحمل رسالة سعد إلى عمر بن الخطاب أمير المؤمنين بأن الله سبحانه وتعالى قد حن على المسلمين بالنصر والفتح. كان الراكب على راحلته لا يعرف أن الذي يسعى وراءه وخلفه ويجري إلى جواره هو عمر بن الخطاب أمير المؤمنين الذي جاء ليبلغه كما أن عمر بن الخطاب لم يكن واثقًا من أن هذا الشخص هو رسول سعد بن أبي وقاص وإنما كان يدرك أن هذا الشخص رجل مسلم قادم من أرض المعركة. عندما تجاوز الاثنان على هذه الحالة حدود المدينة ودخلا إلى المدينة أقبل الناس على عمر بن الخطاب وسلموا عليه بإمارة

المؤمنين "السلام عليكم يا أمير المؤمنين" فقال الرجل "هلا أخبرتني رحمك الله أنك أمير المؤمنين؟ وسلمه رسالة سعد بن أبي وقاص "النصر. النصر. النصر".

هل هناك من يشبه عمر بن الخطاب في عدم اهتمامه بالطقوس (الإتيكيت) ومن الذي يقف وحتى الذي يركب وفي فوق ومن تحت" عمر بن الخطاب أخذ يسعى وراء رجل يقول جملاً ليعرف أخبار المسلمين ونبأ ويطمئن عليهم.

إذا كانت تلك شخصية عمر بن الخطاب فكان من الطبيعي أن يكون هناك نصر مبين مثل نصر المسلمين في القادسية بقيادة سعد بن أبي وقاص؟ ما الذي فعله سعد بن أبي وقاص؟ تلقى سعد بن أبي وقاص الأوامر بإمارة الكوفة وأن يبني مدينة الكوفة بعد نصر القادسية العظيم. وتفاصيله العسكرية تكاد تكون محفورة في الذاكرة العربية والإسلامية وكيف أن سعد بن أبي وقاص أدار هذه المعركة بجسد مليء بالدمامل والخراريج وأنه اتخذ ربوة عالية أو منزل مرتفع من البيوتات التي تطل على أرض المعركة وكان يدير منه المعركة وهو نائم على بطنه وكل هذه التفاصيل التي تؤكد لنا كيف كان سعد بن أبي وقاص عظيمًا في لحظات خطيرة

مثل هذه. من المعروف أن سعد بن أبي وقاص خال النبي فهو من الأسرة التي تنتمي إليها أم النبي عليه الصلاة والسلام وهي بني زهرة أيضًا سعد بن أبي وقاص هو من علامات التاريخ الإسلامي فهو أول من رمى في الإسلام بسهم أمام الأعداء والمشركين. وهو هذا البطل الذي قال له النبي عليه الصلاة والسلام "ارم سعد فداك أبي وأمي" عندما انتصر سعد بن أبي وقاص في القادسية تلقى الأمر بإمارة الكوفة بعد أن يبنيها، وبنيت الكوفة وهي عاصمة سياسية هامة جدًا منذ أن بناها سعد بن أبي وقاص وستلعب دورًا هام جدًا في التاريخ الإسلامي لم يكن أبدًا دور مجمعًا موحدًا ولكنه كان طول الوقت دورًا هامًا. ابتنى سعد بن أبي وقاص دارًا أمام المسجد وربما أطلق عليه بعض العامة اسم قصر الكوفة وكان سعد بن أبي وقاص ابتناه من جدران وصخور قصر الأكاسرة بالحيرة أي أنه انتصر على كسرى وإمبراطورية الفرس، الواسعة فما كان منه إلا أن أخذ من حجارة قصور وقلاع الفرس وابتنى بها بيتًا ومسجدًا. من الممكن أن نقول إن هذه القصة تكررت كثيرًا على مدى التاريخ الإسلامي والإنساني عمومًا بمعنى أن المسلمين

عندما دخلوا إلى البلاد المفتوحة كان هناك قرارات بالإبقاء على أماكن العبادة كما هي سواء كانت كنائس أو معابد يهودية لكن مما لا شك فيه أن في كثير من الأحوال تم انتزاع بعض الصخور والأبواب لاستخدامها في بناء مساجد. نفس الأمر حدث عندما دخل الصليبيون إلى البلاد الإسلامية أو عندما دخل الملوك الأسبان المسيحيون الأندلس تحولت معظم المساجد، إلى كنائس وأحيانًا كان يتم الاستيلاء على محتويات المساجد وتفسير هذا الفعل أنه أحيانًا ما يجعلك النصر مزهوًا بنفسك راغبًا في إعلان هذا الزهو بمثل هذه الطرق الغير آمنة دينيًا وعلى الأقل بالنسبة للدين الإسلامي. كان الرسول عليه الصلاة والسلام حاسمًا رائعًا مذهلاً في ذلك حينما أقر أنه حتى ونحن نحارب لا تقتل حيوانًا أو تقطع شجرة وكان أي قائد عسكري يخرج بجيشه في ظل وجود النبي عليه الصلاة والسلام، كان يعطيه هذا القانون الإسلامي وسار على نهجه الخلفاء الراشدون. صحيح أنه تم مخالفتها في بعض الأحيان لكن الأسس كانت واضحة لا لبس فيها، وهي تحريم قتل الشيوخ والعجائز والأطفال والنساء أو قطع شجرة أو قتل حيوان وربما كان سعد بن أبي وقاص

يريد بهذا التصرف أن يقول رسالة لكل المترصدين والمتربصين بالأمة الإسلامية التي كانت تنمو في تلك الفترة، وتزهو بفتحها وفتوحاتها. وهي أن بنيان كسرى انكسر وبني به بنيان آخر وكأن أمة تسقط وأمة تصعد، لكن عمر بن الخطاب بلغه أن سعد بنى بيتًا وأن الناس تسمي هذا البيت قصر سعد فبعث مندوبه أو بريده محمد بن مسلمة والذي كان منوطًا به تنفيذ أوامر عمر ومحاسبة الولاة على الأمصار والمدن التي عينهم عليها عمر بن الخطاب. ذهب محمد بن مسلمة إلى الكوفة مأمورًا من عمر بن الخطاب أن يحرق باب القصر وهو ما فعله محمد بن مسلمة فور وصوله إلى الكوفة لدرجة أن تساءل سعد بن أبي وقاص هل من المعقول أن استدعاء محمد بن مسلمة إلى الكوفة من أجل هذا؟ فيخرج سعد بن أبي وقاص على محمد بن مسلمة وعرض عليه نفقة وقد تكون هذه النفقة بمعنى تحمل تكاليف الطريق ذهابًا وإيابًا فلم يأخذ محمد بن مسلمة وأبلغه كتاب عمر "بلغني أنك اتخذت قصرًا وجعلته حصنًا يسمى قصر سعد وبينك وبين الناس باب فليس بقصرك ولكنه قصر الخبال ـــ أن ما فعلته ينتمي لفصيلة الخبال السياسي ـــ انزل منزل مما يلي بيوت

المال ـــ وأغلق هذا القصر وإلا جعلنا عليه بابًا يمنع النـــاس من دخوله" فحلف له سعد أن سينفذ هذا الأمر تمامًـــا وكليـــة لكنه خشي أن يصل عمر بن الخطاب أن يتعالى على الناس أو أن الناس قد ثاروا ضده أو قاموا عليه. وكان سعد بن أبي وقاص مشغولاً على نحو كبير أن يكتشف سيرة الناس فيـــه. أي ما يمكن أن يقوله الناس عنه ويبلغ عمر بـــن الخطـــاب. وكان عمر بن الخطاب صريحًا على معرفة مسلك الولاة مع الرعية والمواطنين وأهل مدنهم لتحقيق الانضباط والعدالـــة والاحترام بين الوالي والراعي، فبدون ذلك لن يكون هنـــاك قدرة على مواجهة الأعداء فنحن ننكسر ونهـــزم ونعتصـــم ظهورنا نتيجة أن العلاقة بين الحاكم والمحكوم فـــي الأمـــة الإسلامية تستدعي أن تهزم أمام الأمم الخارجية، وكان عمر بن الخطاب يقظًا لذلك تمامًا ولهذا أرسل محمد بـــن مســـلمة ليطوف بكل أهل الكوفة ويسأل الرعية عن رأيها في سعد بن أبي وقاص وتعامله معهـــم ورأي بعضـــهم أنـــه لا يغـــزو في السرية ولا يعدل في القضية ولا يقسم في الثروة. فلم يكن هناك إجماع على سعد بن أبي وقاص وكان هناك مجموعـــة من أهل الكوفة رافضة لمواقفه وقراراته. وكان أهل الكوفـــة

معظمهم في العراق لكن بينهم أيضًا عربًا من القادمين مع سعد بن أبي وقاص من الجنود الذين حصلوا على قطع أرض أو أبناء الجزيرة العربية والمدينة المنورة الذين زحفوا إلى العراق فكان رأي بعضهم" ويبدو أن عددهم ليس قليلاً بدليل أن عمر بن الخطاب عندما سمع رأي مجموعة أهل الكوفة في سعد بن أبي وقاص قرر عزله عن الكوفة.

ويقال في السياق إن هؤلاء البعض افتروا على سعد بن أبي وقاص وما قالوه كان غير صحيح وغير حقيقي. وكان سعد بن أبي وقاص مستجاب الدعوة. ويذكر التاريخ لنا في هذا السياق واقعتين الأولى عندما غالى أحدهم في رفض سعد بن أبي وقاص وعرض سلبياته لمحمد بن مسلمة مندوب عمر بالخطاب فلما علم سعد بن أبي وقاص بذلك دعا على هذا الشخص أن يعمى بصره فأصاب الرجل العمى. وهناك رواية أخرى بعد ذلك بوقت طويل وهي أن سعد بن أبي وقاص سمع أحد أبناء المدينة المنورة يسب عليًا وطلحة والزبير بعد الفتنة والخلاف الكبير بينهم فقال سعد بن أبي وقاص "لا تسبهم وإلا لحقك غضب من الله" فقال له الرجل "هل أنت نبي؟" وكان يستحرض سعد بن أبي وقاص فدعا

عليه سعد بن أبي وقاص، فلما دعا عليه جرى الرجل ووقع فداسته ناقة فمات. وارد جدًا أن يكون شخص من المبشرين بالجنة وعلى هذا القدر من الرفعة والمكانة والإيمان والإسلام مستجاب الدعوة لكن الواقعتين السابقتين اللتين تسوقهما لنا روايات التاريخ تبرز استخدام سعد بن أبي وقاص لهذه الهبة الإلهية كما لو كانت مسدسًا أو سيفًا وهو ما أشك فيه لأنه إذا كان مستجاب الدعوة فلماذا لم يدع لذلك الرجل الذي سب عليًا وطلحة والزبير بالهداية مثلاً.

عزل عمر بن الخطاب سعد بن أبي وقاص البطل المنتصر في الكفة بكل بساطة وديموقراطية، وقبل سعد بن أبي وقاص بذلك ولكن ذلك لم يمنع عمر بن الخطاب أن يضع سعد بن أبي وقاص ضمن الستة المرشحين للخلافة من بعده. وهذه شهادة بأن ما حدث كان اختلافًا في وجهات النظر وليس اختلافًا في الضمير وعندما أصبح عبد الرحمن بن عوف حكمًا ورئيسًا لمجلس الشورى الذي سيختار خليفة المسلمين بعد عمر بن الخطاب طرح عبد الرحمن بن عوف أن يأخذها سعد بن أبي وقاص فرفض سعد وقال: "نصيبي لعلي بن أبي طالب" وقال لعبد الرحمن بن عوف:

"إن اخترت عثمان فعلي أحب أيها الرجل فبايع نفسك وأرحنا" فقال له عبد الرحمن بن عوف: "لن يتولى أحد الخلافة بعد أبي كبر الصديق وعمر بن الخطاب سترضى عنه الناس" وبعد أن أصبح عثمان بن عفان خليفة المسلمين، ولى سعد بن أبي وقاص الكوفة مرة أخرى لكن عثمان بن عفان عزله واستعمل الوليد بن عتبة وكان لذلك سببًا شهيرًا تذكره لنا كتب التاريخ، هو أن سعد بن أبي وقاص اقترض من عبد الله بن مسعود خازن بيت المال قرضًا من مال المسلمين فلما طلب بن مسعود رده لم يتيسر لسعد قضاؤه فارتفع بينهما الكلام أي حدثت بينهما مغاضبة ومناقشة فقال له سعد: "لا أراك إلا ستلقى شرًا" ويقال إنه قال له: "هل أنت إلا عبدًا من عدي؟" أي أنه تعامل مع ابن مسعود باعتبار أن أصوله أقل مكانة منه، ولما حدثت هذه المغاضبة انقسم الناس إلى فريقين: فريق مع الوالي الذي اقترض ــ سعد بن أبي وقاص ــ والآخر مع خازن بيت المال الذي طلب رده ولم يتسلمه ــ عبد الله بن مسعود ــ ولما بلغ الخبر عثمان بن عفان غضب عليهما لكنه عزل سعدًا وأقر عبد الله بن مسعود لكنه بعد فترة عزل عبد الله بن مسعود لصالح أحد أقاربه

من آل بني أمية. عندما رجع سعد بن أبي وقاص من الكوفة بعد العزل الثاني التقى بعثمان بن عفان وكان خليفة المسلمين فقال له سعد: "أفطنت بعدنا أم حمقنا بعـدك؟ بمعنـى هـل أصبحت قياديًا سياسيًا زكيًا بعدنا أم نحن الذين أصبحنا أقـل قدرة في السياسة والذكاء بعد توليك الخلافة. فكلما نعرف أن سعد بن أبي وقاص كان أحد المرشحين الستة للخلافـة مـع عثمان بن عفان بعد وفاة عمر بن الخطاب. كان هذا التعبير هو التعبير الرقيق البلاغي الوحيد الذي قاله سعد بـن أبـي وقاص اعتراضًا على عثمان بن عفان وعزله. اعتبر سـعد أن عثمان بن عفان أصبح قدرة على إدارة الأمـور سياسـيًا لصالحه بينما لا يعتبر لقيمة الشخصيات التي كانت ترافقـه مثل سعد بن أبي وقاص ثم قال سعد لعثمان في مشهد آخر: "أراكم جعلتموها ملكًا" وهذا هو التعبير الأول الذي قيل تعليقًا على فترة عثمان بن عفان وسابقة على تحول الأمر برمتـه إلى ملك مع معاوية بن أبي سفيان. لكن عندما ثارت النـاس على عثمان بن عفان، تجنب سعد بن أبي وقاص المشـاركة في أي موقف سياسي مؤيد أو معارض، وبايع سعد عليًا بن أبي طالب بالخلافة بعد مقتل عثمان ولكن كان لـه موقـف

واضح في هذا السياق فعندما قال له علي بن أبي طالب: "بايع يا سعد" قال له: "لا أبايع حتى يبايع الناس" فقال علي: "خلوا سبيله" أي الديموقراطية المطلقة والحرية التامة فلم يعرض على سعد البيعة أو هدده إما البيعة أو القتل كما سيحدث في مواقف تاريخية سنشهدها لاحقًا. كان سعد بن أبي وقاص غير راغب في تلك الخلافة ولا في غيرها وبالرغم من أنه عندما كان الاختيار بين علي بن أبي طالب وعثمان بن عفان اختار سعد بن أبي وقاص عليًا، وكان يرى أنه الأولى والأحق بالخلافة لكن وجود عبد الرحمن بن عوف وإدارته للموضوع انتهت إلى عثمان بن عفان إما في ظل لغط حاد وانقسام بين المسلمين يشترط سعد بن أبي وقاص لكي يبايع أن يبايع المسلمون. اعتزل سعد بن أبي وقاص الفتنة وقرر ألا يؤيد أحدًا وألا ينازع أحدًا تولى والمدهش أن سعد بن أبي وقاص ظل منذ مقتل عثمان بن عفان عام ٣٥ هجرية وحتى وفاته عام ٥٥ هجرية ــ عشرون عامًا كاملة ــ ظل سعد خلالها صامتًا منعزلاً هادئًا بعيدًا عن الدنيا ثابتًا بينما تتغير الدنيا وكأنه قرار أو فرار إلى الله. مات سعد بن أبي وقاص وعمره ثمانون عامًا ومنذ

لحظة إسلامه عندما غضبت عليه أمه لأنه أسلم، فقررت أن تضرب عن الطعام ليتراجع سعد عن إسلامه فرفض تمامًا حتى وحالها يتدهور ويسوء يومًا بعد يوم ويؤل إلى موت بطيء إلا أن سعد قال لها: "لو أخرجتي كل يوم نفسًا حتى تموتي على أن أعود إلى الجهل والشرك والكفر فلن أعود". وكان القرار واضحًا وماتت أم سعد ونزلت الآية القرآنية: ﴿ **وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ** ﴾ ليقول الله لسعد بن أبي وقاص أنه ليس سببًا في موت أمه ولا كان من المفروض أن تتنازل عن إسلامك ودينك لترضخ لتهديد أمك بأنها قد تموت، تضرب عن الطعام أو تنتحر لتعود مرة أخرى إلى الكفر والشرك فنزلت الآية تقول "فلا تطعهما" ومن ثم كان موقفه سليمًا صحيحًا. منذ تلك اللحظة، لحظة الإسلام الأولى إلى لحظة وفاته وعمره ثمانون عامًا وقد اعتزل الفتنة ورفض المشاركة فيها وكان يقول: "لن أقاتل في هذه المعارك إلا عندما تأتوني بسيف أسير به في القتال فينطق ويقول لي هذا مؤمن لا تقتله وهذا كافر اقتله" حينما

شعر سعد بن أبي وقاص بدنو الأجل طلب من أصحابه أن يأتوه بقميص له يحتفظ به بعيدًا فلما أحضروه كان سعد راقدًا على فراشه يحتضر فطلب منهم أن يلفوه به فلما فعلوا مات. وكان ذلك القميص هو الذي ارتداه سعد بن أبي وقاص يوم معركة بدر، أول معركة في تاريخ الإسلام يرتفع فيها راية المسلمين وقاتل فيها سعد بن أبي وقاص مجاهدًا في سبيل الله مع نبي الله محمد ﷺ.

شرحبيل بن حسنة

كان شرحبيل بن حسنة الكندي من الصحابة وأحد كتاب الوحي، وكما نعرف كان هناك كتبة وحي وكتبـة للرسـائل والمكاتبات بين الرسول والأمراء والملوك. كان شرحبيل بن حسنة أيضًا من مهاجري الحشبة فكما نعرف هنـاك ثـلاث هجرات في التاريخ الإسلامي اثنتان للحبشة والثالثة للمدينـة المنورة. كان شرحبيل بن حسنة الكندي من المهاجرين مـن مكة إلى الحبشة فرارًا من قهر وقمع ومطـاردة وملاحقـة قريش لكل من آمن بالإسلام.

لما توفي رسول الله عليه الصلاة والسلام ارتدت أحياء كثيرة من العرب أي من مدن وعشائر وقبائـل فـي الـيمن والبحرين ارتدت. وتصف كتب التاريخ هذا المشهد بقولهـا "نجم النفاق في المدينة فكانت الوفود تتقدم إلى الخليفة أبـي بكر الصديق ﷺ فيقرون الصلاة ويمتنعون عن أداء الزكـاة" وكان قسم كبير من حروب الردة بسبب الامتناع عن الزكـاة حتى أن كتب التاريخ تحكي أن عمر بن الخطاب كان يـرى ألا يحاربوا المرتدين لأنهم أقروا بكل فروض الإسلام عـدا

الزكاة. بل إن البعض كان يقر بالزكاة ولكنه لم يكـن يقـر بإعطاء الخليفة أبي بكر الصديق ما كان يعطيه للنبي عليـه الصلاة والسلام. لكن أبا بكر الصديق كان له رؤية واضحة فاصلة حاسمة قاصمة للردة ومجمعة للأمة وهي إن امتنعـوا عن دفع عقال كانوا يدفعونه إلى النبي عليه الصلاة والسـلام وجبت حربهم وانتصرت وجهة نظر أبي بكر الصديق وأتـم الصحابة وأجمعوا على ضرورة حروب الردة بمن فيهم عمر بن الخطاب وجرت حروب الردة. في أول الأمر أرسل أبـو الصديق عكرمة بن أبي جهل وكان أحد قواد جيش الإسـلام في حروب الردة وغيرها من الحروب وهو ابن الحكم بـن هشام أو أبو جهل وانتهى الأمر بعكرمة بأن استشـهد فـي سبيل الله وقيل إن خالد بن الوليد أراح رأس عكرمـة علـى حجره وهو يموت فقال عكرمة: "أيزعم عمر بن الخطاب أننا لا نموت في سبيل الله؟" فهم في نظر عمر الخطاب الطلقـاء الذين لا يحاربون في سبيل الله، ولم يدخلوا الإسلام إلا بعـد أن أصبح ليس أمامهم سوى الموت أو الإسلام وفي ظني أن عمر بن الخطاب لم يكن يفصل بين الناس بالنوايا ولكن لـه الفعل. وكانت معظم القيادات العسكرية في جيوش الإسـلام

خاصة في فترة ما بعد الرسول عليه الصلاة والسلام من المسلمين المتأخرين أو الذين تأخر إسلامهم، فكانوا يحاولون إثبات مدى محبتهم للدين واعتناقهم له وكفاحهم في سبيل الله فكانوا قواد جيوش المسلمين في مواجهة المرتدين وكانوا قواد وأبطال جيوش المسلمين في فتح دولة الإسلام الكبرى عابرة الشام ودمشق والعراق أما شرحبيل بن حسنة فكان من مهاجري الحبشة من المسلمين الأوائل، أرسل أبو بكر الصديق شرحبيل في أثر عكرمة بن أبي جهل ثم سار خالد بن الوليد نحو مسيلمة الكذاب وتولى بنفسه قيادة الجيش. فكان شرحبيل بن حسنة على رأس قوات المسلمين الأوائل التي اشتبكت بقوات مسيلمة الكذاب وحلفائه، وأبلى شرحبيل في هذه المعركة كما تقول كافة الكتب والمراجع أعظم البلاء حتى حقق النصر المذهل على مسيلمة الكذاب وعودة كل الأتباع الذين كانوا مع مسيلمة الكذاب إلى رحاب الإيمان.

في تلك اللحظة كان شرحبيل بن حسنة من القواد المشاركين مع خالد بن الوليد، وكان مساعده وقائده وميمنته ثم ذهب شرحبيل إلى أرض الحيرة وصالحهم على ٩٠ ألف درهم ــ وفي رواية أخرى مائة ألف درهم ــ وكانت هذه

أول جزية من العراق إلى المدينة المنورة. فكان شرحبيل بن حسنة أول من حصل على وتحصل علـى جزيـة الإسـلام والمسلمين ولم يعد شرحبيل مرة أخرى إلى العـراق ولكـن أمره أبو بكر الصديق بالتوجه إلى الشام. مـع جمـع كبيـر من الناس وصل إلى ثلاثة آلاف مقاتل عن طريق تبوك حتى وصل إلى أرض الشام. ولم يزل أبو بكر يمده بما رأى مـن الرجال حتى أصبح مع شرحبيل بـن حسـنة سـبعة آلاف وخمسمائة رجل لقصف حصون الشام، في انتظار المعركـة الفاصلة والحاسمة التي أرسل لها ملك الروم هرقـل نفسـه قواده وجيوشه وهي معركة اليرموك. حشد الروم أكثر مـن مائتي ألف من الجنود وكان التطور التقني والعدد والسـلاح أكبر من جيش المسلمين. فضلاً عن فهمهم لطبيعـة الأرض وجغرافيتنا وطبوغرافيتها. في تلك الحرب شـن خالـد بـن الوليد ما يشبه الحرب المعنوية الجبارة لينال المسلمون مـن الروح المعنوية للخصم والعدو، حيث كون خالد بـن الوليـد كتيبة من مائة فارس من جيش المسـلمين وأسـماها كتيبـة (الفداء والاختراق). كان كل واحد من هؤلاء المائـة مقاتـل كامل البطولة رائع الإيمان فذ القدرات.

وبالرغم من أن شرحبيل بن حسنة كان قائدًا من قـواد الجيش إلا أن خالد بن الوليد اختاره أن يكون ضمن المائـة فارس لإيمانه وفروسيته وبطولته. كان كل واحد من هـؤلاء المائة قادرًا على ضرب وقتل العشرات ومن ثم عندما يجـد جيش الروم كتيبة من مائة فارس فقط ينالون منهم ويقتلـون الآلاف فتنهار الروح المعنوية لجيش الروم وهو ما تم علـى أكمل وجه وأدق وأجمل ما يكون في مقدمة معركة اليرموك ولم ينته دور شرحبيل بكونه أحد المقاتلين المائـة البواسـل في كتيبة الفداء والاختراق، الذين اخترقوا دفاعـات وجـيش الروم وإنما تولى قيادة إحدى كتائب الميمنة فـي المعركـة أيضًا. هناك كتب كثيرة تناولت المعارك العسكرية وفتوحات المسلمين بعضها كتبها قادة عسكريون معاصـرون تحـدثوا فيها عن خطط المعارك وطرق الحرب ومناهجهـا، وكيـف فعلها جزالات وقادة النبي عليه الصلاة والسـلام والحقيقـة أن جزال الإسلام الأشهر هو خالد بن الوليـد لكـن هنـاك جزالات آخرين لم يتوقف عندهم التاريخ كما يستحقون ومنهم شرحبيل بن حسنة حيث تحكي الكتب العسكرية أن كان لـه دور مرموق في تمزيق القوة الضاربة لجيش الروم بل وفي

تعجيل النصر العسكري في معركة اليرموك وهـو النصـر الذي لم يعرف التاريخ مثيلاً في الحـروب التـي اشـتعلت أو المعارك التي أثيرت لدرجة أنهم يقولون إن الذين مـاتوا غرقًا في البحر من الروم في هذه الموقعة بلغ عددهم أكثـر من مائة وعشرين ألفًا. لكن معارك أبو عبيدة الجراح وخالد بن الوليد طغت في شهرتها على دور شرحبيل بـن حسـنة في موقعة اليرموك. أو نستطيع أن نقول إن اسمهما بما لهما من مجد وخلفية قريشية ودور قوي في التـاريخ الإسـلامي ربما منعوا شهرة شرحبيل بن حسنة عن عامـة المسـلمين. كان شرحبيل بن حسنة قائدًا للميمنة في جيـوش خالـد بـن الوليد وقائد المشاة في جيوش أبو عبيدة الجراح ثـم خـرج شرحبيل بن حسنة مع عمرو بن العاص إلـى مـدن يسـقط حصونها ويحاصرها ويقاتل أهلهـا إذا رفضـوا الصـلح، وصالح شرحبيل بن حسنة أهل دمشـق وطبريـة ويمكـن أن نقول إنه فاتح منطقة الأردن ـ لذلك أقول دائمًا أن فـي الإسلام أبطالاً كثيرين لكن الأضواء تلقى على بعضهم دون البعض الآخر لأسباب تاريخية. لكن شـرحبيل واحـد مـن المرابطين في سبيل الله وأحد العظماء الذين أداروا معـارك

في العراق والشام. والمدهش أنه عندما يقرر سيدنا عمر بن الخطاب عزل خالد بن الوليد يعزل معه في نفس القرار شرحبيل بن حسنة عن القيادة، وعلى أن يتفرق جنودهما على بقية الكتائب الأخرى. وكان الاثنان ـ خالد بن الوليد وشرحبيل بن حسنة ـ لم يهزما في أي معركة على الإطلاق. وبينما اهتم المؤرخون السابقون واللاحقون بعزل خالد بن الوليد ومحاولة فهم أسباب عزله إلا أن أحدًا لم يحاول تقديم تفسير لعزل شرحبيل أو يتوقف عند قرار عزله. أرى أن عزل خالد بن الوليد كان أحد القرارات العظيمة في التاريخ الإسلامي وأن عمر الخطاب أقام دولة الإسلام بعزل خالد بن الوليد مثلما أقامها أبو بكر الصديق بإسناد الحروب في الشام والعراق لأبي عبيدة الجراح لأنه لم يكن عهد عمر بن الخطاب وقت حرب وعسكر وإنما كان وقت محاولة ومصالحة ومهادنة مع البلاد المفتوحة لذلك لم نكن نريد أن تكون هناك فجوة بيننا وبينهم. فجوة دم ونيران لذلك لم تكن تصلح الطريقة العسكرية الغاضبة لخالد بن الوليد فكما عرف عنه كان كثير الغضب سريعة، مقاتل لأعلى درجات القتال لكنه لا يعرف شيئًا عن السياسة، لذلك بعد أن

عزل عمر بن الخطاب ظل خالد بن الوليد أربع سنوات حتى مات ليس له أي دور سياسي أما عزل عمر بن الخطاب لشرحبيل بن حسنة فكان لنفس الأسباب وعندما ذهب عمر بن الخطاب إلى الشام تقدم إليه شرحبيل بن حسنة قائلاً: يا أمير المؤمنين أعجزت أم خنت؟" فقال عمر: "إنك لم تخن ولكنني تحرجت أن آمرك وأنا أجد أحرى منك وأليق منك" فقال شرحبيل" فاعذرني يا أمير المؤمنين في الناس" أي قل للناس هذا العذر ووضح لهم أنك لم تعزلني عن خيانة أو عجز فقام عمر بن الخطاب ووقف بين الناس في الشام وبين لهم. بعد العزل انتهى دور شرحبيل بن حسنة العسكري والسياسي تمامًا مثل خالد بن الوليد فهما في مسير واحد سويًا.

مات شرحبيل بن حسنة طاعون عمواس الذي أصاب الشام في فترة عمر بن الخطاب وكان طاعونًا هائلاً لدرجة أنه قضى على عدد ضخم من الصحابة تقدره الروايات بخمس وعشرين ألف من ضمن الذين ماتوا كانوا أبناء خالد بن الوليد الأربعين عدا ابنين هما عبد الرحمن بن خالد بن الوليد الذي سمه معاوية بن أبي سفيان والآخر مات وهو

يدافع عن علي بن أبي طالب في موقعة صفين. عندما حدث هذا الطاعون قال عمر بن الخطاب للناس: "تفرقوا في الأودية والشعاب وأبعدوا عن عمواس" وذلك مخافة أن يصاب المسلمون والصحابة بالطاعون وعندما بلغ شرحبيل هذا الخبر وهو معلق نعليه بشماله ــ أي ممسك نعليه بشماله ــ وكان في طريقه إلى عمواس قال: "يا أيها الناس أني قد سمعت قول صاحبكم ــ يقصد عمر بن الخطاب ــ وأني والله قد أسلمت وصليت وصاحبت رسول الله ﷺ وأن هذا الطاعون دعوة بينكم ورحمة ربكم ووفاة الصالحين قبلكم. سمعت رسول الله يقول: إذا وقع الطاعون بأرض وأنتم بها فلا تهربوا فإن الموت بأعناقكم وإن كان بأرض فلا تدخلوها فإنه يحرق القلوب" ويعني الأمر النبوي أنه عندما يكون هناك طاعون في مكان فلا نخرج إن كن فيه ولا ندخله إن كنا خارجه فإذا بشرحبيل بن حسنة في المنطقة التي بها طاعون عمواس عام ١٨ هجرية وبلغه قرار عمر بن الخطاب بالرحيل عن منطقة الطاعون فرفض وكرر قول النبي عليه الصلاة والسلام: "ننتظر موتنا إن كنا هناك موت" ومات شرحبيل بن حسنة هذا القائد العظيم مرضًا بالطاعون.

سعد بن عبادة. زعيم الأنصار

يوم فتح مكة. هذا الفتح العظيم والنصر المبين. كانــت راية الرسول عليه الصلاة والسلام في يد فارس من الفرسان الذين دخلوا مكة، كانت بيد سعد بن عبادة ثم حدث مشــهدًا مهمًا جدًا في السياق.. في هذه الصورة.. في هــذه اللحظــة التاريخية الإسلامية المشرقة الخيرة الرائعة. كان ســعد بــن عبادة يحمل الراية وكله فرح، علــى اعتبــار أن هــا هــم الأنصار الذين نصروا رسول الله ﷺ، يدخلون معه مكة رافعًا زعيمهم راية الرسول في وجه المشركين والأعــداء الــذين ناصبوا العداء للرسول عليه الصلاة والسلام ولهــذا الــدين. ربما هذا الفرح.. هذا الولع بالنصر هو الذي جعل سعد بــن عبادة يقول وهو ممسك بالراية: "اليوم يوم الملحمة.. اليــوم يوم أذل الله قريش". قالها سعد بن عبــادة بقــوة وإخــلاص شديدين فمر أمامه أبو سفيان وسعد بن عبادة يكرر "اليوم يوم الملحمة" وكأنها ستتحول نارًا ودمارًا ودماء على قريش فلما مر الرسول عليه الصلاة والسلام بكتيبة من الأنصار نــاداه أبو سفيان "يا رسول الله أمرت بقتل قومك؟ زعم ســعد بــن عبادة أنه قاتلنا" وقال عثمان بن عفان وعبــد الــرحمن بــن

عوف للرسول عليه الصلاة والسلام: "يا رسول الله ما تـــأمن سعدًا أن تكون له قولة في قريش. فقال رسول الله ﷺ: "يا أبا سفيان اليوم يوم المرحمة. اليوم أعز الله قريش" وبهذا الـــرد النبوي العظيم رد الاطمئنان إلى نفوس قريش. والتأكيد على أنها ليست ملحمة ودمًا ولكنها مرحمة ولم يكن ذلـــك الأمـــر النبوي بسبب قريش ولكن بسبب مكة التـــي يحبهـــا النبـــي. وكل أيام الرسول عليه الصلاة والسلام في قريش كان هدفها الأساسي المرحمة لا الملحمة. وأي شخص يستمع إلى أوامر النبي وتعليماته في الحروب يكتشف أنهـــا كانـــت دعـــوات وتعليمات للمرحمة. أما الملحمة فكانت إذا لم يكن هنـــاك أي مفر منها فتقاتل حتى النصر أو الشهادة. لكن الأصـــل فـــي الحروب الإسلامية هو المرحمة، والرسالة الإســـلامية كلهـــا نزلت من أجل المرحمة وليس الملحمة. فأمر الرسول عليـــه الصلاة والسلام أن تؤخذ الراية واللواء من سعد بن عبـــادة وإعطائها لابنه قيس بن سعد بن عبادة وكان مشـــهورًا فـــي يثرب والمدينة المنورة بأنه كريمًا جوادًا، وكان مـــن الـــذين يرسلون يوميًا بطبق من الثريد ــ الأكلة المفضلة لدى النبي ــ إلى سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، وكان قيس بن سعد

بن عبادة معطاءً كريمًا سخيًا للمسلمين ولغير المسلمين. كان سعد بن عبادة من الذين دعا الرسول عليه الصلاة والسلام لهم بالرحمة وبأن يصبح بيته بيت كرم دائمًا وأن ينعم الله سبحانه وتعالى عليهم بالنعم والحسنات.

كان سعد بن عبادة واحدًا من الذين يستشيرهم النبي مع سعد بن معاذ في أمور الأنصار، فمثلاً كانت هناك قبيلة يهودية في المدينة قرر النبي أن يعطيها ثلث ثمار المدينة مقابل الهجنة واتفاق السلام وعندما أشار الرسول عليه الصلاة والسلام على سعد بن عبادة وسعد بن معاذ بهذا الأمر فقالا له: "إذا كان الأمر وحيًا إليك فسمعًا وطاعة وإن لم يكن فنشير عليك "فطلب النبي عليه الصلاة والسلام مشورتهم فقال سعد بن عبادة: "لم يأخذوا ثلث ثمارها ولم نشرف المدينة بك فكيف وأنت فيها؟" أي كيف نهادنهم ونعطيهم ما لم يكونوا ليأخذوه ونحن ضعاف عاديون، فكيف الآن ونحن يتزعمنا النبي ودييننا الإسلام. فأقر النبي عليه الصلاة والسلام برأي سعد بن عبادة. إلى هذه الدرجة كان سعد بن عبادة صاحب رأي ومشورة وإلى هذه الدرجة كان النبي عليه الصلاة والسلام ديموقراطيًا جدًا.

ونجد صدى موقف سعد بن عبادة يوم فتح مكة واعتزازه الشديد بكونه من أنصار النبي عليه الصلاة والسلام. يوم أذل الله قريشًا نجد صدى هذا الموقف عندما توفي النبي عليه الصلاة والسلام. فقد طمح سعد بن عبادة إلى الخلافة ورأى أنه من الطبيعي ونحن شركاء النبي وأنصاره، وخاصة أن الأمر في المدينة حيث اختارها النبي مقرًا لدينه ودولته وبالفعل جلس سعد بن عبادة في سقيفة بني ساعدة ليبايع نفسه في المدينة بل وجاءه المبايعون وبايعه البعض حتى دخل في ذلك المشهد التاريخي العظيم أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وأبو عبيدة الجراح، وحدث بينهم حوارات ساخنة صاخبة غاضبة واشتبك عمر بن الخطاب لفظيًا مع سعد بن عبادة ومع المدافعين عنه وحدثت حوارات بين أبي عبيدة الجراح وبين بعض الأنصار وكاد الأمر يصل إلى حد الاشتباك بالأيدي وكان يومها سعد بن عبادة مريضًا محمومًا ودرجة حرارته مرتفعة وكان جالسًا على الأرض فأدى تدافع الناس لمبايعة أبي بكر الصديق إلى الإطاحة به. ولم يبايع سعد بن عبادة أبا بكر الصديق وقرر الرحيل إلى الشام وأقام فيها حتى مات. يحمل موت سعد بن عبادة قصة

غامضة حيث مات في مغتسلة وقد اغتر جسده أي وهو يستحم. ولم يكن قد بلغهم في المدينة موت سعد بن عبادة ولم يشعروا بموته في المدينة حتى سمع بعض الغلمان صوتًا ينبعث من بئر يقول "قتلنا سيد الخزرج سعد بن عبادة.. رميناه بسهمين فلم تخطئ فؤاده" وكما تقول الروايات ذعر الغلمان وحفظوا ذلك اليوم وبعد أن بلغهم نبأ موت سعد بن عبادة في الشام يوم كذا، فتذكروا ما سمعوه من صوت البئر فقالوا إذن قتله الجن. أعتقد أن هذه القصة رغم ورودها في كثير من كتب التاريخ إلا أنها ذات بناء أسطوري فلا يمكن تصديق أن الجن يقتل شخصًا ومن المؤكد أن سعد بن عبادة كان حاضرًا في الأذهان بقوة بعد خلافة أبي بكر الصديق. ومن المؤكد كذلك أنه موته كان غامضًا. بعد وفاة سعد بن عبادة ظهر اسم ابنه قيس بن سعد بن عبادة وكان شخصية إسلامية نادرة وبطلاً من أبطال الجهاد وعلمًا من أعلام الأنصار. كانت لشخصيته فضائل ومكارم أفضلها وأظهرها وأوضحها الشجاعة وأجملها وأرقها الكرم. كرم لا جود له. كان قيس بن سعد من المدافعين عن الإسلام بين يدي رسول الله عليه الصلاة والسلام. وكان دفاعه المستميت عن النبي

السبب في أن يعطيه الرسول الكريم الراية بعد أن أخذها من أبيه سعد بن عبادة بسبب ما آثاره من غضب قريش عند فتح مكة، وكان في هذا الفعل تكريم لسعد بن عبادة رغم أنه كان غاضبًا منه وتكريمًا للأنصار.

يمكن أن نعتبر قيس بن سعد خادمًا للنبي حاجبًا حارسًا صاحبًا له وتقول كتب التاريخ عن قيس بن سعد أنه كان من الرسول بمنزلة صاحب الشرطة من الأمير ويقول قيس نفسه: "دفعني أبي إلى الرسول ﷺ كي أخدمه" وكان قيس من كرام أصحاب رسول الله وأكثرهم سخاءً مثل أبيه وأكثر لدرجة أن بعض الروايات تحكي أن قيس بن سعد خرج في سرية مع أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب، فأخذ يمنح الأموال والعطايا للفقراء والمحتاجين حتى أنه كان يقترض ليشتري طعامًا للصحابة فقالا أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب: "إن تركنا هذا الفتى أهلك مال أبيه" ويدل ذلك الموقف على الكرم الشديد فلما سمع بن عبادة بذلك قال للنبي عليه الصلاة والسلام: "أن أبا بكر الصديق وعمر بن الخطاب يبخلان علي بابني" فقال الرسول عليه الصلاة

والسلام: "إن الجود من شيمة هذا البيت وإنه بيت كرم وجود".

وفي رواية أخرى أن سيدة عجوز التقت بقيس بن سعد في الطريق فقالت له: "لا يوجد في بيتي جرذان" فأعجب قيس بن سعد بهذه الاستعارة التي تعني أن بيتها خالٍ من الطعام لذلك ليس به جرذان (فئران) فقال لها: "لأكثرن جرذان بيتك". هذا الكريم الفارس المغوار صاحب راية النبي عليه الصلاة والسلام يوم فتح مكة تدور به الأيام حتى يلازم الإمام علي بن أبي طالب في كل خطواته، وكان أشد الأنصار التصاقًا له وتأييدًا له رغم أن كل الأنصار وقفوا مع الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه في خلافه مع معاوية بن أبي سفيان إلا أن موقف قيس بن سعد بن عبادة كان مختلفًا تمامًا لأنه كان صاحبًا وشاهدًا لكل المشاهد والمعارك مع علي بن أبي طالب بل إن سيدنا علي بن أبي طالب أمره على مصر وكان قيس بن سعد قائد الأنصار في معركة صفين كما كان قائد مقدمة جيش الإمام وقائد أهل العراق في مواجهة معاوية بن أبي سفيان ويروي بعض المؤرخين أن عزل سيدنا علي بن أبي طالب لقيس بن سعد

من ولاية مصر كان بمكيدة من معاوية بن أبي سفيان، وكان معاوية بن أبي سفيان يدرك أن قيس بن سعد بن عبادة قائد من قواد الأنصار وبه من السمات الشخصية ما يؤهله للقيادة فهو عظيم وشجاع وكريم ومحبوب جدًا ولصيق بعلي بن أبي طالب ومحب له وقائد لجيشه. فكان لا بد أن يفعل معاوية بن أبي سفيان شيئًا يحرك الراكد ويغير الأمر ويلعب في خريطة العلاقات الشخصية والإنسانية بين علي ورجاله. كما أن مصر موطن الثورة كانت مرغب عمرو بن العاص رجل معاوية فكان لا بد من الإطاحة بقيس بن سعد الذي يأتمنه علي بن أبي طالب على نفسه وجيشه ومصر.

أرسل معاوية بن أبي سفيان خطابات المقصود منها أن تصل إلى يد سيدنا علي بن أبي طالب ورجالاته، وكانت الخطابات مرسلة إلى رجال معاوية بن أبي سفيان من آل أمية في العراق والمدينة يقول لهم فيها: "أن علي بن أبي طالب فعل خيرًا وأحسن صنعًا بتولية قيس بن سعد بن عبادة مصر، فإنه قد كف عن إخواننا من أهل مصر الذين قاتلوا في دم عثمان بن عفان وكتموا ذلك عليًا وإني أخاف أن يبلغ ذلك عليًا فيعزل قيس بن سعد بن عبادة" فلما وصل الأمر

إلى أصحاب سيدنا علي بن أبي طالب طالبوه أن يبدل قيس بن سعد فقال سيدنا علي: "معاذ الله قيس لا يبدل" لكن أصحابه ضغطوا عليه وأصروا على عزله ويبدو أن أصحاب سيدنا علي لم يكونوا على درجة الذكاء والدهاء السياسي لخصومه فتم لهم ما أرادوا من عزل قيس بن سعد بن عبادة عن ولاية مصر فلما علم قيس بالأمر قال: "لولا الكذب لمكرت بمعاوية مكرًا يدخل عليه بيته" بمعنى يفسد على معاوية بيته وأهله وزوجاته.

أما أهم مشهد في حياة قيس بن سعد بن عبادة هو مواجهته لمعاوية بن أبي سفيان يوم البيعة، فبعد مقتل علي بن أبي طالب وتنازل الحسن بن علي عن الأمر إلى معاوية بن أبي سفيان إلا أن قيس بن سعد ظل حتى اللحظة الأخيرة مع الحسن بن علي في مواجهة معاوية، رافضًا الصلح معه والتسليم له بالبيعة لدرجة أنه عندما قابل معاوية قال له: "أني كنت لأكره مثل هذا اليوم يا معاوية" فقال له معاوية: "لم رحمك الله؟" فرد قيس: "لقد حرصت أن أفرق بين روحك وجسدك فأبى الله يا ابن سفيان" ثم أعرض قيس بوجهه عن معاوية واستقبل الناس وخاطبهم موضحًا لهم واقع ما هم

عليه وهم يبايعون معاوية بن أبي سفيان فقال: "يـا معشـر الناس لقد استبدلتم الذل من العز فأصبحتم بعد ولاية المؤمنين وسيد المسلمين وابن عم رسول رب العـالمين وقـد ولـيكم الطليق بن الطليق ــ يقصد معاوية بن أبي سفيان ــ يسومكم الخف أي الظلم والعذاب ــ ويسير بينكم في العنف. فكيـف تجهل ذلك أنفسكم أم طبع الله على قلوبكم وأنتم لا تعقلـون". كانت الخطبة رهيبة تنم عن مواجهة صريحة ونارية وسـط الناس الذي جاءوا لمبايعة معاوية بن أبي سفيان. فقـال أبـو سفيان: يا قيس أني قد كنت أكره أن تجتمع الناس إليَّ وأنت حي" فلم يكن معاوية ليريد ذلك المشهد أبـدًا فقـال قـيس: "وأنا والله يا معاوية قد كنت أكره أن يصير هذا الأمر إليـك وأنا حي" ولم يبايع قيس بن سعد معاوية بن أبي سـفيان وإلا عندما اشترط شروطًا أهمها أن يكف عن قتاله وعن ملاحقة ومطاردة أربعين ألف من الجيش والشرطة كانوا قد عقـدوا العزم وتعاقدوا مع أنفسهم ومع الله على قتال معاوية. وكـان ذلك الجيش بقيادة قيس بن سعد. فأرسل معاوية ورقة بيضاء عليها خاتمه لقيس بن سعد وقال له: "أملي شروطك" والمؤكد أن قيس بن سعد بن عبادة لم يضع في عنقه بيعـة لمعاويـة

فهو أذعن فقط لأمر الحسن بن علي في الكف عن القتال وقيل في روايات أخرى أن قيس دخل على معاوية بصحبة الحسن بن علي فلما دخلا بايعه الحسن ثم قال لقيس: "بايع" فقال قيس: "يدي هكذا. وظل قيس عاقدًا يده في حجره. والمفروض في المبايعة أن يمسك الشخص يد الذي يبايعه ويرفعها عاليًا، لكن قيس لم يفعل ذلك فجثا معاوية على ركبتيه وظل على ركبتيه أمام قيس بن سعد ثم أمسك بيده وقال: "أقسمت عليك" ثم صفق على كفه ونهض واقفًا قائلاً: "بايع قيس.. بايع قيس" لجأ معاوية إلى هذه الخدعة لأنه يعلم أهمية وضرورة أن يبايع قيس بن سعد ليأمنه ويأمن شر الأربعين ألف مقاتل من حوله. وامتلأ المكان بالضجيج والتهليلات والتكبيرات فرحًا وسعادة بمبايعة الجميع بينما قيس بن سعد واقفًا يصرخ فيهم: "كذبتم.. كذبتم.. والله ما بايعت.. والله ما بايعت".

الأقرع بن حارث

كان الأقرع بن حارث أصلعًا ضخم الجثة عملاق ويقال إنه لو كان هناك شجاع فهو أشجع الشجعان وإن كان هنـــاك فارس فهو فارس الفوارس. كان الأقرع بـــن حـــارث قبـــل إسلامه مجوسيًا من قبيلة تميم التـــي نزلـــت فيهـــا ســـورة الحجرات لندائهم النبي عليه الصلاة والسلام بصوت مرتفـــع من خلف الحجرات لندائهم النبي عليـــه الصـــلاة والســـلام بصوت مرتفع من خلف الحجرات ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِـــن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ** ﴾. ويقال إنه كان ضـــمن ذلك الوفد الذي ذهب إلى النبي عليه الصلاة والسلام. لكـــن المؤكد أنه كان قد أسلم قبل أن يذهب مع ذلك الوفد. إن كان قد ذهب معهم حيث تقول بعض الكتب والمراجع أنه لا يمكن أن يكون قد أسلم وأصبح بينه وبين الإســـلام هـــذه العلاقـــة المتينة الوثيقة ومحبة رسول الله ﷺ ويخاطبه بـــذلك الشـــكل البدوي الصحراوي الذي أنكره الإســـلام والقـــرآن. لـــذلك ستصور البعض أن الأقرع بن حارث لم يكن مع هؤلاء. لكن عمومًا رغم أن قبيلته لم تكن مجوسية فقد كان الأقـــرع بـــن حارث وثنيًا من عبادة الأصنام بل كان يبحث عـــن شـــيء

وجده في الإسلام فأسلم. كان الأقرع بن الحارث من المؤلفة قلوبهم أي أنه كان من الشخصيات التي كان يمنحهم الرسول عليه الصلاة والسلام من مال الفتوحات والمعارك والغزوات لكي يشتد عضد إيمانهم ويقوى. لكن حقيقة الأمر أنه بالرغم من أن الأقرع بن حارث كان من المؤلفة قلوبهم إلا أنه كان من اللحظة الأولى لدخوله المعارك والحروب بطلاً مغوارًا. ربما لم يذكره التاريخ أو يتوقف عنده بشكل تفصيلي شارحًا لكن الأقرع بن حارث شهد مواقع كثيرة بعد إسلامه. وشهد مع شرحبيل بن حسنة القائد العظيم معركة (دومة الجندل)، وشهد مع خالد بن الوليد حروب اليمامة وكانت في مواجهة المرتدين وكان الأقرع بن حارث من فرسان المسلمين الثابتين حين ارتد الناس فلا يصح أن نتحدث عن أنه كان من المؤلفة قلوبهم بمعنى أنه كان ضعيف الإيمان أو غير حسن الإيمان. على العكس كان الحارث قويًا مقدامًا فارسًا من الفرسان العظماء. شارك الأقرع بن حارث مع خالد بن الوليد وشرحبيل بن حسنة وكما نعلم فإن شرحبيل بن حسنة كان الرجل الثاني في جيش خالد بن الوليد ووقف التاريخ عند خالد بن الوليد لكنه لم يتحدث كثيرًا عن شرحبيل بن حسنة،

وكذلك عن الأقرع بن حارث الذي كان مع خالد بن الوليد في حربه بالعراق غازيًا فاتحًا.

بل إن الأقرع بن حارث كان أمير مقدمة الجيش الذي شارك في الفتوحات الكبرى بل إن ابن حارثة الشيباني الذي كان يتقدم في الثغور عند فتح الحيرة كان يسيطر على الثغر ويتقدم إلى المدائن بينما كان الأقرع بن حارث قائد المقدمة البديل له في جيش خالد بن الوليد. عندما نتحدث عن قائد مغوار قوي قادر على إنجاز تاريخي في المعارك فنحن نتحدث عن الأقرع بن حارث. في موقعة (الأنبار) صعد الأقرع بن حارث إلى قمة المجد العسكري. ففي هذه الموقعة صنع أهل الأنبار خندقًا فلما وجد خالد بن الوليد الخندق طاف به ثم أسرع فنشب القتال فقرر أن يسارع ويبادر بالحرب وكان خالد بن الوليد بطبيعة الحال قليل الصبر على الحرب ومتعجل خوض المعارك. عندما تقدم خالد بن الوليد وقتها إلى رماته وأوصاهم قائلاً: "أني أرى أقوامًا لا علم لهم بالحرب فارموا عيونهم لا تتجهوا أو تقصدوا غيرها فرموا رشقة واحدة ثم تابعوا واصطف الرماة صفاً وراء صف وقد وضعوا سهامهم في أوتار أقواسهم وشدوا إلى صدروهم بقوة

وحماس وفي وضع الاستعداد فصدر الأمر فانطلقت السـهام كثيفة كأسراب الطيور، سريعة إلـى أهـدافها فـوق رءوس جدران الحصن عبر الخندق لها أزيز عشرات ومئات وربما آلاف من الأسهم تنطلق بسرعة وأزيز فتملأ المكان وتتـابع الرمي ويقال إن ألفًا من أهل الحصن فقيء عيـونهم ولـذلك سميت تلك المعركة بـ (ذات العيون) وتصايح أهل الحصن وقالوا: "ذهبت عيون أهل الأنبار" هل كان ذلك شيئًا قاسـيًا؟ بالطبع وربما كان ذلك من الأسباب المهمة في قرار عمر بن الخطاب بعزل خالد بن الوليد.

وما أريد أن أتوقف عنده هنا هو ما فعله خالد بن الوليد من قسوة وفقأ عيون الجيش المعادي. هو أمر غريـب فـي القتال طبعًا كانت نتيجته الواضحة النصر. فهـذه المعركـة حسمها قرار خال من العاطفة لخالد بن الوليد وأيـن تـأتي العاطفة في معارك من هذا النوع؟ لم يكن الأقرع بن حارث من الرماة في تلك المعركة لكنه كان أحـد المشـهود لهـم بالفروسية والقتال. وكان هناك قائد آخر في هـذه المعـارك لا أحد يتذكر اسمه أو يتوقف عنده وهو عـدي بـن حـاتم الطائي. كثير من الذين شاركوا في فتح العراق كـانوا مـن

القبائل التي دخلت إلى الإسلام تباعًا بعد فتح مكــة وانتهــاء حروب الردة بنصر المسلمين والإسلام. كيف كانــت هــذه القبائل تدخل في الإسلام؟ كان قائد أو زعيم أو شيخ القبيلــة يعلن إسلامه فينضم كل أهل القبيلة معه وإليه. وفي الأغلــب الأعم لم يكن هناك من يخالف شيخ القبيلة وزعيمها. وتقــول الوقائع إنه عادة ما كان زعيم القبيلة يسلم قبل قبيلتــه بفتــرة أكبر قليلاً ثم لا يلبث أهل القبيلة أن يقتنعوا ويسلموا.

كانت المؤلفة قلوبهم مثل الأقــرع بــن حــارث هــم المسلمون المتأخرون الذين كانت تصرف لهم مــن أمــوال الغنائم والحروب لتثبيت الإيمان، ولم تكن الأموال تصــرف لأجل الشخص ولكن لأجل القبيلة حتى يشــعرون أن هنــاك نعمة مادية تعود عليهم من دخولهم الإسلام وأوقــف ســيدنا عمر بن الخطاب فكرة المؤلفة قلوبهم بعد أبي بكر الصــديق وقال إن الإسلام لم يعد محتاجًــا لتــأليف قلــوب أحــد وأن الإسلام قوي بيمن فيه وينتمي إليه تدينًا وخشية وليس لأجــل المال.

ويعتبر هذا الأمر من القرارات العمرية المهمــة فــي سياق تعضيد دولة الإسلام وأنها تكون خالصة للإيمان وليس

لمحاولات الدخول وتسلق أسوار الإسلام للحصول على أموال أو غنائم أو ما إلى ذلك، لكن الانتماء القبلي كان هامًا في شيء آخر وهو المعارك بمعنى أن جيش المسلمين يبلغ عدده ١٢٠ ــ ٢٠٠ ألف مقابل مئات الألوف من الأعداء بطبيعة الحال. لكن كيف كان الجنود المسلمون يعرفون بعضهم بعضًا وكيف يمكن التحكم فيهم. في بداية الغزوات والفتوحات الإسلامية كان الجيش بضعة مئات ثم كثر عددهم إلى بضعة آلاف. وكانوا جميعهم أبناء دين واحد ويعيشون في مكان واحد وبقعة واحدة، وهناك احتمال أنهم كانوا لا يخرجون على قبائل محدودة وفي ظل هذه المساحة الجغرافية الصغيرة والقبائل القليلة والعدد المحدود كان من الممكن السيطرة عليهم ومعرفتهم وإدارتهم لكن عندما اتسع الأمر لدرجة مئات الألوف كيف كان يتم التحكم في الأمر في ظل اتساع المساحة الجغرافية ووجود أمم مفتوحة وقبائل قادمة إلى الإسلام؟ عندما تقرأ في الفتوحات الإسلامية تكتشف أنه على الأقل أبو عبيدة الجراح وخالد بن الوليد كانوا يقسمون الجيش على قبائل فلم يكن التقسيم قاصرًا على الميمنة والميسرة والقلب فقط وإنما يؤكد المؤرخون

العسكريون الذين تعاملوا وأرخوا للمواقع العسكرية التي قادها أبو عبيدة الجراح وخالد الوليد وغيرهم من القادة والفاتحين أن الجيش كان يتم تقسيمه إلى قبائل بمعنى أن الأقرع بن حارث مثلاً من قبيلة نحيم فيكون هو المسئول عن القبيلة في الجيش فيصبح تقسيم الجيش الميمنة قبيلة كذا والميسرة قبيلة كذا ومؤخرة الجيش قبيلة كذا ومقدمة الجيش قبيلة كذا أو مكونة من عدة قبائل أي أن موضوع القبلية لم يكن له جانب سلبي دائمًا وإنما كانت له جوانب إيجابية أيضًا. صحيح أن الإسلام صهر ودمج القلوب وسبحان مقلبها لكن القبلية كانت عامل حاسم في تنظيم الجيش. خاصة أنه لم يكن هناك زي موحد كما في الجيوش الآن وإن كانت هناك راية واحدة معروفة ومجمعة لهم وكان الجنود يفهمون دليل النداءات فهناك لغة واحدة موحدة هي العربية، لكن أيضًا هذا الاتساع يتطلب قيادته بشكل أكثر تحكمًا ومراسًا، فكيف يعرف قائد الجيش المهارات القتالية لكل جندي. كيف يعرف فلان أكثرهم فروسية أو أعظمهم رماية لذلك كان يناط بزعماء القبائل قيادة هذه التكوينات العسكرية للجيوش.

وكان من بين هؤلاء الذين أنيط بهم قيادة قبيلته في الجيش عدي بن حاتم الطائي والمعروف أن حاتم الطائي هو أشهر اسم فيما يخص الكرم حتى إننا نقول إن فلان له كرم حاتمي أي شديد الكرم والجود وحاتمي شبه إلى حاتم الطائي أجود الغرب وأكرمهم وكان مسيحيًا يعيش في شمال الحجاز. توفي حاتم الطائي قبل أن يعم الإسلام الجزيرة ويبعث العرب إلى هذا النداء العظيم أما ابنه عدي بن حاتم الطائي فحضر الإسلام وكان النبي عليه الصلاة والسلام يقدره تقديرًا شديدًا ويتحدث عنه بصفات حميدة وذكره في أكثر من موقف وحديث مثنيًا على جوده وكرمه، لم يتوقف الكثيرون عند عدي بن حاتم الطائي رغم أنه كان ضمن الذين فتحوا الشام وغزوا العراق وكان قائدًا بطلاً مغوارًا. أسلم عدي عام ٩ هجرية وتوفي عام ٦٨ هجرية أي أنه عاش في الإسلام ٥٩ عامًا.

كان عدي سيدًا شريفًا في قومه، خطيبًا، حاضر الجواب، فاضلاً، كريمًا، معظمًا عند قومه وعند غيرهم. في عام ٩ هجرية أرسل سيدنا محمد ﷺ عليًا بن أبي طالب لهدم صنم قبيلة عدي بن حاتم الطائي. كانت القبيلة على الوثنية

بينما كان حاتم الطائي مسيحيًا. عندما ذهب علي بـــن أبـــي طالب إلى الشام ليهدم وثن القبيلة أسر عدد من أبنائها مـــنهم ابنة حاتم الطائي وأخت عدي فذهب عدي إلى الرسول ليخلي أسرهم وطلب منه ألا يشمت بهم أحياء العرب وقالـــت لـــه: "كان أبي سيد قومه وكان يفرج عن المكـــروب المحـــزون ويفشي السلام ويطعم الطعام ولم يطلب إليه طالب حاجة قط فرده" فقال الرسول عليه الصلاة والسلام: "هذه الصفات التي ذكرتها عن حاتم الطائي هي صفة المؤمن ومن ثم خلوا عنها فإن أباها كان يحب مكارم الأخلاق.

وهذا جزء يجب أن نتعلمه في ذلك الموضوع، فحـــاتم الطائي توفي وهو على غير الإسلام ومع ذلك قدره الرسول عليه الصلاة والسلام لأنه كان يحب مكارم الأخلاق. لا بـــد أن نجيب أيًا من البشر ما داموا يحبـــون مكـــارم الأخـــلاق ومهما كان دينهم. فإذا كان للدين فضـــل يجـــب أن يكـــون لمكارم الأخلاق تقدير من أصحاب هذا الدين. نحن أصحاب دين إذن لا بد أن نقدر ونحب ونحترم مـــن يحـــب مكـــارم الأخلاق. فالرسول عليه الصلاة والسلام أكـــرم ابنـــة حـــاتم الطائي وغادرت المدينة وذهبت مع عدي إلى قبيلتها فحسنت

لهم أن يسلموا. أتى عدي المدينة وعاد إليها في نفس العـــام وكان عدي مسيحيًا على دين أبيه يقــول عــدي بــن حـــاتم الطائي: "أتيت النبي ﷺ في المسجد فقال الناس هذا عدي بن حاتم وكنت قد ذهبت إليه بغير أمان وكتاب وكنت أرجو الله أن يجعل يده في يدي وكان الرسول عليه الصـــلاة والســـلام يصلي فقام فأخذ بيدي فلقيته امـــرأة وصـــبي معهـــا فقـــالا: "إنا لنا إليك حاجة فقام معها وقضى حاجتها ثم أخـــذ بيـــدي حتى أتى داره فألقت إليه الجارية وسادة فجلس عليها وجلست بين يديه فقال عليه الصلاة والسلام: هل تعلم إلهًا سوى الله؟ فقلت: لا، ثم قال: هل تعلم شيئًا أكبر من الله يا عدي؟ قلت: لا فقال عليه الصلاة والسلام: أسلم تسلم" وفعلاً أسلم عـــدي ونزل على الكوفة وابتنى دارًا ولم يزل مع علي بـــن أبـــي طالب في حروبه. وكان عدي قائد قبيلته وكتيبته في فتوحات المدائن والعراق والشام وأصبح عدي بن حاتم الطائي أحـــد القيادات العسكرية المهمة جدًا التـــي لعبـــت دورًا عظيمًـــا وعبقريًا في فتح الإسلام لهذه البلاد والدول.

هناك واقعة شهيرة لخالد بن الوليد هي أنه كـــان يريـــد الدخول على إحدى القبائل وحربها والقضاء عليها لأنه مـــن

القرى التي واجهته في الحرب، وكان خالد بن الوليد يريد التخلص من المعركة على أشد ما يكون العجلة ــ كعادته ــ فقال عدي بن حاتم الطائي لخالد بن الوليد: "إن أتيت لك بها سلمًا: فتردد خالد بن الوليد ثم منحه الفرصة فذهب عدي إلى هذه القبيلة وكانت مجاورة لقبيلته ومنطقته الجغرافية فدعاها إلى الإسلام فأسلمت كلها ودخلت إلى الإسلام بلا إراقة نقطة دم واحدة ولم يرم عليها خالد بن الوليد سهمًا واحدًا. بعد انتهاء عصر عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وما شهدهما من فتوحات لزم عدي بن حاتم الطائي علي بن أبي طالب وأصبح واحدًا من رجاله وقياداته رغم أن علي بن أبي طالب كان قد ذهب ليهدم وثن قبيلة عدي وسبا أخته ولكن سبحان مقلب القلوب ما إن عرف عدي وتعرف على هذا الصحابي الجليل علي بن أبي طالب كرم الله وجهه حتى أحبه وأصبح واحدًا من الذين حاربوا معه وشهدوا معه حروبه سواء موقعة الجمل أو صفين وقيل إنه فقأت عينه يوم موقعة الجمل ثم شهد معه موقعة النهروان ومات عدي بالكوفة في زمن المختار الثقفي وهو الشخص الذي خرج بعد ما يقرب من ٧ سنوات من مقتل الإمام الحسين مناديًا

(يا منصور أمت) وقرر أن ينتقم من الجيش الذي قوامه ٤ آلاف جندي والذي حارب سيدنا الحسين بن علي وقتله. انتقم مختار الثقفي من الأربعة آلاف جندي واحدًا إثر واحد ويحكي لنا التاريخ كيف قتل كل منهم كما قتلوا الحسين. فمن رمى الحسين بسهم رمى عليه سهمًا ومن قطع رأسه فعل به المثل وحكم المختار الثقفي البصرة والكوفة والعراق فترة من الفترات وفي أثنائها ما بين عامي ٦٧ ــ ٦٩ هجرية توفي عدي بن حاتم الطائي بعد عمر طويل ورحلة جبارة وسنوات قضاها في خدمة الإسلام والمسلمين وكان عمره ١٢٠ عامًا.

عبد الرحمن بن عوف.. أعظم الأثرياء

عندما عزم الرسول عليه الصلاة والسلام القيام بغـــزوة تبوك، وهي الغزوة الأخيرة التي غزاها النبي عليه الصــــلاة والسلام في حياته وكانت ظروفها صعبة تمامًا. كانت الحاجة إلى المال كما تقول كتب التاريخ في وصف هـــذه الغـــزوة لا تقل عن الحاجة إلى الرجال لماذا؟

كانت الغزوة في مقابل جيش الروم كثير العتاد والعـــدد فضلاً عن أن المدينة في ذلك العام كانت في جدب والســـفر طويل من المدينة إلى حدود الجزيرة وحواف الشام وكانـــت المؤنة قليلة جدًا والرواحل ــ الدواب والأحصنة والجمال ــ أقل لدرجة أن عددًا من المسلمين ذهبوا إلى الرســـول عليـــه الصلاة والسلام يسألونه بشوق ولهفة إلى النضـــال والجهـــاد معه وأن يأخذهم معه إلى المعركة والجيش فردهم النبي عليه الصلاة والسلام لأنه لم يجد عندهم ما يحملهم عليه، فتولـــوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنًا شديدًا أنهـــم لا يســـتطيعون السفر والذهاب في جيش النبي والانضمام إلى كتائب النبـــي وحرب النبي حتى أن الصحابة وأهل المدينة أطلقـــوا علـــى

هؤلاء الذين ذهبوا للنبي بحثًا عن الجهاد فردهم لأنه لا توجد مؤنة لهم من كثرة البكاء بالبكائين وأطلق على الجيش نفسه جيش العسرة للصعوبة الشديدة التي واجهت الجيش. ودعا النبي عليه الصلاة والسلام المسلمين إلى التبرع والمشاركة المالية في تحمل نفقات هذه الحرب. وكان في طليعة المتصدقين عبد الرحمن بن عوف ويمكن أن نطلق على عبد الرحمن بن عوف ونحن مطمئنون تمامًا واستنادًا إلى ما هو مذكور في كتب التاريخ والتراجم والسير بأنه ملياردير الإسلام فهو أغنى أغنيائه وأعلى أثريائه مكانة. فقد تصدق عبد الرحمن بن عوف بمائتي أوقية من الذهب لكلفة هذا الجيش وتدعيمه حتى أن عمر بن الخطاب ــ بكل عدله وصدقه ــ قال النبي عليه الصلاة والسلام منتقدًا عبد الرحمن بن عوف "أني لأرى عبد الرحمن إلا مرتكبًا إثمًا ما ترك لأهله شيئًا" فالإثم أن تترك أهلك على حافة الإفلاس والمجاعة لأنك أعطيت كل ما تملك لجيش النبي عليه الصلاة والسلام فهذا إثم فقال الرسول ﷺ لعبد الرحمن بن عوف "هل تركت لأهلك شيئًا يا عبد الرحمن؟" فقال عبد الرحمن بن عوف "نعم.. تركت لهم أكثر مما أنفقت وأطيب" فقال رسول

الله ﷺ: "كم؟" فقال عبد الرحمن بن عـوف" مـا وعـد الله ورسوله من الرزق والخير والأجر" يعني أن ما تركه لأهله ليس المال وليس هذا الذهب بأوقياته وكمياته ولكن ما وعـد الله من الأجر والفضل. ذهب الجـيش إلـى تبـوك ودارت المعركة كما تحكي لنا كتب التاريخ والمدهش أنه على الرغم من أن عبد الرحمن بن عوف تبرع بكل ثروته تقريبًا لصالح هذا الجيش إلا أنه اغتنى أكثـر وأثـري أكثـر لدرجـة أن الروايات التاريخية تحكي أنه بعد وفاة النبي عليـه الصـلاة والسلام كان عبد الرحمن بن عوف هو الذي يقوم بمصـالح أمهات المؤمنين بمعنى أن عبد الرحمن بـن عـوف كـان المسئول المادي والمالي عن أمهات المؤمنين بعد النبي عليه الصلاة والسلام. صحيح كان لهن نصيبهن وقسـمتهن مـن الغنى والأموال القادمة من الحروب والغزوات والفتوحـات لكن مرت فترة طويلة عقب وفاة النبي ﷺ لـم يكـن المـال الوفير قد دخل بعد إلى خزائن المسلمين وبيت مال المسلمين، وكان عبد الرحمن بن عوف القائم بمصالح أمهات المؤمنين وكان ينهض بحاجاتهن ويخرج معهـن إذا خـرجن ويحـج معهن إذا حججن ويجعل على هـودج كـل مـنهم الكسـوة

الكريمة. فهو كان الراعي والممول والحامي والحارس لهـن وهذا دليل على ثقة حقيقية عميقة مهمة لها دلالتها من أمهات المؤمنين في ابن عوف ثقة واضحة بلغ من بر عبد الرحمن بن عوف للمسلمين وهو الغني الكريم الثـري والمليـارديرو الذي إذا ما دخل تجارة كسب منها ما كسب، وإذا دخل بيعًا باع فيما باع لدرجة أن كتب التاريخ والسير والتراجم تحكي عن عبد الرحمن بن عوف قوله "كنت أقلب وأقلـب الحجـر لأنظر تحت هل ذهب أم فضة" أي أنه إلى هذه الدرجة كـان الرزق يلاحقه. رزق من الله وأجر كبير. القصة هنا ليسـت المال ولكن ماذا فعل عبد الرحمن بن عوف بالمـال. أيضـًا حيث بلغ بر عبد الرحمن بن عوف بالمسلمين أنه باع أرضًا بأربعين ألف دينار فقسمها كلها على قوم آمنة بنـت وهـب أم رسول الله وفقراء المسلمين والمهـاجرين وأزواج النبـي عليه الصلاة والسلام، فلما بلغ هذا الكـلام السـيدة عائشـة أم المؤمنين رضوان الله عليها: "من بعث هذا المال؟" قيل لها عبد الرحمن بن عوف فقالت: "قال رسول الله لا يحنو عليكن من بعدي إلا كريم" وقد استجيب دعوة الرسول عليه الصلاة والسلام لعبد الرحمن بن عوف وبورك في ماله. لدرجـة أن

تجارته كانت تنمو وتزداد وأصبحت قوافله ذاهبة رائحة من المدينة حاملة القمح والدقيق والدهن (الزيت) والثياب والأواني وكل ما يحتاج إليه أهل المدينة وفي يوم من الأيام قدمت قوافل عبد الرحمن بن عوف على المدينة وكانت مؤلفة من ٧٠٠ راحلة وتمشي على ظهورها الطعام والمتاع وكل ما يحتاج إليه أهل المدينة.. كان عبد الرحمن التاجر والمستورد الأول في المدينة. فهو الثري الغني التاجر الملياردير الذي يكفل المدينة والجزيرة العربية والمنطقة كلها بالاحتياجات من أول الكسوة والطعام وحتى الأدوات والمعدات. ودخلت تلك القافلة المكونة من ٧٠٠ راحلة حتى رجت الأرض بها رجًا فقالت عائشة رضوان الله عليها "ما هذه الرجلة؟ فقيل لها عير عبد الرحمن بن عوف ٧٠٠ دابة تحمل البر والطعام والدقيق" فقالت عائشة رضوان الله عليها "بارك الله فيما أعطاه في الدنيا ولثواب الآخرة أعظم". عندما بلغ هذا القول عبد الرحمن بن عوف حتى طار مسرعًا قبل أن تبرك النوق إلى السيدة عائشة وقال لها: أشهد الله يا أم المؤمنين أن هذه القوافل جميعها بأحمالها ورحالها في سبيل الله" تبرع عبد الرحمن بن عوف بالسبعمائة ناقة

في سبيل الله. وهذا المشهد الذي ينقل لـــك صـــورة حقيقيـــة عن الغني أو الملياردير المسلم أو الرأسمالي المسلم.

كان عبد الرحمن بن عوف يشكو حكة (حساسية) فـــي جسمه فاستأذن الرسول عليه الصلاة والسلام في لبس الحرير وهو بطبيعة الحال محرم على الرجال فوافق النبي واســتثناه وقال النبي "لبس الحرير الحكة التي أصابتك" لدرجة أن عبد الرحمن بن عوف بعد ذلك ذهب إلى عمــر بــن الخطـــاب وطلب منه أن يستثني أبناءه أيضًا ويـــأذن لهــم فـــي لـــبس الحرير. فرفض عمر بن الخطاب. ويعطينا هذا الموقف فكرة عن الغنى والعز الذي كان يعيش فيه عبد الرحمن بن عوف حيث كان أغنى الصحابة وأكثرهم ثراء. لكن هناك مشـــهدًا مهمًا في تاريخ عبد الرحمن بن عوف هذا الملياردير العظيم في تاريخ الإسلام وممول حروب جيوش المســلمين وأحـــد الأعمدة المالية في خدمة الإسلام والمســلمين. وكـــان هـــذا المشهد مفصل مهم في حياة الصحابي العظيم وهـــو عنـــدما حضر سيدنا عمر بن الخطاب الموت قرر أن يضع أســـماء ستة من الصحابة المبشرين بالجنة ليختاروا من بينهم أميـــرًا للمؤمنين خلفًا لعمر بن الخطاب الذي كان يحتضر وقتئذ بعد

محاولة اغتياله على يد أبي لؤلؤة المجوسي، وكان عبد الرحمن بن عوف أحد هؤلاء الستة. أخرج عبد الرحمن بن عوف نفسه من الستة وقال إنه لا يريد الإمارة والخلافة وهذه لحظة مهمة جدًا في حياة عبد الرحمن بن عوف فعندما يجد عبد الرحمن بن عوف نفسه وهو على هذه الدرجة من الغنى والثراء والعز والنعيم وفي لحظة يكتشف أنه يعطي للإسلام وهو الرأسمالي والتاجر العظيم والغني يستطيع أن يدعم الإسلام وأن ينتصر لدين الإسلام ورسوله ونبيه بماله وأمواله وتراثه ونعمة الله عليه فوجد نفسه في منافسة بين أن يأخذ الفلوس والنفوذ أم أن واحدة منهم تكفي. هل تفكر أن تدعم مالك ومكانتك الاقتصادية والمالية والرأسمالية بالسياسة وسند الخلافة والإمارة أم أنك تبتغي وجه الله ولا تبحث عن استكمال الصورة بالسياسة إلى جانب المال أو الحكم والنفوذ إلى جانب الثروة في هذه اللحظة التاريخية العظيمة يمكن أن تكون داخل أفكار وعقل عبد الرحمن بن عوف لنوى أنه لا يحب هذا العمل ولا يهتم بمثل هذه المكانة ولا يسعى لهذا المنصب. كان المشهد اختيارًا هامًا ومهمًا وعسيرًا وشاقًا. معروض عليه أن يكون مرشحًا ضمن ستة لخلافة المسلمين

والإمارة فيختار المال والتجارة ويختار الرزق ونعيمه في المال والثروة وفي نفس الوقت لا يتخلى عن دوره كعنصر هام جدًا وفعال للغاية كممول في فترة من الفترات. ولم تكن الأمور قد امتدت بعد في الثراء الإسلامي بعد الفتوحات. إلى الحد الذي كان معه عبد الرحمن بن عوف ممول رئيسي.. بنك هام ومركزي للإسلام. قرر عبد الرحمن بن عوف في تلك اللحظة أن يخرج من الستة ويصبح حكمًا بينهم بمعنى أنه هو الذي يسمع آراء الخمسة ويقرر من الذي يتولى خلافة المسلمين. يقرر عبد الرحمن بن عوف الملياردير المسلم العظيم أروع الأغنياء وأغنى الرائعين في تاريخ الإسلام، أن يفضل المال والتجارة عن الإمارة ثم في نفس الوقت يصبح حكمًا بين الخمسة المرشحين للإمارة وأن يختار ويتحمل مسئولية اختيار خليفة المسلمين. أي أن هذا الرجل الغني الثري التقي النقي هو الذي اختار خليفة المسلمين. هو الذي كان حكمًا وكيف أنه أمسك بيد عثمان بن عفان وجعله خليفة على المسلمين. لكن المدهش هنا أن عبد الرحمن بن عوف وهو يختار عثمان بن عفان أن عثمان بن عفان كان شريكه في التجارة وكان صهره وقريبه وصلة

الرحم بينهما قوية وبالتالي كان ذلك الموقف أن فتح باب الدهشة التاريخية والتي اعتبرها البعض ثقة كاملة في شخص وتقدير و "ضمير" عبد الرحمن بن عوف وربما يثير البعض الآخر أسئلة حول ألم يكن من الأولى ألا يختار عثمان بن عفان لهذه الصفات الثلاثة القرابة والمشاركة والمصاهرة. لا يعنيني هنا إلا التوقف عند تلك اللحظة في التاريخ الإسلامي وهي أن عبد الرحمن بن عوف الذي نحكي ما نحكيه عنه هو الشخص الذي آثر التجارة على الإمارة وهو أيضًا كان صاحب اليد الطولى والعليا في اختيار عثمان بن عفان أميرًا للمؤمنين. جعل عبد الرحمن بن عوف ماله كله في مرضات الله ورسوله وكان يقال إنه ينفقه بكلتا يديه يمينًا وشمالاً سرًا وعلانيةً وما أريد أن أقوله إن الثري المسلم لا بد أن يكون هو عبد الرحمن بن عوف بمعنى غني لله فهو تصدق بأربعين ألف دينار ذهبًا ثم تصدق بمائتي أوقية ثم حمل مجاهدين في سبيل الله على ٥٠٠ فرس يملكها وفي مرة أخرى ١٥٠٠ راحلة وكانت كل هذه فتوحات في سبيل الله. صحيح أن الإسلام يعود بالخير الوفير والغنائم للمسلمين ولكن لم يكن يصيب عبد الرحمن بن عوف منها إلا كما

يصيب باقي المسلمين ويمثل عبد الرحمن بن عوف التقاليد الإسلامية المقدمة والمؤكدة للغني المسلم. لا يصح أن نتعامل مع الغنى المادي الذي يتملكه المسلمون سواء في عصور سابقة أو حالية أو قادمة إلا من وجهة هذه النظر وبهذا الطريق إذا قلت إنه كان يلبس الحرير وسمح له النبي بذلك سأقول لك إن هذا الاستثناء النبوي العظيم والرقيق لكن في النهاية ماذا قدم عبد الرحمن بن عوف في مقابله وماذا فعل للمسلمين والإسلام. إذا قلت إن عبد الرحمن بن عوف شارك في اختيار عثمان بن عفان وربما اختار عبد الرحمن بن عوف مع بعض الاستفهامات التاريخية لكن الإجابة هل تكسب عبد الرحمن بن عوف من شراكته لعثمان بن عفان بعد الخلافة. عبد الرحمن بن عوف وقد تحصل على ما تحصل وأثرى ما ثرى واغتنى ما أغنى ماذا فعل بغناه وثرائه. عبد الرحمن بن عوف مول الجيوش وقدم دعمًا ماليًا هائلاً للإسلام والمسلمين. وهو النموذج الذي يجب أن نستضيء به فيما يخص الثروة والمال. إذا كان عندنا نماذج عظيمة جدًا في رفض الثروة مثل أبو ذر الغفاري الصحابي الجليل وفي المطالبة بأنه لا تكتنز المال والفضة وفي

المساواة والعدل مع الفقراء وهذا كلام إسلامي حقيقي مائة بالمائة ولكن يقدم النموذج الواحد المؤكد وهو نموذج عبد الرحمن بن عوف كلنا طلاب عدل.. كلنا طلاب عدالة.. كلنا ننادي بالمساواة بين الفقراء وبين الأنبياء ولكن هذا لا يعني أننا نعتبر أن الغنى مظنة أو الثراء معيبة أو أن الثري الغني هو بالضرورة مستغل فاسد. لا ولكن القضية كلها هل تجتمع الثروة مع التقى وهل يجتمع المال مع العدل وعدم الاستغلال وهل يجتمع المال مع العطاء. هذه هي الفكرة الأساسية التي استطاع عبد الرحمن بن عوف بقدوته وقامته العالية أن يحققها لكن ماذا فعل عبد الرحمن عندما حضرته الوفاة؟ أعتق خلقًا كثيرة من ممالكه وأوصى لكل رجل بقى من بدر ــ أي شهد بدرًا ــ بأربعمائة دينار ذهب وكان هناك مائة من الذين حضروا بدرًا لا زالوا على قيد الحياة عند وفاة عبد الرحمن بن عوف وأوصى لكل واحدة من أمهات المؤمنين بمال جزيل حتى أن أم المؤمنين عائشة رضوان الله عليها كانت تقول عبد الرحمن بن عوف خلف لورثته مالاً لا يكاد يحصيه العد، حيث ترك ألف بعير ومائة قرش وثلاثة آلاف شاه وكانت نساؤه أربعًا خص كل واحدة منهن ٨٠ ألفًا وترك

من الذهب والفضة ما قسم بين ورثته بالفلوس حتى تـــأثرت أيدي الرجال من تقطيع الذهب.. كل هـــذا بطبيعيـــة الحـــال بفضل من الله ونعمة وأجرًا ودعاء النبي.. لكن إلى جانـــب الموهبة والذكاء التجاري والاقتصادي لعبة عبد الرحمن بـــن عوف. لكن ذلك المال كله لم يفتن عبد الرحمن بـــن عـــوف ولم يغيره فإذا كان الناس إذا رأوه بين مماليكه وعبيده فلـــم يفرقوا بينه وبينهم في لحظات ما قبل موته عندما كان يأتيـــه الطعام. وهو طعام فاخر بطبيعة الحـــال لأثـــرى العظمـــاء وأعظم الأثرياء ـــ كان ينظر للطعام ويقول "قد قتل مصعب بن عمير وهو خير مني فما وجدنا له إلا كفنًا إن غطى رأسه ظهرت قدماه وإن غطى رجليه بدا رأسه ثم بسط لنا الله من الدنيا ما بسط وإني لأخشى أن يكون ثوابنا قد عجل لنا" ثـــم كان يبكي حتى عافى الطعام ومات.

معاذ بن جبل.. إمام العلماء

كان معاذ بن جبل من السابقين إلى الإسلام وشهد بيعة العقبة مع السبعين من الأنصار، وكان عمره وقتها ١٨ عامًا وكان لا يزال أمردًا أي يخلو وجهه من الشعر.

عندما علم عمر بن الخطاب أن الناس يتباركون بالشجرة التي تمت عندها بيعة العقبة أمر بقطع الشجرة، رغم أن بيعة العقبة كانت فتحًا عظيمًا في مسيرة النبي والإسلام إلا أن عمر بن الخطاب ﷺ كان عظيمًا نابهًا، أمر بقطع الشجرة كي يقطع أي فتنة أو افتتان بها.

كان معاذ بن جبل من نجباء الصحابة من أشهر فقهائهم. وتصفه كتب التاريخ والسير والتراجم بأنه كان إليه المنتهى في الأحكام والقرآن أي أنه كان سقفهم العالي. أما الجانب الأكثر اشتغالاً بالنور في حياة معاذ بن جبل فكان ما يتمتع به من سعة العلم والمعرفة. فتح الله على ذلك الشاب كل قنوات الفهم والعقل والاستيعاب لكتاب الله وفهمه وحفظه فتلقى كلام رسول الله ﷺ بشفق وشوق فكان حافظًا محدثًا فقيهًا. واعتمد عليه النبي عليه الصلاة والسلام في مواقع

متعددة حيث مارس التعليم والإفتاء والقضاء. عندما نتأمل تقدير الرسول عليه الصلاة والسلام للعلم. وتحول اسم معاذ بن جبل إلى إمام العلماء فهذا معناه الحصن على العلم والتعلم ليس بمعناه الديني الفقهي فقط وإنما بمعناه الأوسع والأشمل والأبعد من مجرد الفقه والحديث لكن وقتئذ لم تكن هناك علوم دنيوية مثل الكيمياء والفيزياء والفلك وكان العلم المؤسسي وقتها والمنوط بإقامة الدنيا هو العلم الديني الفقهي فكان منوطًا بتأسيس الدنيا بمعاملاتها وعبادتها.

يقول معاذ بن جبل أن الرسول عليه الصلاة والسلام أخذ بيده قائلاً: "يا معاذ والله إني لأحبك وأحب لك ما أحب لنفسي". وكان الرسول عليه الصلاة والسلام يثني على معاذ بأساليب مختلفة فمرة يقول له "نعم الرجل معاذ بن جبل" وأخرى يقول له: "قد عرفت بلائك في الدين يا معاذ" ولعل معاذ بن جبل من الصحابة الذين تمتعوا باهتمام خاص من النبي عليه الصلاة والسلام.

ويعد معاذ بن جبل من النخبة العلمية في ميدان العلم والمعرفة فهو عالم موسوعي من ذوي المواهب والعقول الراجحة، فكان معاذ ممن وقع عليهم اختيار الرسول عليه

الصلاة والسلام في هذا المجـــال وتشـــير روايـــات كثيـــرة ومتنوعة عن حوارات بين النبي عليه الصلاة والسلام تكشف عن كبير هذا الاهتمام لتكشف النبي عليه الصلاة والسلام أن معاذ بن جبل يحمل عقلاً موسوعيًا عبقريًا فكان لا بـــد مـــن الاهتمام به وتحمل الأغلبية العظمى مـــن الحـــوارات هـــذا الجانب العلمي حيث كان النبـــي عليـــه الصـــلاة والســـلام يصطحب معاذًا أو يأخذه ورائه على الدابة ويبدأ في تلقينـــه العلم من خلال الأسلوب النبوي المعروف كأن يخاطبه عليه الصلاة والسلام: "يا معاذ أني أوصيك" أو يقول له " يا معاذ أني آمرك بكلمات" أو "يا معاذ ألا أعلمك دعاء" أو "يا معـــاذ ألا أحدثك حديثًا" وكان هناك نوع آخر من الأحاديث يحـــث فيها النبي عليه الصلاة والسلام معاذًا على الســـؤال وطلـــب العلم فمثلاً يقول له "يا معاذ ألا تسألني إذا خلوت" أو "يا معاذ ما حق الله على العباد" وكانت هذه الأسئلة لتحـــريض معـــاذ على إكمال عقله كان النبي عليه الصلاة والســـلام حريصًـــا على صحبة معاذ ولقائه فكان إذا غاب عنه قال له: "يا معاذ لم لي لم أرك؟".

وهو ما يكشف حالة الحفاوة والاهتمام والرعاية والتأكيد على الجانب العلمي في شخصية معاذ. فاستطاع معاذ بن جبل أن يمثل تلك المرتبة المرموقة العالية بين الصحابة وعلى الرغم من وفاته المبكرة حيث توفي وعمره ٤٢ عامًا إلا أنه كان إمام العلم والعلماء.

وأشار كثير من الصحابة إلى تفوق وصدارة معاذ بن جبل واشتهرت رواية تقدمه على جميع الصحابة في المكانة العلمية فيقول الرسول عليه الصلاة والسلام: "يبعث معاذ بن جبل يوم القيامة على ربوة إمامًا للعلماء" وكان معاذ متخصصًا في علوم القرآن وكان يفتي في المدينة المنورة أثناء زمن الرسول عليه الصلاة والسلام إذ شهد له النبي بذلك فقال: "معاذ أعلمهم بالحلال والحرام" وكان عليه الصلاة والسلام يصدق على ما يقوله معاذ ويدعوا المسلمين إلى أن يتبعوا ويتابعوا معاذ بن جبل فعندما سأل أنس بن مالك عن حديث سمعه من معاذ بن جبل كان جواب النبي عليه الصلاة والسلام لأنس "صدق معاذ". كانت شخصية معاذ العلمية واضحة بكل أبعادها للنبي عليه الصلاة والسلام لذلك اعتمد عليه في أعمال إدارية ومهام علمية وقضاء فكان ضمن

أمراء النبي عليه الصلاة والسلام ــ ضمن سبع وثلاثون آخرون ــ إذ كان النبي عليه الصلاة والسلام يرسلهم لسرايا ومدن وملوك وكان معاذ ثاني اثنين في قائمة قضاة النبي بمعنى أنه أوكل إليهما القضاء وهو على ظهر الأرض وهما علي بن أبي طالب ومعاذ بن جبل، لكن العمر لم يسعفه حيث مات في عهد عمر بن الخطاب بينما ظل علي بن أبي طالب يقضي في زمن أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وحتى مقتله على يد الخوارج. كما كان معاذ بن جبل من حراس الرسول عليه الصلاة والسلام يوم بدر وكان من مسئولياته فيما بعد القضاء وتعليم الناس: شرائعه، وقراءة القرآن وقبض الصدقات وهو ما يدل على أنه كان موضع ثقة وكفاءة فكان الرسول عليه الصلاة والسلام يقول عنه: كنت أبعث معاذ بن جبل وسالم مولى أبي حذيفة وأبي بن كعب وعبد الله بن مسعود إلى الأمم كما بعث عيسى بن مريم بالحواريين" أي أنه عليه الصلاة والسلام كان يختار هؤلاء الناس ليرسل بهم بتعاليمه ورسائله لإبلاغ الناس ودعوتهم إلى الإسلام. بعد حجة الوداع أو التمام كما يسميه البعض بعث النبي عليه الصلاة والسلام عددًا من أصحابه إلى اليمن

لإدارة شئونها وتعليم أهلها تحصيل الضرائب والجزية وكان معاذ بن جبل من أبرز الشخصيات التي أرسلها النبي لتلك المهمة. لاحظوا أن اليمن كانت منطقة في غاية الأهمية نظرًا لأنها منطقة حضارة وعلم وما على ذلك، كما أنها كانت على ديانة فكان بعض أهلها مسيحي والآخر يهودي لذلك يحتاجون إلى فقهاء وعلماء أجلاء تتنوع كفاءتهم وقدراتهم مثل معاذ بن جبل قائدًا ومعلمًا ومشرفًا على أعمال الصدقة وضبطها وقبل أن يرسله النبي ليقضي بين أهلها قال له: "بما تقضي إن عرض لك قضاء؟ فأجاب معاذ: أقضي بما في كتاب الله فقال: فإن لم يكن في كتاب الله فقال: فإن لم يكن بما قضى به الرسول فقال: أجتهد رأيي ولا ألو ـــ أي ولا أظلم ـــ فضرب صدري وقال: الحمد لله الذي وفق رسول الله لما يرضي الله" هذه الأسئلة والإجابات لا تعني إلا شيء واحد وهو أن الرسول عليه الصلاة والسلام يحرص على الاجتهاد وأنه قد يعضل لك معضل خارج حدود النص القرآني وخارج حدد ما قاله النبي عليه الصلاة والسلام فيكون الحكم بالاجتهاد.

ظل النبي عليه الصلاة والسلام يدفع معاذًا إمام العلماء حتى يقولها "اجتهد رأيي ولا ألو" فخرج النبي عليه الصلاة السلام مودعًا معاذ داعيًا له بالخير والسداد موصيًا بتقوى الله وحفظ حرمة عباده. وفي رواية أخرى أنه لما أرسل النبي عليه الصلاة والسلام معاذًا بن جبل على اليمن خرج يوصيه ومعاذ راكبًا ورسول الله يمشي جوار راحلته. وتقال هذه الرواية كثيرًا بين معاذ والنبي وفي وداع أبي بكر الصديق لأسامة بن زيد هو خارج إلى المعركة بفلسطين أو تخوم وحدود فلسطين كما تقال مع عمر بن الخطاب وهو ينتظر مندوب أو رسول أو مبعوث سعد بن أبي وقاص ليعرف ما حدث في القادسية وهي أن الإمام يسير على قدميه والآخر على الراحلة. عندما يسير الرسول عليه الصلاة والسلام بجوار الراحلة التي يركبها معاذ بن جبل فهذا معناه عظمة رسولية وتواضع نبوي فذ وتقدر لعالم جليل.

أرسل الرسول عليه الصلاة والسلام معاذ بن جبل قاضيًا ومعلمًا وأميرًا لليمن وعندما انتهى من إلقاء وصاياه عليه وإدارة هذا الحوار العبقري العظيم (بما يقضي معاذ بن جبل إن تعرض له قضاء في اليمن) فقال النبي: "إنك عسى

ألا تلقاني بعد عامي هذا وعلك تمر بمسجدي وقبري" فبكى معاذ وعندما ذهب إلى اليمن ابتنى فيه مسجدًا.

كان النبي عليه الصلاة والسلام أوصى بأخذ القرآن عن معاذ بن جبل وكان معاذ بن جبل القاضي المرشد لأهل اليمن. في تلك اللحظة والتوقيت توفي النبي عليه الصلاة والسلام فكيف تعامل الصحابة مع معاذ بن جبل إمام العلماء والعلم؟ كان الكل يحتفظ لمعاذ بمكانته العلمية. كان الواقع العلمي الذي يعيشه أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام يدفعهم دفعًا لاعتبار معاذ بن جبل الشخص المهاب من الجميع، فعندما تعقد المناقشات والنقاشات ونوادي العلم ويتحدث أهل العلم والرواية والحديث والفقه ينظر الجميع إلى معاذ وينتظرون إيماناته وإشاراته وتصديقه على كلامهم، فهم يريدون أن يروا في عيني معاذ تمام الحق بمعنى هل ما قاله الصحابي كلام حقيقي يوافق عليه معاذ؟ لأنه إمام العلماء إذ يبعث يوم القيامة على ربوة كما يقول النبي عليه الصلاة والسلام. يقول عبد الله بن مسعود: كنا نشبه معاذ بن جبل بإبراهيم الخليل عليه السلام. كان أمة قانتًا لله" وروي أن عمر بن الخطاب خطب في الناس قائلاً: "من أراد أن يسأل

القرآن فليأتي أبي كعب ومن أراد أن يسأل الحلال والحرام. فليأتي معاذ بن جبل ومن أراد أن يسأل المال فليأتيني فإني له خازن" فكان عمر بن الخطاب يرى نفسه مجرد خازن وحارس على بيت المال أما الإفتاء فيقوم به معاذ بن جبل وفقه القرآن يقوم به أبي بن كعب. كما قال عمر بن الخطاب في تقديره لمعاذ: "عجزت النساء أن يلدن مثل "معاذ" وقال "لولا معاذ لهلك عمر" أي أن الناس يستطيع أن يقدم له النصح والمشورة والإجابة عن الحلال والحرام هو معاذ بن جبل. وعندما أدركت عمر بن الخطاب المنية قال: "لو أدركت معاذ بن جبل لوليته ثم لقيت ربي فسألني من استخلفت على أمة محمد لقلت سمعت عبدك ونبيك يقول: يأتي معاذ بن جبل بين العلماء بربوة".

وهذا الحديث يؤكد رغبة الناس في تقدير الصحابة حسب عاطفة وحب كل راوي. لكن دعك من هذه السطور المنسوبة إلى عمر بن الخطاب حول أنه كان يمكن أن يوليه إمارة المسلمين من بعده. لكن معاذ بن جبل في حد ذاته جبل من العلم وملأ مساحة واسعة من بلاد الإسلام علمًا وفقهًا وحديثًا، وهو عالم تربى على يديه كثير من أبناء الأمة

الإسلامية في مكة والمدينة واليمن والشام حتى أن بعض من كان يحضر مجالسه وينهل من علمه بكاه في حياتـــه وهـــو يودع الدنيا وقد تجاوز الأربعين بقليل، وكان يبكي أمام معاذ فلما سأله عن سبب بكائه أجابه أنه سيفتقد علمه عندما يرحل عنهم. توفي معاذ بن جبل وعمره ٤٢ عامًا فـــي عـــام ١٨ هجرية. وهذا الموت المبكر قد يثير أسئلة خاصة أنه لم يكن معتل الصحة أو يشارك في غزوة أو فتح والحقيقة أنه كـــان من ضحايا طاعون (عمواس) هذا الطاعون الـــذي شـــهدته الأمة الإسلامية عام ١٨ هجرية.

كان طاعونًا هامًا وخطيرًا في التاريخ الإسلامي حيـــث بلغ عدد ضحاياه ٢٥ ألفًا وقيل ٣٠ ألفًا من ضمنهم كثير من الصحابة، ولم يتوقف أحد كثيرًا عند كارثة الطـــاعون علـــى الرغم من كثرة ضحاياه وينسب الطاعون إلى هـــذه البلـــدة (عمواس) التي تقع بين فلسطين وتخومها وحـــدودها. وتـــم نسب الطاعون إلى هذه البلدة رغم أنه تعدى حدودها لأنهـــا كانت أول مكان يظهر به. مات معاذ بـــن جبـــل مـــن أثـــر الطاعون ولحق بعبيدة الجراح الذي مات من أثر الطـــاعون أيضًا حيث كان أميرًا على هذه المنطقة فلمـــا طعـــن ــ أي

أصابه الطاعون ــ ولي الإمارة معاذ بن جبل لكن سرعان ما أصاب الطاعون معاذ بن جبل نفسه وتوفي الرجل العظيم وإمام العلماء عن سن ٤٢ عامًا وفي بعض الروايات ٤١ عامًا وفي أخرى ٤٠ عامًا سنة ١٨ هجريًا من أثر الطاعون.

تحدثنا كثيرًا ونتحدث دائمًا عن الصحابة الفرسان القادة الفاتحين والأبطال المنتصرين أو المختلفين سياسيًا وصراعاتهم الحزبية وعن المحن والأحن والوقائع والأحداث وعندما نتحدث عن بطولات وفتوحات وقيادات سياسية وعسكرية وعن العدل والحكام العادلين فإن كل ذلك لا يجب أن ينسينا أن نتحدث عن الصحابة العلماء أو عن العلم حيث يشكل الصحابة خريطة كبيرة من القيادات العسكرية والأبطال العظام كل في مجاله. لكن يبقى إمام العلماء معاذ بن جبل ممثلاً لهذه القيمة التي نفتقدها وهي العلم بمفهومه الأوسع الأشمل. فالعلم بحاجة إلى نظرة إسلامية جادة له لا تتوقف على مجرد الحديث. فالعلم والعقل مسألة مهمة جدًا والحقيقة أنه عندما نتحدث عن العلم يجب دائمًا أن نتوقف. ننتبه. ننتظر. نحترم. ندرس. نبحث. نجل. نقدر. معاذ بن

جبل إمام العلماء. أين العلماء وأين إمامهم؟ يجب أن نبحث عن معاذ بن جبل ولديه الإجابة.

رجال حول الرسول

بداية إذا أردنا معرفة سيرة أي صحابي من صحابة رسول الله من لحظة إسلامه وربما من لحظة ميلاده حتى لحظة مماته كيف نعرف ذلك؟ أولاً هناك كتب مشهورة في هذا السياق بطبيعة الحال وأشهرها كتاب الأستاذ خالد محمد خالد (رجال حول الرسول) وهو كتاب رائع وقيم وتعلمنا على يديه وأحببنا القراءة والكتابة في التاريخ الإسلامي عبره. لكن الكتاب يتعامل مع ٦٠ صحابيًا فقط وعندما تقرأه تكتشف أن هناك إحساسًا كبيرًا بالكتابة الأدبية والبلاغية لكن لا يوجد أي سرد تاريخي تفصيلي لحياتهم، وتستغرق حياة الصحابي ما بين ٤ ــ ٥ صفحات وكأنها عناوين. وكان الكتاب معنيًا أكثر بالرجال حول الرسول بمعنى كيف كانوا؟ كيف أسلموا؟ وكيف تعلموا من الرسول عليه الصلاة والسلام؟

والكتاب مشبع للذين يبحثون عن الرحلة بشكل عام لكل صحابي وكيف كانت لكنه ليس مشبعًا للباحثين عن التاريخ التفصيلي للصحابي فمثلاً أثار انتباهي أن كل ما قرأته في

كتب التاريخ عن أسامة بن زيد يتوقف عن لحظة خروجه بالجيش بعد تولي أبو بكر الصديق الخلافة، وإقراره على الجيش الذي كان النبي عليه الصلاة والسلام أمره عليه قبل وفاته. فإذا أردت أن تعرف أكثر عن حياة أسامة بن زيد فلا تجد إلا لمامًا. عندما نبحث في كتب السيرة والتراجم عن حياة الصحابة فأمامنا كتب إما حديثة وهي كتب تشرب منها لكنها لا تروي ظمأ الباحث الذي يشغله فكرة التاريخ الإسلامي مثل كتاب (رجال حول الرسول) لخالد محمد خالد وكتاب (صور من حياة الصحابة) ويضم ٦٥ شخصية للأستاذ الدكتور عبد الرحمن رأفت الباشا وهو أقرب إلى كتاب خالد محمد خالد (رجال حول الرسول) والحقيقة أن ذلك الكتاب ومعظم الكتابات التي تقرأها في هذا السياق تكاد تكون بنفس الألفاظ والكلمات والسطور بمعنى أنهم يرجعون إلى مراجع واحدة بطبيعة الحال، ويتوقفون عند نفس اللحظات في حياة كل صحابي ومن ثم فإن أي كتاب منهم يغني عن باقي الكتب. وتأتي معظم هذه الكتابات في سياق التحية والمحبة والإجلال والتقدير للصحابة لكنها ليست في سياق التاريخ التفصيلي والتحليلي للوقائع بدليل أنك تكتشف

في معظم هذه الكتب أن حياة الصحابي بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام لا تتجاوز ٦ ــ ٧ أسطر يحكون فيها عن كيف ومتى توفي الصحابي فضلاً عن سيطرة اللغة الأدبية البلاغية على تلك الكتابات أكثر من اللغة التاريخية. إلى جانب هذه الكتب والكتابات المعاصرة هناك كتب ومراجع موسوعية منها كتب في التاريخ بشكل عام مثل كتاب الطبري (تاريخ الأمم والملوك) للإمام جعفر الطبري ويقع في عدة مجلدات وهو مثل كتاب (الكامل في التاريخ) لابن الأثير وكتاب (البداية والنهاية) لابن كثير أيضًا.

يبدأ كتاب (تاريخ الأمم والملوك) للطبري الحكي منذ بدء الخليقة وحتى قرون عبرت في الإسلام ويرد الوقائع والأحداث سنة بسنة فمثلاً السنة الرابعة عشر نقرأ: ذكر القادسية، ذكر أحوال أهل الثواب، ذكر بناء البصرة وهكذا سنة بسنة أي أنك إذا أردت معرفة تاريخ أحد الصحابة فتضطر لقراءة المرجع كله لتعرف متى بدأ الصحابي وكيف تطور به الحال سنة بسنة ومتى مات وهي مسألة ليست بالهينة لأنك إذا استطعت تحمل مشقة القراءة فستفاجأ باللغة التاريخية العصبة وسرد الأشعار.

فماذا فعلت لأجمع هذه المادة؟ كنت ألجأ إلى كتاب (أسد الغابة في معرفة الصحابة) لعز الدين بن الأثير أبي الحسن بن علي بن محمد وهو كتاب موسوعي عظيم عن سبعة آلاف صحابي وصحابية ويلعب هذا الكتاب أبلغ الأدوار عظمة في تدوين وكتابة تاريخ الصحابة. يرتب الكتاب الصحابة ترتيبًا هجائيًا وقد يستغرق الحكي عن حياة الصحابي ٤ أسطر فقط وبعضهم قد يستغرق الحكي عنه ٣ صفحات وللكتاب مميزات كما تذكرها المقدمة وهي أنه رتب تراجم الصحابة ترتيبًا هجائيًا دقيقًا حسب الحروف الهجائية لكل اسم مثبتًا مراجعه التي نبه عليها بالرمز ومراجع أخرى كثيرة في مختلف العلوم ذكرها بالاسم فضلاً عن شرح للكلمات الغريبة وتصويب لبعض الأخطاء ويعد ابن الأثير واحدًا من العظماء الذين قدموا للإنسانية كتبًا عظيمة منها (أسد الغابة في معرفة الصحابة) وهو كتاب يعلن عن سعة إطلاعه ومعرفته بالأخبار وغرامه بالبحث ودقته في النقل وأصالته في التأليف وفي الكتاب يقرر ابن الأثير أنه عانى مثلما نعاني نحن الآن فكان يريد أن يعرف قصة صحابي فماذا يفعل؟ جمع كل كتب التاريخ التي ألفها أو ألفها غيره

وبدأ يتتبع مسيرة كل صحابي ويعرضها في هذا الكتاب بالحروف الأبجدية. لكنها برغم كل هذا قد تكتشف أنك لم تعرف بعد كل شيء عن حياة الصحابي وأن معرفته لا تروي ظمأك فيبرز السؤال كيف تحصل على معلومات واضحة كثيرة متعددة عن أحد الصحابة؟ بعد أن أقرأ عن حياة الصحابي في كتاب (أسد الغابة في معرفة الصحابة) كنت أرجع إلى كتاب الطبري (تاريخ الأمم والملوك) وأرجع إلى العام الذي توفي فيه الصحابي حيث يذكر الطبري جزءًا من سيرة الصحابي عند ذكره لعام وفاته فتجد أن المذكور لا يختلف كثيرًا عما كتبه ابن الأثير في (أسد الغابة) فتكتشف بالفعل أن هناك من الصحابة من يمكن ألا تجد عنهم كتابات كثيرة، وأن التاريخ يكون مهتمًا جدًا بهم في مرحلة ثم ينساهم في مرحلة أخرى. وهناك صحابة آخرون الاهتمام بهم واسع وكبير مثل خالد بن الوليد وعمرو بن العاص. أيضًا من الكتب الهامة كتاب (حياة الصحابة) للعلامة الشيخ محمد يوسف القندهلوي والذي توفي عام ١٣٨٤ هجريًا ويقع في ثلاث مجلدات ويقسم الكتاب الصحابة وفقًا للأحداث وليس الشخصيات فمثلاً يضم الكتاب فصلاً بعنوان البكاء ويروي

فيه كل المشاهد التي بكى فيها الصحابة، وفصل آخر بعنوان البكاء ويروي فيه كل المشاهد التي بكـــى فيهـــا الصـــحابة، وفصل آخر بعنوان العدل يضم أحاديث عن العدل ومواقـــف وأحداث عن العـــدل فالتقســـيم موضـــوعي ولـــيس تقســـيم شخصيات فتكتشف أنه لا مفر من العودة لكتب السير السابقة لكن أحيانًا تطغى حادثة على البحث مثل عزل خالد بن الوليد هناك كتب بطبيعة الحال تحدثت عن خالد بن الوليد وكتـــب أخرى عن سيرة عمر بن الخطاب فأقرأ هذه وتلك ثم أرجـــع لكتاب الطبري ومن الفهرس تعرف السنة التي عُزل فيه خالد بن الوليد، وتبدأ تقرأ الواقعة كما ذكرت في أمهـــات الكتـــب ثم أرجع لكتاب ابن الأثير (الكاتب) وكتاب ابن كثير (البداية والنهاية) هناك بعض الوقائع يكون هناك اختلاف عليها بـــين الكتب ليس اختلافًا لحد التناقض بطبيعة الحال ولكـــن فـــي تفصيلات الحدث نفسه فأفتح كتاب (أسد الغابـــة)، (وفيـــات الأعيان)، (الطبقات) وهي كلها كتب تراجم وبناء على ذلـــك تعرف ماذا حدث؟ ثم تبني رؤيتك النقدية لما حـــدث وبـــأي طريقة وما رأيك؟ وهناك أساتذة فوق الجميع ومهما بذلنا من جهود لن نستطيع وصف ما فعله هؤلاء العمالقـــة للتـــاريخ

الإسلامي وهم محمد حسين هيكل صاحب (حياة محمد) و(الفاروق) و(أبو بكر) وكتاب (عثمان) ثم طه حسين ثم الأستاذ ــ فلا يمكن أن نقول اسمه مجردًا هكذا عباس محمود العقاد. والذي وفر عليَّ الكثير من المعاناة في البحث التاريخي عن الإجابات على الأسئلة. طول الوقت كانت هناك أسئلة تدور في ذهني عن سير الصحابة، أحاول أن أجد الإجابة الشافية لها في كتب التراجم والسير والتاريخ. هناك شخصيات عرض لها العقاد بالتحليل والنقد مثل عبقرية خالد، عمرو بن العاص، معاوية بن أبي سفيان، ذو النورين عثمان بن عفان، إلى جانب العبقريان وأشعر أننا بحاجة للكتابة عن عبقرية العقاد نفسه ماذا فعل العقاد؟ فعل ما أحاول فعله الآن ولكن (بأستذة ومعلمة) بخبرة وعقل ونقد ودراسة وعبقرية ووعي. جع العقاد إلى نفس الكتب التاريخية والموسوعية التي تحدثت عنها لأنه لا يوجد كتب غيرها فالمراجع واحدة موجودة في كل المكتبات وعند كل الناس لكن الفكرة هو كيف تقرأها وعند ماذا تتوقف؟ وما الذي تقتبسه منها؟ العقاد هو الوحيد الذي كتب عن هذا التاريخ بشكل فيه منطق وعقل وبطريقة أبهرتني شخصيًا. فبينما كان هيكل مهتمًا بإعادة

صياغة كتب التاريخ حتى يتمكن الباحثون من قراءتها لأنها صعبة جدًا لغير المتخصص كان العقاد منشغلاً بتأمل وتحليل هذه الكتب. أما الأستاذ العظيم الدكتور طه حسين فله كتب في هذا الموضوع لا شك أنها رائعة ومدهشة ويقف على قمة هذه الكتب كتاب الفتنة الكبرى بجزأيه (عثمان) والثاني (علي وبنوه) وفعل طه حسين ما فعله العقاد، رجع إلى الكتب والمراجع، والمراجع الموسوعية وتأملها وقرأ ما فيها ثم أعاد روايتها مرة أخرى بطريقته وصياغته ثم قراءتها عقليًا ونقديًا. ويتحدث دكتور طه حسين بشكل لطيف جدًا عندما تقرأه فيقول (أحدثكم عن) لأنه كان كفيفًا وكان يملي ما يكتبه أما لغة طه حسين فلا يوجد أرقى منها فإذا كنت تريد القراءة بشكل مستمتع جدًا متلذذ للغاية وشبعان نفسيًا جدًا فعليك بطه حسين أما إذا كنت تريد أن تعمل عقلك مثل الموتور فعليك بعباس العقاد.

هناك كتب أخرى جميلة مثل (صفوة الصفوة) للعلامة بن الجوزي عن أعظم الشخصيات في التاريخ وكتاب (السيرة النبوية) لابن هشام وهو المرجع الأساسي للسيرة النبوية ولم يكتبه ابن هشام وإنما اقتصر دوره على تنقيحه

واختصاره فقط فنسب إليه وهو المرجع الأساسي في كل ما يخص علاقة الرسول عليه الصلاة والسلام بالصحابة، وما كان يحدث بينهم ولم يكن ذلك مناطي وهدفي الأول في هذا الكتاب لأنني كنت مهتمًا بما بعد النبي عليه الصلاة والسلام فكانت هذه الكتب التاريخية تسد هذه الحاجة، ولا توجد أي كلمة في هذا الكتاب خارج هذه الكتب. أما الآراء التي أوردتها فكانت من بين هذه الكتب. فكل المراجع التي عدت إليها في هذا الكتاب التزمت بها تمامًا وكلية. وكل ما هو مذكور في الكتاب عن الصحابة هو تقدير وإجلال لهم حتى وهم يختلفون ويتصارعون ويتنافسون لأن الشخصيات العظيمة الرائعة المذهلة مثل صحابة رسول الله ورجال ما بعد الرسول عليه الصلاة والسلام هم عظام مهما اختلوا وعظام مهما اختلفنا معهم أو حول موقف أو رؤية أو حداثة أو واقعة لهم. فالكل كان يرى فيما يفعله الحق. ونحن نرى الحق مع الجميع لكننا محتاجون إلى عقل يفرز ويقول ويقول ويحكي ويقرأ قبل ذلك كله.